



قصد محمد على عن عمد ام لم يقصد ــ لست ادرى ــ أن يكون «مأمون زمانه» ؟ ولكن الذى لا مراء فيه أنه الزم الطلبة الذين أوفدهم لدراسة العلوم الحديثة فى فرنسا أن يعكفوا ، فور عودتهم الى الوطن ، على نقل هذه العلوم الى العربية، ترجمه أو تاليفا ، ويقال انه حبسهم فى القلعة ولم يفرج عنهم الا بعد أن فرغوا من عملهم ·

لعله كان يصدر عن عقلية التاجر الذى لايهمه الا النفع المادى · هو فى حاجة الى جهاز حديث قادر على أن يستغل له كل موارد البلد ، ويغنيه عن استقدام الخبراء الأجانب ·· الجهاز البلدى سيكون أرخص عليه من الجهاز الأوربى المستورد ، وطرد عالم أو نقله من منصب جليل الى منصب أحط شأنا ــ كما حدث لعلى مبارك فيما بعد ــ لن تستتبعه أزمة سياسيه أو احتجاج من قنصل عام باسم الامتيازات الاجنبية .

أقام هؤلاء الطلبة من أنفسهم « مجمعا لغويا » · لم تصدر منهم شكوى ، ولم يعل لهم صراخ ونواح بأن الفصحى جامدة متأخرة لاتسعفهم ، وانها عاجزة عن تمثل هذه العلوم الحديثة · لم يقترحوا أن تكون الترجمة بالعامية ، تيسيرا عليهم وعلى الناس، بل استمسكوا بالفصحى·· وما أدراك بحالها حينئذ ! ان قراءة نموذج من الخطابات الرسمية فى ذلك العهد هى اليوم مبعث تندر وقهقهة ــ ولم يطل

لهم جدل ونقاش حول المصطلحات : اقتباس ام تعريب، بل حملوا العبء فى صمت ، شأن الرواد الأبطال ، وادوا الامانة أحسن ما يكون الأداء .. مؤلفاتهم العديدة الصادرة عن مطبعة بولاق فى مصر المحمية موجودة بين أيدينا ٠٠ ياله من عمل فذ خارق ! ولكنه مضى فى زمانه ، بل الى يومنا هذا ، كأنه حجر صغير ألقى فى بركة واسعة راكدة فابت أن تتموج ، لأنه كان عمل أفراد فى أمة لاتشملها النهضة بعد ٠٠ مؤلفات كأنما وضعت منذ مولدها فى متحف لاتخرج منه للتداول بين الناس ، وبقيت كنوزها لا تستغل ٠

وكان من أكبر المصائب أن هذه المؤلفات نحيت جانبا حين دبت النهضة فى أوصال الامة ، وأرادت التحرر واللحاق بركب الحضارة ٠ وتشققت سبل العمل ، ولكن الجهود المبذولة فيها كانت تدور وتلف ثم تعود للدوران حول محور أساسى هو محور اللغة ٠ فمن البديهيات المسلم بها أن اللغه هى وعاء الفكر ، ولا نهضة للفكر الا اذا سبقتها ، أو على الاقل صحبتها ، نهضة للغة ، والا تبدد كل تقدم وبقى شتاتا لا ينبع من مصدر مترابط واحد ، هو ضمير الأمة ، وظل العلم عارية لا ملك اليد ٠

وبدا كما لو أن رجال هذه النهضة تسلموا اللغة من يد العصر المملوكى ، قفزا من فوق رؤوس الأبطال الرواد الذين تحدثت عنهم ٠

وأثارت اللغة فى ذلك العهد تيارين متعاكسين : تيارا يهاجم الفصحى ويدعو الى العامية ، فاذا ترفق طالب بجر الفصحى الى مستوى العامة ، فيبسط النحو ، وتسكن أواخر الكلمات ، مع اقتباس المصطلحات العلمية الخ الخ (لطفى السيد وقاسم أمين ، والدعوة الى الخط اللاتينى هى امتداد هذه النزعة ـ عبد العزيز فهمى) ٠ وتيارا يدعو الى الحفاظ على الفصحى مع الاعتراف بضرورة تجديدها وتطويعها لمطالب العصر الحديث دون الاخلال بسليقتها وقواعدها وعبقريتها ٠٠ وتعددت الجهود : هذا هو المويلحى يتصدر حركة بعث للتراث ، وهذا هو حسن المرصفى يكتب « الوسيلة الأدبية » منهجا حديثا لدراسه البلاغة ، وهذا هو حفنى ناصف مع زملائه يجددون وسائل تعليم اللغة لطلبة المدارس ، وهذا هو محمد فريد وعلى يوسف ولطفى السيد (رغم موقفه من الفصحى) يكتبون بأسلوب علمى ، مجدد الألفاظ ، مجرد من البهرج والزخرف ٠ ووراء هذه الجهود تكمن فكرة الحفاظ على اتصال التاريخ ووحدة الأمة العربية ـ ليس لها فى مقاومة الاستعمار سلاح غيرها ٠

ولكن كيف يقوم بناء على ارض ملغمة ؟ كان الاحتلال البريطانى يسعى لأن يجعل من مصر بلدا زراعيا متخلفا ، تكسوه قشرة خادعة من مظاهر المدنية الغربية. وكان هم المدارس هو تخريج موظفين لا قدرة لهم على الاتصال بالعلم أو الثقافة ٠ فلم تثمر الجهود المبذولة فى ميدان اللغة كل الثمار المرجوة منها ٠ لم ينقل العلم الى العربية ، لانه كان عارية لاملك اليد ، وبقيت مشكلات اللغه معلقة فى الهواء ، تشغل بعض الافراد دون ان تمس ضمير الامة .

وفى ثورة سنة ١٩١٩ غلب الاهتمام بالادب على الاهتمام باللغة ، اذ كان المطلب حينئذ هو خلق أدب مصرى يعبر عن مصر التى اهتدت الى نفسها ٠ وظن أنصار هذا الأدب المصرى أنهم من خلال انتاجهم الادبى سينجحون فى تطويع اللغة لمطالب العصر ٠٠ نيتهم طيبة ومنهجهم سليم، ولكن الخبرة بأسرار اللغة كانت تعوزهم ٠ وينبغى الاعتراف بأن نزعتهم الى خلق أدب مصرى لم تدفعهم الى مناصرة العامية ضد الفصحى ، كأنما فى ضمير الأمه ناقوس يدق منذرا بالخطر كلما أوشكت الخطى أن تحيد عن الطريق القويم ٠

والآن بعد أن تحولت مصر ، فى ظل الاستقلال والاشتراكية وفى ظل الميثاق ، من بلد زراعى اقطاعى متخلف مقسم الطبقات ، الى مجتمع صناعى متقدم تتوحد فيه القوى العاملة بغير فروق بين الطبقات،

ويوشك أن يكون العلم فيه ملك اليد بعد أن كان عارية ، كان لا مفر من أن نفتح من جديد ملف اللغة، اذ لانهضة للفكر الا اذا صحبتها نهضة للغة٠٠ حقالقد نشطت حركة الترجمة وتأصلت فى بلادنا علوم وفنون كانت من قبل مستوردة ، ويحاول الأدب أن ينفذ الى المجال الدولى ٠ ولكننا نمر فى أعقاب فترة تخلف فيها لأمر ما تدريس الفصحى فى معاهد العلم ، وساد شعور بأن المستوى اللغوى قد هبط ، فى الوقت الذى أتاحت فيه وسائل الاعلام الحديثة (التليفزيون والراديو والسينما والمسرح) للعامية مجالا وسطوة لم تحلم بهما من قبل ٠ وزاد من غلوائها أن اعتنقها أدباء يتمتعون بموهبة فنيه أصيلة ، هم ـ لا السنة الشعب ـ مصدر الخطر الأكبر على الفصحى ٠

ان هذا الجو بخيره وشره يحتم أن نجعل من مشكلات اللغة قضية ملتهبة، لاقضية مستكنه مزمنة قابلة للتأجيل من دور الى دور ٠

ولعل مصر لم تعرف نهضة فكرية كالتى تعرفها اليوم ٠٠ كان لها من قبل دساتير لاتتكفل الا بوصف الفطاء الخارجى الرسمى للدولة ، أما الامة : ما هى، من هى ، ممن تتألف ، ما تاريخها ، ما أحلامها ، مامستقبلها ؟ فأمور لاتجدلها فى هذه الدساتير ذكرا٠ الميثاق هو الذى تكفل ، لأول مرة ، بوضع الدعامة الروحية والفكرية والفلسفية لامتنا ٠٠ فهذه النهضة الفكرية تحتم أن تصحبها نهضة لغويه مماثلة ، من أجل أن نجنى الثمار أولا ، ثم نسير حثيثا بعد ذلك فى طريق التقدم نحو الأهداف العليا ٠

وينبغى ان نمهد لهذه النهضة اللغوية بوضع خطة علمية تقوم أولا بمسح تاريخى شامل لجميع الجهود المبذونه من قبل لتطويع اللغة الفصحى لمطالب العصر الحديث ، فنستخرج المصطلحات التى اهتدت اليها بعثات محمد على ونرتبها، ونعرف ماذا فعلت اسرائيل مثلا لتطويع العبرية ، وماذا فعل الأتراك حين أقاموا تدريسهم العلوم الحديثة بالتركية على مصطلحات مقتبسة من العربية ، وأن نضع لاحياء التراث منهجا يكون الهدف الواضح منه هو خدمة اللغة قبل كل شىء آخر ، فالمادة العلمية فى هذا التراث لعلها لم تعد ذات نفع لنا ٠

وما أكثر المطالب التى ستواجهنا ٠٠ مطالب تتعلق بالنحو والصرف ، الاملاء ، الخط ، الطباعه ، بمنح التدريس لأبناء الأمة والأجانب ، مطلب المصطلحات وتوحيدها فى الأمة العربية كلها ، مطلب ترجمة العلوم والفنون الحديثة ووضع دوائر المعارف والمعاجم ، مطلب جمع التراث واحيائه ، مطلب تجديد شباب هذه اللغة بتطعيم دراستها بعلوم أوربية حديثة شققت ميادين جديدة فى دراسات اللغة والاصوات .

ان النهضة الفكرية التى هى عماد هذا التحول العظيم فى مجتمعنا اليوم، تحتم ان نثير هذه المشكلات قضيه ملتهبة لاتحتمل التأجيل ، وأن نهجم عليها بشجاعة وتفاؤل : فقد لانت الفصحى كثيرا لمطالب العصر ، وضاقت الهوة بينها وبين العامية نتيجة ارتفاع المستوى الحضارى للشعب، واستقرت بتمامها مصطلحات علوم كثيرة ـ كعلم النفس مثلا ـ وأن ظلت مصطلحات بعض الفنون لم تستقر بعد ٠

من أجل اثارة الاهتمام بهذه المطالب كلها ،خصصت « المجلة » هذا العدد لبحث قضية اللغة العربيه ، فى ظل الثورة الاشتراكية ٠

الثورة والميثاق والمجتمع

بقلم
حسين ذو الفقار صبري

في ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ تحركت وحدات من الجيش المصرى ، فتم لها عند الفجر الاستيلاء على مقاليد الأمور فيه » •

حدث صار نبأ حين طير به ، فأبرز على صفحات الجرائد فى جميع أنحاء العالم ، مثله مثل عشرات سابقة عليه ، وعشرات سوف تترى من بلاد أخر ، ثم يؤرخ به وبها من بعد استبدال نظام بنظام ، أو ارتقاء طبقة الى ناصية السلطة على أنقاض أخرى ، أو قيام دكتاتورية عسكرية جديدة مآلها الى انهيار حين تهن قبضتها ، أو أن تتقوض اذا ما قسمتها الأطماع الى أطراف متنافرة متناحرة •

ولكن أحداث مصر تتابعت من بعد مستهدفة وجهات لم تكن تخطر على بال المراقبين الذين نصبوا أنفسهم خبراء محللين ، قادرين وحدهم على استقراء بواطن الأمور ، ولست أعنى بها تلك الأحداث التى كن لها رنين وطنين كتنازل فاروق عن العرش ، أو معركة تصفية الأحزاب او حتى اعلان الجمهورية ، فانها على أهميتها البالغة لم تكن الا مقدمات لأهداف بعيدة لا تكاد تبين أو اطارات لتغيرات عميقة لم تحظ بوادرها بما كانت تستحق من اهتمام •

وربما كان أبرز تلك التغيرات ، وقد اجتذب فعلا بعض التفات وان لم يعن به خبراء الشئون الدولية كثيرا حينذاك ، قانون الاصلاح الزراعى ، الذى صار له من بعد حين تكشفت الاتجاهات الحقيقية للثورة المصرية ، صدى وأى صدى ، حيثما الشعوب تئن تحت وطأة اقطاع •

أقول الثورة المصرية ، فانها لم تكن حركة او انقلابا ، كما تصور العالم حين طالعته الصحف بنبئها صباح ذلك اليوم من شهر يوليو ، ولو أن النظرة كانت فاحصة لما كان ذاك التصور الخاطىء ، ولاتضح أن الوحدات التى تحركت فى تلك الليلة الخالدة فاستولت على مقاليد الأمور فيه ، اختارت للجيش « المكان الذى لا مكان له غيره وهو جانب النضال الشعبى » (١) فهى اذن ثورة بكل معانى الكلمة •

ولكن الظروف لم تكن ميسرة أمام العالم الخارجي فتتهيأ له فرص النظرة الفاحصة ، ولم العناء ؟ اذ لم يدر بخلد أى من دهاة السياسة حينذاك أن

---

(١) الميثاق ، الباب الرابع

أحداث مصر سوف تتطور الى فاعلية تزلزل صورة العالم كما حلا لهم أن يحددوا له معالمه فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ٠

ثم أن أحداث مصر وان صاحبتها ظواهر أكيدة من شعبية وتقدمية ، وهما السمتان المميزتان للعمل الثورى الصادق(٢) ، الا أنها لم تكن تملك من دليل لعمل ، أى عمل ، سوى مبادىء ستة ، ترفعها فعلا وتصر عليها ، بينما هى تفتقر الى التنظيم السياسى القادر على مواجهة مشاكل المعركة ، بل والى النظرة الكاملة اللازمة لكل تغيير ثورى(٣) ٠

تلك مقاييس تقليدية تداعت امام عاملين أساسيين كان لهما الفضل كل الفضل فى الانطلاق بأحداث مصر عبر التكهنـات أو التصـورات التى استخفت باحتمالاتها اذ عجزت عن الغوص الى أعماق دلالاتها ، أولهما أن طلائع الجيش التى خرجت من ثكناتها ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ أعلنت ولاءها للنضـال الشعبى وأصرت على الا تكون الا أداته فى تحقيق الثـورة الشاملة التى يتطلع اليها(٤) ٠

وثانيهما أن الشعب المصرى ، اذ تفجرت لديه فى تلك الليلة المجيدة طاقات التغيير الثورى تمثل له ، بصدق من رؤية ، طريقا ليس من غيره طريق فالتزم جادته ، بعناد من ارادة ، استمرارا « لنضال الانسان الحر عبر التاريخ من أجل حياة أفضل ، طليقة من قيود الاستغلال والتخلف فى جميع صورها المادية والمعنوية » (٥) ٠

ومن خلال التفاعل الخلاق بين هذين العاملين الأساسيين ، بين الارادة الشعبية للتغيير الثـورى وبين الطلائع الثورية التى لم تضع نفسها أداة لهذا التغيير فحسب ، وانما أحالت نفسها مستودعا لآمال الشعب ، ومنطلقا الى آفاق من تطلعـات متجددة أبدا كلما اتسعت أمامها دوائر الانجازات ، راحت المبادىء الستة تتحرك على خريطة الواقع بالتجربة والممارسة نحو وضوح فكرى يرسم ملامح المجتمع الجديد ويفتـح طريق الثـورة الى أهدافهـا اللامتناهية(٦) ، فكان الميثاق ٠

ولكن الطريق الى الميثاق لم يكن سهلا ميسرا ، قامت دونه عقبات جمة وصعاب مستعصـلة ، لم تتمكن ارادة التغيير الثورى من أن تتخطاها ، وقد اتخذت من طليعتها الثورية أداة سلاحهـا بتلـك المبادىء الستة التى نحتتها من مطالب النضـال الشعبى واحتياجاته(٧) الا بفضل وعيهـا العميق

(٢) الميثاق ، الباب الخامس
(٣) الميثاق ، الباب الاول
(٤) الميثاق ، الباب الرابع
(٥) الميثاق ، الباب الاول
(٦) الميثاق ، البابان الاول والرابع
(٧) الميثاق ، الباب الاول

بالتاريخ واثره على الانسان المعاصر ثم ايمانها بقدرة هذا الانسان بدوره على التأثير فى التاريخ ، وعى يعزز فكر مفتوح لكل التجـارب الانسانية يأخذ منها ويعطيها ، لا يصدها عنه بالتعصب ولا يصد نفسه عنها بالعقد ٠ وعى تم فكر يدفع بهما ايمان لا يتزعزع بالله وبرسله ورسالاته القدسـية التى بعثها بالحق والهدى الى الانسـانية فى كل زمان ومكان(٨) ٠

شقت الارادة الشعبية اذن طريقها الى الثـورة الشاملة ، متعددة الاتجاهات ، تشابكت معاركهـا وتداخلت مراحلهـا ، استهدفت حرية الوطن فى مواجهة الاستعمار الجاثم فوق أرضـه الطاهرة ، واستهدفت تعبئة الامكانيـات المادية والبشرية فى معركة الانتاج فى مواجهة التخلف ، ليس عن طريق تحقيق الممكن ، ولكن وصولا الى الأمل(٩) ، جميع ما تقدم فى اطار من قيم انسانية خالدة ، جسدها الميثاق كما لم يستطع أبرع من تصـدوا ، من قانونيين ، للدفاع عن حقوق الانسـان والحفاظ عليها ، بما سطروه وما يسطرون فى صلب الدساتير الوطنية أو الوثائق « الأممية » ٠

واذ كان الميثاق يحكى لنا مسيرة الثورة المصرية منذ أن تفجرت فى يوليو عام ١٩٥٢ ، الا أنه فى المقام الأول يسلط أنواره الكاشـفة على الأهداف الكبرى التى ما زلنا نتطلع اليها ، واننا اذ نرجع اليه ، فى عيده الرابع هذا ، انما نفعل لنشحذ من قوانا الذاتية تعبئة لانطلاقة كبرى جديدة ٠

فقد سقط الاستعمار فوق ارضنا ولكنه ما زال متربصا من حولنا قابعا فى قصور الرجعية يتحين فرص الانقضاض علينا من جديد ، وسقط تحالف الاقطاع والرأسمالية المستغلة ، ولكن ما تزال له جيوب مستترة ، بل جحور يأوى اليها ، فاذا اطمأن الخلق من حوله ، سعى مرة أخرى ولدغ ٠

وقام التحالف الجديد بين قوى الشعب العاملة بديلا شرعيا لذلك التحالف الذى سقط(١٠) ، فقضى على الامتيازات الطبقية ، ولكنه اذ أزال أسـباب التصادم بين فئات الشعب المختلفة الا أنه لم ينجح بعد فى القضاء على ما بينها من متناقضات عن طريق تذويب الفوارق بينها ، وانما فتح المجال لامكانية حلها سلميا ، أى بوسائل العمل الديموقراطى(١١) ، فنحن من هذا الأمر لم نزل فى بداية الطريق ٠

واقبلنا على معركة الانتاج ، مستهدفين القضاء على التخلف الاقتصادى والاجتماعى ، وصولا ثوريا

(٨) مثله
(٩) الميثاق ، الباب السادس
(١٠) الميثاق ، الباب الخامس
(١١) مثله

الى مجتمع الكفاية والعدل ، فواجهتنا معادلة صعبة، من شعب ثلاث أولها ضرورة التوسع فى اقامة هياكل الانتاج الرئيسية التى هى أساس الانطلاق من التخلف الذى كان ، الى التقدم الذى يتطلع اليه النضال الوطنى(١٢) ، ولكن دون اغفال المطالب الاستهلاكية لجماهير شعبنا والتى هى حقها الثابت، تعويضا لها بعد طول حرمان ، والا أدى ذلك الى تعطيل امكانيات الوفاء بتطلعاتها المتسعة(١٣) ، ثم شعبة ثالثة لا تقل عن سابقتيها أهمية ، وهى العمل على استمرار تزايد المدخرات من أجل الاستثمارات الجديدة(١٤) .

ونجاحنا فى معركة الانتاج ، « والتى هى التحدى الحقيقى الذى يواجهنا مقياسا لقوانا الذاتية ، هو الذى سوف يحدد لنا مكانتنا تحت الشمس » (١٥) ، وهذا النجاح لا يتوقف على مجرد اجراء التغيير الثورى فى أوضاع المجتمع القديم ، وانما على مدى قدرتنا فى الانتقال ثوريا بفلسفة العمل الوطنى من العموميات الشائعة المبهمة الى وضوح ذهنى وعملى يربط الانسان الفرد فى نضاله اليومى بحركة المجتمع كله فيشده فى اتجاه التاريخ(١٦) ، ولن يتأتى لنا ذلك الا اذا تصدينا للمعادلة الصعبة بشعبها الحيوية الثلاث فنوجد تنظيما ذا كفاية عالية ، قادرا على تعبئة القوى المنتجة ورفع كفايتها ماديا وفكريا فيربط بينها وبين عملية الانتاج(١٧) .

منذ سنوات أربع ، قدم لنا قائدنا ميثاقنا الوطنى ، بل أقول ميثاق عملنا الوطنى كما يجب أن يكون عليه مفهوم العمل الوطنى ، ودار من حوله النقاش، وخاصة أمام مؤتمر القوى الشعبية، وأقبلنا عليه ، جماعات وأفرادا ، نقرأه ونعيد قراءته ، ولكنى أعتقد أننا لم نع منه الا ما تراءى لنا فى ضوء من واقعنا كما كان عليه واقعنا حينذاك ، فقد أراد الميثاق أن يضع أمامنا صورة حية لماضينا وحاضرنا ومستقبلنا، صورة كانت بالضرورة مركزة أشد التركيز ، ولكنها غنية بايحاءات تغوص الى الأعماق اذ تحلق الى الآفاق ، وتضرب الى الماضى السحيق بينما تستشف الرؤية الى المستقبل البعيد، بل أقول بعيدا عن تحليقات الخيال وعودا الى الواقع الملموس . ان الميثاق ، الذى هو دليل العمل على أرض الوطن ، أشبه ما يكون بأرض مصر ، لا يبوح لنا بكل أسراره ولا يفيض بما فى باطنه من ثروات فكرية الا بما يتناسب مع ما نبذله من جهد(١٨) .

فاذا تعثرنا أمام مشاكل اجتماعية أو سياسية او اقتصادية ، واذا جابهنا أخطارا ، داخلية كانت أم خارجية ، بل واذا عرضت لنا تساؤلات فرعية طارئة فى أى ناحية من نواحى حياتنا على تعددها ، فاننا سوف ندهش ، أن نجد فى الميثاق ، اذ نعود اليه ، الردود على تساؤلاتنا ، واشارات الى الاتجاهات الكفيلة بحل مشاكلنا أو تلك التى تمكننا من التصدى لما يهدد أمننا وسلامتنا ، ثم نعجب كيف أننا لم ننتبه اليها من قبل فلا نتردى فى حيرة أو نتخبط بحثا عن حلول مشاكلنا .

فاذا نظرنا الى جرائم الاقطاع الاخيرة ، وجدنا أننا غفلنا عما جاء فى الميثاق ، حين حذرنا من أخطار الصراع الطبقى وأن الرجعية تريده ضاريا دمويا(١٩) ، فهى لا تزال تملك وسائل المقاومة ، فاذا انتزعت منها سلطة الدولة لجأت الى سلطة المال(٢٠) ، وكلنا نعرف ، وخاصة أهل الريف ، أنه لا تزال هناك رواسب من نفوذ تستند فى كثير من الأحيان ، مع الأسف الشديد ، الى رواسب من عقليات ادارية محلية ، اى أن الرجعية لا تزال تملك من المؤثرات المادية والفكرية ما قد يغريها بالتصدى للتيار الثورى الجارف(٢١) .

والميثاق هنا لا يريدنا أن نرضى بالأمر الواقع ، وانما يشير بوضوح الى خطة العمل الكفيله بعلاج تلك الأوضاع ، علاجا جذريا شاملا ، فيوجه تحالف قوى الشعب العاملة الى اقامة الاتحاد الاشتراكى العربى ، سلطة ممثلة للشعب وحارسة لقيمه الديموقراطية السليمة(٢٢) .

ولكنها كغيرها من تطلعاتنا الكبرى ، تطلعنا هذا الى ارساء قواعد الديموقراطية السليمة وخاصة فى أرجاء الريف الذى عانى ما عانى من تخلف واستغلال واستعباد ، ليس بالأمر الهين ، فان مجرد التغيير الثورى فى أوضاع المجتمع القديم لا يحقق أحلام الجماهير انما هى الجهود المتواصلة فى هذا السبيل(٢٣) ، ولن يتحقق لنا ما نريده للاتحاد الاشتراكى العربى من فاعلية فى الريف ، الا اذا أسرعنا من جهة فى خلق ، داخل اطار الاتحاد الاشتراكى ، الجهاز السياسى القادر على تجنيد العناصر الصالحة للقيادة(٢٤) هناك ، ومضينا من جهة أخرى فى تطوير عملية الانتاج فى الريف ، فهى التى سوف تساعدنا على ايجاد القوى البشرية

(١٢) الميثاق ، الباب السابع
(١٣) مثله
(١٤) الميثاق ، الباب السادس
(١٥) الميثاق ، الباب السابع
(١٦) الميثاق ، الباب الثامن
(١٧) الميثاق ، الباب السادس
(١٨) الميثاق ، الباب السابع

(١٩) الميثاق ، الباب الخامس
(٢٠) مثله
(٢١) الميثاق ، الباب السادس
(٢٢) الميثاق ، الباب الخامس
(٢٣) الميثاق ، الباب الثامن
(٢٤) الميثاق ، الباب الخامس

المنظمة التى تستطيع بدورها تغيير شكل الحياة فيه تغييرا ثوريا وحاسما(٢٥) .

وليس معنى هذا أن نقف مكتوفى الأيدى أمام جرائم الاقطاع هناك ، وانما علينا اذ نقدم لشعبنا الحماية اللازمة ، فنضرب على أيدى من تسول له نفسه الاعتداء على آماله وحرماته ، أن نعى أن الحلول الجذرية الشاملة هى تلك التى يقدمها لنا الميثاق ، فان أصواتا فى الريف ترتفع وتقول ، والاحتمال كبير أن ما تقول هو الصواب ، ان كل جريمة اقطاعية تم الكشف عنها تقابلها عشرات أخفيت معالمها ، لا يتأتى لأجهزتنا الادارية فى أوضاعها الحالية الكشف عنها جميعا أو تحول كلية دون وقوع غيرها ، بل ان تلك التى كشف عنها كان بفعل أجهزة الاتحاد الاشتراكى العربى رغما من أنها لم تصل بعد الى مستويات الفاعلية التى نرجوها لها على نطاق الجمهورية .

ومسألة أخرى استحوذت ، ولا تزال تستحوذ ، على اهتماماتنا ، وهى تحركات الاستعمار فى المنطقة العربية الاسلامية ، اذ تعمل لقيام حلف اسلامى مزعوم ، اطارا للسيطرة الاستعمارية وفرض مناطق النفوذ ، استمرارا لمحاولات سابقة طواها الزمن فتهاوت ، تدفن بالموت ، بل « وبالحيا » أحيانا ، من أريد لهم أن يكونوا واجهاتها ، وبنفخ الاستعمار بدعوته الجديدة من خلال حناجر الرجعية ، التى لا أغبنها حقها ، بل أشهد لها بالبراعة فى « الترجمة الفورية » وان كان لسانها قد لوته لكنة « سكسونية » .

فاذا رجعنا الى الميثاق ، لم نجد فى موقف الرجعية العربية غرابة ، أو خروجا عن طبيعتها وهى تطأطىء من نفسها للاستعمار لتكون له مطية ، وتسخر حناجرها وألسنتها أبواقا له ، أو أن تقوم عنه بمد يدها الى « جراب الحاوى » فتطلع لنا بسعيد رمضان مرة أو بسيد قطب مرة أخرى ، وذلك لأن الثورة المصرية حركت احتمالات الثورة على الأرض العربية كلها(٢٦) ، فأصبحت النظم القديمة فيها تعانى جنون اليأس ، وهى تسمع من بعيد فى قصورها المنعزلة وقع أقدام الجماهير الزاحفة الى أهدافها(٢٧) .

ولكنا لسنا عن تحركات الرجعية غافلين ، أو عن مؤامرات الاستعمار لاهين ، فقد أقمنا من جيشنا الوطنى درعا حقيقيا لنضالنا الشعبى .

ان مجتمعنا يؤمن بأن السلام القائم على العدل هو الجو الصالح لتوفير حرية الوطن وحرية المواطن ،

(٢٥) الميثاق ، الباب السابع
(٢٦) الميثاق ، الباب الاول
(٢٧) الميثاق ، الباب التاسع

ولكنه على استعداد – من أجل الحفاظ على هاتين الحريتين – أن يدعم السلام بالقوة (٢٨) .

ثم أن مجتمعنا يؤمن أيضا بأن فاعلية جيشنا الوطنى تكمن فى قوتنا الاقتصادية والاجتماعية فهى القلب الذى يغذى اليد الضاربة بأسباب القوة والثبات ، ويمكننا من توجيه الضربات القاضية للعدو مهما طالت المعركة(٢٩) ، ويؤمن مجتمعنا أيضا أنه قد مضى الى غير رجعة ذلك الزمن الذى كان فيه مصير الأمة العربية يتقرر فى العواصم الأجنبية ، وعلى موائد المؤتمرات الدولية ، مصير الأمة العربية سوف يقرره الانسان العربى على الحقول الخصبة وفى المصانع الضخمة ومن فوق السدود العالية وبالطاقات الهائلة المتفجرة بالقوى المحركة(٣٠) .

معركة الانتاج لها اذن دورها الحاسم فى التصدى لمؤامرات الاستعمار المتسترة من خلف أقنعة الرجعية .

وهذا الكلام يسوقنا الى الالتفات لما عرضت له الحكومة منذ شهور فى مؤتمرات تناولت بعضا من مشاكل الانتاج التى نواجهها حاليا ، وهنا نجد اتجاهات الحلول كامنة فى سطور الميثاق ، بل وربما لما عرضت لنا تلك المشاكل لو أن التزم كل مواطن بأن يعود الى الميثاق حينا بعد حين ، لا يكتفى بترديد كلماته استعادة لما سبق أن وعاه ، وانما أن يقبل عليه محاولا استخلاص معان جديدة أفلت منه مغزاها اذ لم يكن بعد مهيأ لها ، وسط الظروف التى كانت تحيط به حين أقبل عليه أول ما أقبل .

فلقد اخترنا طريقنا الى التقدم فى ظل من قيم انسانية نابعة من صميم شخصيتنا ، ورفضنا أن نحقق أهدافنا على حساب زيادة شقاء الشعب العامل واستغلاله ، كما رفضنا أيضا أن نلجأ الى التضحية الكاملة بأجيال حية فى سبيل أجيال لم تطرق بعد أبواب الحياة(٣١) .

ولذا فقد واجهتنا منذ اللحظة الأولى تلك المعادلة الصعبة التى سبق الاشارة اليها ، والتى كان علينا أن نتصدى لها بتنظيم ذى كفاية عالية يعتمد على مركزية فى التخطيط ولامركزية فى التنفيذ(٣٢) ، لامركزية تعتمد فى مواقع العمل على قيادات من خبراء وفنيين نيطت بهم عملية تحريك التطور الوطنى(٣٣) ، ثم تنظيمات عمالية لم تعد كما كانت فى الماضى ، طرفا مقابلا لطرف الادارة فى عملية

(٢٨) الميثاق ، الباب السابع
(٢٩) مثله
(٣٠) مثله
(٣١) الميثاق ، الباب السادس
(٣٢) مثله
(٣٣) الميثاق ، الباب الثامن

الانتاج ، وانما قاعدة طليعية فى عملية التطوير(٣٤) ٠

واذا كان الميثاق قد حثنا على أن نحرص على تلك الثروة الوطنية من خبراء وفنيين ، فنسعى الى تنميتها وحمايتها ، الا أنه أوضح بجلاء أنها فى بعض الأحيان فى حاجة الى حمايتها من نفسها(٣٥) ، اذ أنها ربما توهمت أن مشاكل التطوير الوطنى يمكن حلها استنادا الى سلطتها الادارية أو المكتبية، فتصبح طبقة عازلة تحول دون تدفق العمل الثورى(٣٦) ، او أن تتردى فى مهاوى التنازع على السلطة مع مثيلاتها فى مواقع العمل المترابطة معها ، فتصبح كل منها عقبة امام جهود الأخرى ، ثم يصيبها الشلل جميعا(٣٧) ، واخطر من هذا كله أن تنحرف ، متصورة أنها تمثل طبقة جديدة حلت محل الطبقة القديمة ، فيتركز اهتمامها فى أن ترث امتيازاتها(٣٨) ، أو أن تتوهم وقد عينت بقرارات جمهورية أنها الممثل الحقيقى للدولة ، وان الدولة فى المجتمع الاشتراكى هى فوق الشعب ، او أنها شىء آخر غير الشعب ٠

وفى الناحية الأخرى ، وبعد حرمان طال مداه ، وبعد طفرة صناعية جبارة ، جاءت قوانين يوليو عام ١٩٦١ ، فكفلت للطبقة العاملة حقوقا ثورية ، من حد أدنى للأجور ، واشتراك ايجابى فى الادارة يصاحبه اشتراك حقيقى فى الأرباح ، فأصبح العامل هو سيد الآلة ، بعد أن كان ترسا من تروس الانتاج(٣٩) ، ولم يعد العمل ، كما كان ، سلعة من السلع يشتريها رأس المال المستغل(٤٠) بأبخس الأثمان فى سوق المساومة على لقمة العيش ٠

فاذا نظرنا الى الميثاق ، وجدناه يقول أن ذلك التغيير الثورى فى حقوق العمال لا بد وأن يقابله تغيير ثورى فى واجباتهم(٤١) ، وأنه بعد أن تحققت ملكية الآلات للعمل ، أصبحت مسئولية العمل فى أن يتولى الحفاظ على أدوات الانتاج وتشغيلها بكفاية وأمان ، بل أن مكانة العمال فى المجتمع الجديد لم يعد لها من مقياس غير طاقتهم على العمل وكفايتهم فى الوصول الى الهدف الأسمى الذى هو انجاح عملية التطوير الصناعى(٤٣) ٠

(٣٤) الميثاق ، الباب السابع
(٣٥) الميثاق ، الباب الثامن
(٣٦) مثله
(٣٧) مثله
(٣٨) مثله
(٣٩) الميثاق ، الباب السابع
(٤٠) الميثاق ، الباب الخامس
(٤١) الميثاق ، الباب السابع
(٤٢) مثله
(٤٣) مثله

وصحيح ان قوى الشعب العاملة ، فى مواقع الانتاج ، من فنيين واداريين وعمال ، وعت دورها الاجتماعى ، وان من انزلق منها انما أعداد ضئيلة فى مجموعها ، الا أن مرحلة الانطلاق التى نجتازها لا تحتمل تقصير اى فرد من أبناء هذه الأمة ، وانها فى حاجة لكل جهد ٠ وفى هذا يقول الميثاق ان وعى كل مواطن بمسئوليته المحددة فى الخطة الشاملة هو توزيع للمسئولية على نطاق الأمة كلها فتتعزز احتمالات الوصول الى الاهداف ، كما انها عملية انتقال ثورية بمعنى العمل الوطنى(٤٤) ٠

تلك امثلة متفرقة عنت لى ، منها ما يتعلق بأسلوب العمل الوطنى ، ومنها ما نجم عن تربص رجعى داخلى بمثلنا الاشتراكية ، أو ائتمار الرجعية العربية من حولنا بالاستعمار بغية الانقضاض على سياستنا التحررية ، أردت بها أن أبين أهمية رجوعنا الى الميثاق ، ذلك التجسيد الحى لماضينا وحاضرنا ومستقبلنا ، مستودعا لآمالنا وأحلامنا ، وذخيرة لأساليب عملنا الوطنى ، نرجع اليه فلا نعى منه الا ذاك القدر الذى يتناسب مع اهتماماتنا ، فاذا عرضت لنا مشاكل جديدة وتملكتنا حيرة ، فاننا ندهش اذ نعود اليه فنجد ان لم يفته التعرض لتلك المشاكل على جدتها ، ولم لا ؟ فجميع المشاكل التى تعرض لنا انما ناجمة عن احتكاك مجهوداتنا بواقعنا ، وهذا وتلك انما امتداد لشخصيتنا ، وليس الميثاق الا تجسيدا بارعا لصميم تلك الشخصية ٠

●

ثم مثل آخر ، فقد علمت ، اذ طلب منى بمناسبة العيد الرابع للميثاق كتابة هذا المقال ، أن سوف ينشر فى هذا العدد من « المجله » المخصص لشئون اللغة العربية ٠

وحضرنى فورا ما يقوله الميثاق من أن الأمة العربية تملك وحدة اللغة التى تصنع وحدة الفكر والعقل(٤٥) ، ثم اشارته الى دور الشعب المصرى فى حفظ التراث الحضارى العربى وذخائره الحافلة(٤٦) ، ثم كيف انبثقت من التربة الثورية المصرية بشائر نبت ثقافى جديد راح ينشر الوانا من أزهار على ضفاف النيل الخالد ، وومضات لامعه شدت اليها العناصر المتطلعة الى التقدم ، فأصبحت مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر منبرا للفكر العربى كله ومسرحا لفنونه وملتقى للثوار العرب من وراء الحدود المصطنعة والموهومة(٤٧) ٠

(٤٤) الميثاق ، الباب الثامن
(٤٥) الميثاق ، الباب التاسع
(٤٦) الميثاق ، الباب الثالث
(٤٧) مثله

هذا ما حضرنى ، وقد علق بذهنى منذ قراءتى الأولى للميثـــاق • ولكن أهو كل ما قيل فى هذا الشأن ؟ وإذا بى أكتشف ، إذ أعيد قراءة الميثاق فى ضوء من تساؤلى هذا ، أنه يقول لنا عن اللغة أضعاف أضعاف ما كنت أعتقـــد ، وإذا به ينبض بإيحاءات واضحة فى هذا الشأن ، ولا غرو فان الميثاق يقدم لنا فلسفة حياة الانسان العربى فى ثوريته المعاصرة ، فلسفة لا تقوم الانسان بما ورث من مال أو جاه أو سلطان ، ولكن بما يقوم به من عمل انسانى يستهدف به الصالح الاجتماعى ، فهو الانسان المتكامل مع المجتمع، وليست اللغة كما ينطق بها لسان الفرد الا صدى لحقيقة كبرى هى التى تخلق تماسك الجماعة وتكون وعيها الجماعى ، كما أنها ، أى اللغة ، تضرب بجذورها الى حيث منبثق الفكر ، توأمان متلازمان ، هما القوة المحركة لكل عمل يصدر عن وعى وإدراك •

وفى مجتمعنا ، حيث تتضـــافر قـوى الشعب العاملة للتغلب على التحديات التى تواجهها ، ليس عن طريق حساب الممكن ، بل وصولا الى الأمـــل ، فتعبأ جميع الموارد الوطنيـــة ، المـــادية والطبيعية والبشرية ، فى اطـــار من تخطيط اشتراكى علمى مدروس ، أصبح من اللازم أن يكون لعملنا الوطنى فلسفة واضحة، وأصبح ألزم من اللازم أن تصل بتلك الفلسفة الى جميع العاملين فى كافة المجـــالات ، وبالطريقة الأكثر ملاءمة بالنسبة لكل منهم(٤٨) ، والذى أفهمه من « أكثر ملاءمة » وأرجو أن أكون على صواب فيما فهمت ، ان الميثـــاق يسعى ، فى فترة انطلاقنا هذه ، الى التغلب على التفاوت المروع بين مستوياتنا الثقافية ، والذى هو من أخطر مخلفات الاستعمار ، أراد به الامعان فى تفتيت الشعب الى طبقية ثقافية ، أعمق أثرا من الطبقيـــة الاجتماعية التى فرضها عليـــه ، اذ أنها تقف حائلا بين وحدة الفكر ، التى هى المنطلق الى وحدة العمل •

فقد رسم دنلوب سياسته التعليمية على أن يحول بين اللغة العربية وبين أن تصبح الأداة الثقـافية لأبناء الأمة المتطلعين الى أن ينهلوا من معين التطور العلمى ، فاذا أصابوا قسطا من علم ، وعوه فى قوالب لغوية أجنبية متضاربة ، منها ما هو مشدود بولائه الثقافى الى اكسفورد وكمبردج بتراكماتهما التقليدية، ومنها من لا يؤمن الا بالفكر «السوربونى» الواضح الرقراق ، ومنهـــا من اتجه كليـــه الى الأسلوب الألمانى الموغل فى التحليل ، أما لغة البلاد والتى كان علينا أن نجعـــل منهـــا ، بالضرورة وبالطبيعة ، مستودع معلوماتنا العلمية، فقد أزيحت الى عزلة قاتلة ، منعت بينها وبين كل تطور خلاق، فتردت الى اجترار مريض ، حتى صـــارت شخصية

(٤٨) الميثاق ، الباب الثامن

« الخوجة » العربى موضعا للتندر والسخرية اذ لم يبق امامه من مجال ولا حيلة له فى ذلك ، ســوى مجالات التشديق والتقعير والتقعيب التى ترتبط كما يقول الجاحظ ، بسماجة التكلف وشنعة التزيد •

فاذا كان الميثاق ، كما سبق واشرنا ، لم يرض بأن تكون طبقيتنا الثقـافية ، التى أورثنـــا اياها الاستعمار ، معوقا لانطلاقتنا ، فانه ، اذ ينظر الى المستقبل ، يحثنا على تنمية ثقافة نابضـــة بالقيـــم الجديدة ، عميقة فى احساسها بالانسان ، صادقة فى تعبيرها عنه ، قادرة بعد ذلك كلـــه على اضاءة جوانب فكره وحســـه وتحريك طاقات كامنـــــة فى أعماقه خلاقة ومبدعة ••• » (٤٩) •

فما هو طريقنا الى تلك الثقـــافة ، التى سوف تنتقل « بمعنى العمـــل الوطنى » من العموميـــات الشائعة المبهمة والغامضة ، الى وضوح ذهنى وعملى يربط الانسان الفرد فى نضـــاله اليومى بحركة المجتمع كلها ••• » ؟ (٥٠)

ماهو طريقنا الى تلك الثقافة الثوريه التى تتطلع الى كل زاد فكرى ، فتهضمه بأن تمزجه بالعصارات الناتجة من خلايانا الحية ؟ (٥١) •

ما هو طريقنا الى تلك الثورة الثقافية التى سوف تعتمد على العلم سلاحا حقيقيا للارادة الثورية ، فتقيم العمـــــل الوطنى على أسس من تخطيط علمـــى منظم ؟(٥٢) •

هل تقوم تلك الثقافة الثورية على طبقة من ابنائها، هم وحدهم القادرون بفضل الماهم بلغات أجنبية ، على الهضم الزاد الفكرى ، اجتماعيا كان أم اقتصاديا أم علميا ، لا ينقلون منه الا ذاك القدر الذى يقدرون عليه ، اذ لا يطاوعهم المامهم باللغـــة العربيه أن يكتشفوا فى مفردات تراثها ما يتسع للترجمة عن دقائق معلومات لم يعـــوها الا بفضل ثقـــافتهم الأجنبية ؟ •

لو حدث ذلك ، فانه الاحتـــكار بعينه ، ولكان تحديا لما جاء فى الميثاق عن حرية العلم التى فى مقدورها أن تفتح أمام شعبنا الثائر طاقات للأمل متجددة أبدا(٥٣) •

ويحضرنى هنا ما كان يقوله صاحب جريدة المؤيد السيد على يوسف ، منذ خمســـين عاما ، من أن التعليم بلغة الأمة ينقل العلوم بكليتها الى تلك الأمة،

(٤٩) الميثاق ، الباب الخامس
(٥٠) الميثاق ، الباب الثامن
(٥١) الميثاق ، الباب الخامس
(٥٢) الميثاق ، الباب الثامن
(٥٣) الميثاق ، الباب الخامس

فى حين أن تلقى العلوم عن طريق اللغات الأجنبية ، ينقل قلائل من أفراد الأمه الى تلك العلوم ، ويخرج من هذا بملاحظة لها اعتبارها وهى أن العلم طواف فى العالم ، ينزل ضيفا على الأمـم ولا يستوطن الا اللغات .

وانا لنرى فى الميثاق توجيهات عملية لما يجب أن نقوم به فى سبيل رفع المستويات الثقافيه ، منها ضرورة اعادة دراسةمناهج التعليم فى جميع الفروع، دراسة ثورية هدفها تمكين الانسان الفرد من اعادة تشكيل الحياة(٥٤) .

ثم تشجيع « الكلمة المكتوبة » فى كافة مجالات العمل الوطنى ، فتتوفر له « ذخيرة هائلة بغير حدود لآفاق منفكر ممتزجة بدقائق من تنفيذ عملى(٥٥) ».

وتلك « الكلمة المكتوبة » التى يشير اليها الميثاق، تضرب الى معان عميقةكل العمق ، وتحدد لنا موقفنا من العلم كما يجب أن يكون ، لا يريد منا الميثـاق مجرد التربص بكل جديد فننقله ، وانما يحثنا على أن نغرس فى نفوسنا روح العلم ذاتها ، فنتسلح ، اذ نواجه مشاكلنا ، بنظرة علمية متفحصة ، وهو ما لن يتأتى لنا الا اذا توسعنا على مستوى القاعدة ، فنجعل المؤلفات العلمية ميسرة لأكبـــر عـــدد من المواطنين ، فيصيب منها كل « بقــدر ما يتحمل استعداده ومواهبه » (٥٦) .

فما هى آداتنا الى كل هذا ؟ ما هى اداتنا الى تلك الثقافة القادرة على أن تجعل من كلمتنا المكتوبة حتى أدنى مستويات العمل الوطنى ، « ذخيرة هائلة بغير حدود لآفاق الفــكر ممتـــزجة بدقائق التنفيـذ العملى ؟ » (٥٧) .

---

(٥٤) مثله

(٥٥) الميثاق ، الباب الثامن

(٥٦) الميثاق ، الباب السابع

(٥٧) الميثاق ، الباب الثامن

ما هى أداتنا لندفع بفكرنا الاجتماعى الى تطوير « قيم أخلاقية جديدة ومعان انسانية متفتحة للحياة نابضة بها ؟ » (٥٨) .

ما هى أداتنا الى « ثقافة نابضه بالقيم الجديدة ، عميقة فى احساسها بالانسان ، صادقه فى تعبيرها عنه ، قادرة بعد ذلك على اضـــاءة جوانب فكره وحسه وتحريك طاقات كامنة فى أعمـــاقه خلاقة ومبدعة ؟ » (٥٩) .

ما هى أداتنا الى تلك الثقافة القادرة على أن « تفجر ينابيع الاحساس بالجمال فى حياة الانســان الفرد الحر ؟ » (٦٠) .

ثم ما هى أداتنا بعد هذا كله ، لنقل دعوتنـــا ومبادئنا فتكون تحت تصرف كل مواطن عربى ، ايمانا بمسئوليتنا تجاه الأمة العربية كلها ، التى نحن جزء منها ؟ (٦١) .

ما هى أداتنا ان لم تكن لغتنا العريقة ، القـادرة بفضل من تراث حافل غنى ، أن تمـــدنا عن طريق مفرادتها ، اذا بذلنا الجهد فى البحث عنها وتطويرها، بجميع ما نحتاج اليه ، كما سبق وفعلت خـــلال عصور نهضات سالفة ، هى التى مهدت للعالم أن يصل الى ما وصل اليه اليوم من تقدم وازدهار ، فنخلق ركيزة وطيدة لتلك الثقافة الوطنية التى سوف تدفع بحياتنا الثورية الجديدة الى الآفاق الفـكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية .

الم أقل لكم ان الميثاق لم يترك ناحية من نواحى حياتنا الا وعرض لها ، أنه كأرض مصر ، اذ منها قد انبثق ، يحمل فى طياته ثروات وكنوزا لا تبوح بأسرارها الا بقدر ما نجد فى السعى اليها ..

---

(٥٨) الميثاق ، الباب السابع

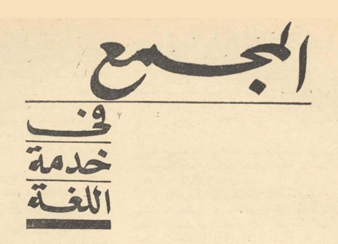
(٥٩) الميثاق ، الباب الخامس

(٦٠) الميثاق ، الباب السابع

(٦١) الميثاق ، الباب التاسع







بقلم : د. ابراهيم مدكور

المجامع الادبية والعلميــة قديمة قدم الحضــارة والثقافة ، عرفت فى التاريخ القــديم والمتوسط ، وتتابعت الى اليــوم • وأغلب الظن أن المجامع اللغوية بمعناها الدقيق من صنع التاريخ الحديث ، وأول ما عرف منها الأكاديميــة الفرنسية التى ظهرت فى أول الثلث الثانى من القرن السابع عشر ، وكان هدفها « أن تجعل اللغة رشيقة وافية بأغراض العلوم والفنــون » • وعلى غرارها انشئت عدة مجامع لغوية فى الغرب والشرق •

بيد أن المجامع اللغوية ــ كغيرها ــ تخضع لسنة التطــور ، وتسير بسير الزمن ، ومجمــع القرن العشرين لايستطيع أن يقف عند أوضاع مجمع القرن السابع عشر • ويكفى أن نشير الى أن الاكاديمية الفرنسية هدفت الى عدة أمور ، ولم تحقق منها الا القليل • فعنيت بوضع معجم شامل لم تخرجه الا بعد ستين سنة ، وترددت طويلا فى أن تضمنه شيئا من المصطلحات العلميه والفنية ، برغم ما لها من صلة بالحياة واللغة ، ولم تأخذ بذلك الا فى الطبعة الرابعة ، واستبعدت منه أسماء الأعلام استبعادا تاما ، ولم تجار حتى الآن الاتجاه الموسوعى الذى ساد التاليف المعجمى فى القرنين الأخيرين • وفيمــا عدا هذا لم تعرض لأصول البلاغه والبيان ، ولا لقواعد العروض والشعر ، واكتفت فى الاملاء ورسم الحروف بما ارتآه أحد أعضائها من تعديل كتابة بعض الكلمــات على حسب نطقها ، دون مراعاة لأصــولها اليونانية أو اللاتينية ، وكأنما كانت تعد ذلك خارجا عن مهمتها • ووضعت فى النحو اخيرا كتاب«الأجرومية الفرنسية» وهو أقرب الى المحافظة منه الى التجديد •

ومجمع اللغة العربية ، وهو ابن القرن العشرين ، كان لابد له أن يعمــل ويتحرك ، ويطور ويجدد ، ويطوع اللغه لمقتضيات العصر وحاجاته ، وعلى صغر سنه نسبيا درس وبحث ، وأنتج والف ، وامتــد انتاجه الى نواح متعددة • ونكتفى بأن نشير الى ثلاث منها ، هى :

١) تيسير متن اللغة
٢) المصطلحات العلمية والفنية
٣) المعجمات الخاصة واللغويه

متن اللغة

المفردات اللغوية أشبه ما يكون بنقــد متداول يبقى منه فى السوق ما يبقى ، وينقرض ماينقرض ، والعربية لغة ذات ماض طويل ، استعملت فيه ألفاظ ثم حلت محلها أخرى ، واستخدم فى كل عصر ما يلائمه من وسائل التبادل الفكرى • ولم يتردد العرب فى أن يضعوا ألفاظا جديدة ، فقاسوا واشتقوا كلما دعت الحاجة ، وعربوا ما بدا لهم تعريبــه • ولم يضيقوا ذرعا بما نقل اليهم من ألفاظ أجنبيــة ، اثبتوها على صيغتها الأصلية أحيانا ، وحرفوها قليلا احيانا أخرى • ولم يخشوا يوما على لغتهم بأسا ،

اللهم الا حين تفشت العجمة وكثر الدخيل ، فقاموا بجمع مفرداتها وسجلوا ألفاظها • وبذل الرواة في ذلك جهودا طائلة ، ولم يعن قط بجمع لغه قديمه ، مثلما عنى بجمع العربية •

وحرص أصحاب المعجمات على أن يسجلوا كل ما سمعوا ، وان لم يخل من شيء من التعارض والتكرار ، واللغويون أميل عادة الى السماع ، وأرغب فى الحفظ والنقل • وبدت اللغة فى ثنايا المعاجم واسعه المادة غزيره الألفاظ ، وهى سعه نسبية فى الواقع ، لأن من هذه الالفاظ ما هو غريب وحوشى ، ومنها ما هو مهمل ومشترك • ومع هذا تقيد به أهل العصور المتأخره ، ووقفوا عنده ، ورددوا كلمه ابن فارس المعروفه : « ليس لنا اليوم ان نخترع ، ولا ان نقول غير ما قالوا ، ولا أن نقيس قياسا لم يقيسوه » •

ويوم أن بزغ عصر النهضة العربية الحديثه ، أخذ العرب يتساءلون : هل لهم أن يجددوا فى لغتهم ، وأن يضيفوا اليها الفاظا مبتكره ؟ وبقوا مترددين فى ذلك الى عهد غير بعيد• ولم يكن بد لمجمع اللغه العربيه أن يواجه هذه المشكلة ، فقرر فى وضوح ان اللغه ملك للمتخاطبين بها ، ولهم أن يتصرفوا فيهـا بقـدر حاجتهم ، وما هى الا ظاهرة اجتماعيه تخضع لسـنة النشوء والارتقاء • وأطلق القياس ليشمل ما قيس وما لم يقس من قبل ، وتوسع فى الاشتقاق ما أمكن • فأجاز مثلا الاشتقاق من أسماء الأعيان ، فيقال مغنط من المغناطيس ، وقصدر من القصدير ، كما قيل قديما ذهب من الذهب وكبرت من الكبريت ، وكان هذا مقصورا على السـماع • وتوسع فى المصدر الصناعى ، وعده قياسا مطردا ، فيقال : المثاليـة والمادية ، كما قيل من قبل : القدرية والجبرية• وأقر وضع صيغ جديدة للدلالة على المرض أو الحرفة أو الآلة ، وقال بقياسية أفعال المطاوعة جميعها ، وأجاز أن يعدى الثلاثى قياسا بالهمزة أو التضعيف • وأخرج منذ ثلاث سنوات «مجموعه القرارات العلمية» التى تشتمل على كثير من أبواب التيسير هذه ــ وأصبح مقررا لديه فى اختصار : « ان ما قيس على كلام العرب فهو منه » •

واسـتوقف التعريب الباحثين فى أخريات القرن الماضى وأوائل هذا القرن ، وأنكره قوم ، وسـلم به آخرون • ويظهر أن هذه المشكلة هالت المجمعين فى البدايه ، فلم يجيزوا «استعمال بعض الألفاظ الأجنبية الا عند الضرورة » • ولكنهم ما لبثوا أن أقروا معربات كثيرة فى العلوم والفنون ، وقبلوا ما اشتق منها من أفعال وأسماء • وأخذوا يضعون للتعريب بعض القيود والضوابط ، فرأوا أن الأولى أن يعرب ما يدل على أسماء الأعيان وأعلام الجنس ، مثل أكسجين ، وأنزيم ، وأيون ، والكترون ، وما يدل على تصنيف عام من أنواع النبات والحيـوان ، أو على سلسلة متشابهة فى الكيمياء ، أو ماينسب الى علم من اسم شخص أو مكان • وأصبح التعريب لاينظر اليه فى توجس وخيفة ، كما كان الشأن من قبل ، وان كان لايلجأ اليه عند الحاجة •

ولا نزاع فى أن العربية استعادت ثقتها بنفسها ، وبدأت تتقبل الألفاظ الجديدة غير هيابة ولا وجله • ولا يستنكر علماء اللغة اليوم أن من حقهم أن يقترحوا ما من شأنه أن ييسر اللغه وينهض بها ، وفتح باب الاجتهاد فى اللغة كما فتح فى الفقه والتشريع • على أنه ينبغى ألا يفتح على مصراعيه ، لأن لكل لغه أصولا ومعـالم لايجوز أن تمس ، والا فقـدت كيانها ومقوماتها ، وكان لتيسير المجمع واجتهاده شأنه ، فقد بعث روحا وأحيا سـنة ، وأسـهم الكتـاب والأدباء فى تطوير اللغة وامدادها بالجديد والطريف•

المصطلحات العلمية والفنية

للعلم لغة أحكم وضعها ، ولا حياة له بدونها ، وهى كاللغة العامه متجددة ومتطورة ، وتزيد حركتها بتقدم العلم ونهوضـه • وقوامها مصطلحات ذات دلالات خاصه تختلف عن المدلول اللغوى المألوف • وللعالم أن يختار اللفظ الذى يرتضيه لأداء الحقيقة العلمية ، ولا يستطيع أحد أن يعبر عنها أصدق منه• وقد يلجأ الى الرموز والاشارات للتعبير عما يريد ، وهى ضرب من اللغة •

ولم تنشأ لغة العلم فى الاسلام دفعة واحدة ، بل نمت وتنوعت بنمو العلوم وتقدمها • ولم يكد يحل القرن الرابع الهجرى حتى اكتملت ، واسـتقرت مصطلحاتها • وتداولها الباحثون فى المشرق والمغرب . ولم تختلف من قطر الى قطر • وبدىء تسجيلها فى معجمات خاصـة ، تحت اسم : « مفردات » . أو « تعريفات » ، أو « كشاف » ، ومن أوائلها « مفاتيح العلوم للخوارزمى » • ويوم أن ركد البحث العلمى ركدت لغته معه ، وكان هم الخلف أن يردد ألفاظا وصيغا قال بها السلف •

ثم جاءت النهضة العلميه الحديثة ، وشاء رجالها أن يتداركوا بعض ما فات ، وأن يتابعوا سير العلم فى العصر الحاضر ، ولم تستحث خطاه قط بقدر ما تستحث اليوم • وكان لا بد للمجمع أن يساهم فى هذا المضـمار ، لأن من أهم أغراضه « أن يجعـل اللغة وافية بمطالب العلوم والفنون فى تقدمها » • اضطلع بالعبء فى البداية وحده ، ثم ندب له الخبراء والمتخصصين ، ووقف عليـه جل جهوده فى لجانه ومجلسه، ودعا الى جمع المصطلحات العربية القديمة، وشجع عليها بجوائز خاصة ، وان كان يرى أنهـا أضحت لاتفى بحاجة البحث العلمى الحديث • ولجأ الى الاشتقاق والمجاز والنقـل والنحت والتعريب لوضع المصطلحات الجديدة •

ويحرص على أن يؤدى المعنى الواحد بلفظ واحد ، وأن يكون هذا اللفظ صالحا للاشتقاق منه والنسبة اليه ، ولا يقبل أداء المصطلح الأجنبى بجمله أو بلفظين مترادفين . ويشترط فى المصطلح العلمى أن يكون واضحا ودقيقا ، بحيث يكون نصا فى معناه ، لأن لغة العلم تتنافى مع الغموض والابهام . ويدعو الى تجنب الغرابة والابتــــذال ، وان كان لايرفض تخير بعض الألفاظ النادرة والعامية السلمية . ويلتزم بأن يعرف المصطلح ، ليفهم على وجهه وتتبين دقته .

وقيمة المصطلح فى أن يؤخذ به ، وأن يجمع أهل العلم عليه ، ويهدف المجمع الى هذا الاجماع ما وسعه. فلوحظ فى تكوينه أن تمثل فيه البلاد العربية ما أمكن، ومؤتمره السنوى مجال لتعــاون عربى دائم ، ومن مبادئه ألا يصبح المصطلح نهائيا الا اذا اقره المؤتمر . وقد درج من قديم على أن ينشر فى مجلته المصطلحات بعد اقرارها ، وأضــاف فى السنوات الأخيرة نشرا آخر عن طريق مجموعات خاصة . ويحرص على أن يبلغ ذلك كله الى الهيئات العلمية المختلفه ، ويرحب دائما بكل ما يوجه من نقد أو ملاحظه ، ولا يتردد فى أن يعيد النظر فيما قد يعترض عليه . ويشترك فى المؤتمرات العلمية العربية ، ويتابع كل ما يجرى فيها من بحوث حول المصطلحات ووضعها ، ويستجيب لرغباتها ما وسعه . ويعول بوجه خاص على الجامعة العربية ، ويسهم فيما تكونه من لجان وما تعقده من مؤتمرات لتوحيد المصطلح العربى .

وألفاظ الحضارة ضرب من المصطلحات ، وباب من أبواب تنمية اللغة وتطويرها . فلأصحاب المهن والحرف وسائلهم اللغــــوية ، وللحقل مفردات تختلف عن مفردات المصنع والمتجر ، وألزم شىء للغــــه أن تفى بحاجات الحياة العامه . ولا تخضع ألفاظ الحضارة لما تخضع له المصطلحات العلمية من قيود فى الوضع والاستعمال ، لأنها ملك العامة الدين يعبرون فى طلاقه، وينفرون من التحكـــم فيما جرت به ألســـنتهم . ومعالجتها ليست يسيرة ،لانها تتغير من قطر الى قطر ، بل ومن مدينة الى أخرى . واللغويون ازاءها فريقان : فريق يلجأ الى بطون كتب اللغه ليستخرج منها ألفاظا مهملة يؤدى بها مسميات الحضـــــارة الحاضرة ، ولعل هذا هو الذى عزا الى المجمعين ما ليس من عملهم ، فنسب اليهم أنهم قالوا بالعرعور للوزير ، وبالارزير للتليفون ، وبالشاطر والمشطور بينهما كامخ للسـاندوتش ! وفريق يذهب الى أن الأولى بالمجمع أن يسجل ، فيجمع ألفاظ الحضارة من مظانها ، ثم يهذبها ويقر منها مايرتضيه ، وما لاسبيل الى اقراره يدعه للزمن ، وهو كفيل بأن يصلح من شأنه ويقوم عوجه . والتزم المجمع الفرنسى التسجيل، ويعد من الأحداث اللغوية فى فرنسا أن يقر لفظا أو عبارة من اللغة الدارجة . ولم يحاول أن يشرع ، ولا أن يحلل أو يحرم ، والاستعمال عنده هو الفيصل فى الرفض أو القبول .

وينشد المجمع ما أمكن توحيد ألفاظ الحضارة ، كما ينشد توحيد المصطلحات العلميه ، والأمر هنا جد عسير ، لتعدد الاســــتعمال ، وتباين العرف والتقاليد من بلد عربى الى آخر . ولذلك يعنى بألا يقر منها الا ما استقر وشاع ، ويلجأ الى ضرب من التقريب والملاءمة . وقد يغلب لديه الاستعمال المصرى . ولكنه لايتردد فى أن يحل محله استعمالا آخر ، متى كان أكثر استقرارا وأعظم شيوعا . ومادته على كل حال فى هذا الميدان أقل من مادته فى ميدان المصطلحات العلمية . والزمن كفيل بتدارك مالاسبيل الى تداركه اليوم ، وفى وسائل الاعلام من اذاعة وصـحافة ما يضيق مسافة الخلف ، ويقرب ألفاظ الحضارة بعضها من بعض البلاد العربيه .

⊛

ونستطيع أن نقول أن للمجمع تجربة طويله فى وضع المصطلحات ، وهو دون نزاع اكبر هيئة علمية تضطلع بذلك فى العــــالم الغربى . وقد آخرج منها عشرات الآلاف فى كتب وكراسات، ووقف عليها أخيرا مجموعات ، يخرج منها واحدة كل عام ، وفيما أخرجه مادة صالحة للمعجمات العلمية والفنيــة . ويسعده أن مصطلحاته تجد سبيلها الى الاستعمال والتداول، وتشيع عاما بعد عام فى المشرق والمغرب . وكثيرا ما طلبت منه استشارات ، أو بعث اليه بمقترحات فى أبواب البحوث الجديدة ، كالبتروليات ولغة المسرح والسينما . وهو يعير ذلك كله مايستحق من عناية ، ويأمل أن تسانده الصحافة فى هذه المهمة الدقيقة . وفى تجربته الطويله ما يثبت أن العربية ليست أقل استجابة لمقتضيات العلم من اللغات الأخرى ، وكم من مصطلح عربى يبدو ألصق بمعناه وأدق فى دلالته من مصطلح أجنبى .

المعجمــــــات

قد لايكون ثمة لغة قديمة او حديثة ـ فيما عدا الصينية ـ أتيح لها ما أتيح للعربية من كتب لغوية ومعجمات ، بدىء فى وضعها منذ عهد مبكر ، وتوالت العناية بها الى اليوم . سن الخليل بن احمد سنتها فى القرن الثانى للهجرة ، وتنافس من بعده النحاة واللغويون فى التاليف المعجمى ، ولا يكاد يخلو قرن من معجم عربى جديد ، وربما ظهر فى القرن الواحد عدة معاجم . ومن حسن الحظ أنه وصل الينا معظم هذا التراث ، وبين أيدينا قدر كبير منه نصدر عنه ونعول عليه .

ولا شك فى أن المعاجم القديمة غزيرة المادة ، مليئة بالمعلومات ، ولها قيمة تاريخيه كبرى ، فقد حفظت اللغة ، وأعانت على توضيح العبـــــارات والشواهد

الغامضة . ولكنها لاتواجه تمـــاما حاجات العصر ومقتضياته ، ففى شرحها غموض ، وفى بعض تعاريفها خطأ ، وفى تبويبها لبس . وأبى أصحابها الا ان يقفوا بها عند حدود زمانية ومكانية ضيقة ، ففقدت كثيرا من معالم الحياة والتطور ، ولم تمثل العصر الذى ظهرت فيه . وقد وجه اليها كثير من النقـــد منذ أخريات القـــرن الماضى ، ووضعت معجمات جديدة لتدارك هذا النقص .

وللمعجمات فن لايقل عن الفنون الأخرى فى قيوده وأوضاعه ، وقد خطا فيه العرب خطوات فســيحة فاقت ما عرف لدى الأغــــريق والرومان ، وأثرت فى معجمات عصر النهضة الأوربيه . الا أن هذا الفن لم يتوقف ، واستمر ينمو حتى بلغ قمتـــــه فى القرن التاســـع عشر ، وظهرت آثاره فى بعض المعجمات الأوربيه الحديثـة ، كـ « اكسفورد ووبيستر » فى الانجليزية ، و « لاروس » فى الفرنســـية . ويراد بالمعجم العربى أن ينحو هذا النحو ، فيصبح مرجعا سهل المأخذ ، واضحا دقيقا ، محكم الترتيب ، مصورا ما أمكن . هذا الى ان المعجم اللغوى وثيق الصـلة بأبواب المعرفة الانسانية ، وقد أصـــبحنا أمام علم حديث يختلف فى نواح كثيرة عن علوم القـــــرون الوسطى والتاريخ القديم ، ولابد لمعاجمنا المعاصرة أن تأخذ عنه وتساير نهوضه .

وقد نص مرسوم انشاء المجمع على أن من أغراضه « أن يقوم بوضع معجم تاريخى للغة العربية » ويظهر ان فكرة المعجم التاريخى هذه متأثرة فى الغـــالب بمعجم آكسفورد . ومنذ الســـنة الأولى شـــغل المجمعيون بهذا المعجم ، فحددوا خطته ، ورســـموا معالمه ، واستأنسوا ببعض المعجمـــات الأوربيـــة الكبرى ، وانتهوا الى طائفة من المبادىء لها شـأنها فى التأليف المعجمى . فرأوا أولا أن العربيه ليست مقصورة على ما ورد فى المعجمات وحدها ، بل لهـا مظـــان أخرى ، يجب تتبعها والأخذ عنها ، وفى مقدمتها كتب الأدب والعلم ، وما يجرى على السنة الناس من حوار ونقاش . ومن الخطأ رفض لفظ ، لا لسبب الا أنه لم يرد فى معجم لغــوى . وقرروا ثانيا أن اللغة كل متصـــل الأجزاء ، يرتبط حاضره بماضيه ، وهما معا يعدان لمستقبله . والعربيـــة لغة قديمة وحديثة ، ومن الظلم ان نقف بها عنـــد زمن معين ، لانا ان فعلنا حكمنا عليها بالفنــــاء . ومعجم القرن العشرين يجب أن يعبر عن اللغـــة فى مختلف عصورها . وذهبوا كما أشرنا من قبل الى أن من حقنا أن نقيس كما قاس القدماء ، وأن نشتق ونصرف كما اشتقوا وصرفوا .

وشـــاءت الأقدار ان يكون بين المجمعيين الأول مستشرق ألمانى عنى بالمعجمات العربية منذ أخريات القرن الماضى ، وهو الدكتور فيشر الذى رغب فى أن يتوج جهوده باخراجها تحت كنف المجمع ، وكانت تقوم فى جملتها على أساس فكرة المعجم التاريخى . فهيأ له المجمع الأسباب ، وقضى نحو أربع سنوات فى الجمع والتنسيق ، ثم جاءت الحرب العالميـــة الثانية ففرقت الشمل ، واعترضت سير العمـــل ، ولحق فيشر بربه قبـــل أن يعود الى المجمع ، ولم يخلف لنا الا جزازات فى أغلبها غير مستوفاة .

ولم يقف المجمع عند هذا ، بل عنى منــــذ عام ١٩٤٠ بوضع معجم مدرسى طلبته وزارة المعارف حين ذاك ، ورغبت فى ألا يقل فى نظـــامه عن أحـــدث المعجمات الأوربية ، فشـــــاءت به ان يكون محكم الترتيب ، وأن يشتمل على مصطلحات العلوم ، وعلى ملحق بالمشهور من أعلام الأشـــخاص والأماكن ، وكأنما كانت تصوب الى شىء شبيه بالمعجم الفرنسى المعروف باسم « لاروس الصغير » . وهذه هى نواة « المعجم الوسيط » الذى ظهر فى عام ١٩٦٠ ، وأخرج منه عشرة آلاف نسخه أوشكت على النفاد ، ويعـد المجمع العدة لاخراج الطبعة الثانية .

وفى هذا المعجم تجديد من نواح شتى ، فقد رسم فى العربيه فنا للتأليف المعجمى الحديث ، أساسه الترتيب والتبويب ، فأوردت الكلمـــات فى المادة الواحدة على حسب نطقها لا على حسب تصريفها ، وتفادى المجمع بذلك صعوبة البحث عن أصول الكلمات واشتقاقها . ولم يعدل عن المواد فى تعاقبها، كى لا يقع فى تكرار لا داعى اليه ، ووقوفا عند طبيعة العربيه وهى لغة اشتقاقية . وفى المعجم الوســـيط تطوير واضح للغة ، فيقيس فيما قصر أمره على الســـماع ، ويدخل فى متنها ما دعت اليه الضرورة من الالفاظ المولدة أو المحدثة أو المعربة ، ويفسح مجالا لالفاظ الحضارة والحياة العامة . وهذا مما يختلف فيـــه الرأى ، ودار حوله كثير مما وجه الى هذا المعجم من نقد . ولا نظن أحدا يعارض اليوم فى أن يشـــتمل معجم القرن العشرين على قدر من ألفاظ الحضارة والحياة العامة ، ولكن ينبغى أن يتفق على هذا القدر، وأن يبنى اختياره على أسس واضحة . وفى المعجم الوسيط أخيرا قدر من المصطلحات العلمية الشائعة، فحقق ما لم يقم به معجم الأكاديمية الفرنسية الابعد مرور مائة سنة على نشره .

ويوم أن يئس المجمع من اخراج معجم فيشر ، اتجه نحو المعجم الكبير ، ليضيف حلقه الى سلسلة معاجمه ، وقد سبق له أن فكر فى تكوينها من حلقات ثلاث : وجيز ، ووسيط ، وبسيط ، ولأمر ما بدأ بالحلقة الوسطى . والتأليف المعجمى يستلزم أجهزة ووسائل خاصة ، فلا بد له من مكتبة حافلة بالمصادر بين مخطوط ومطبوع ، وأماكن مهيئـــــة للحفظ

والتسجيل – ولابد له الى جانب ذلك من اعداد محررين مدربين ، والاستعانه بخبراء متخصصين فى نواح متعددة • وبرغم نقص الموارد ؛ قله الوسائل اضطلع المجمع بالعبء ، وبدا السير عام ١٩٤٦ ، واستطاع أن ينشر فى عام ١٩٥٦ جزءا من معجمه الكبير فى ٥٠٠ صفحة ، ولم يعده الا مجرد تجربة دعا المتخصصين الى قراءتها ، وتسجيل مايمكن ان يلاحظوه عليها ، وموافاته بملاحظاتهم • ثم استمر يراجع عمله ، وينقحه ويهذبه ما وسعه • وقد آن الاوان لان يخرج الجزء الاول فى صورته النهائية ، ويأمل أن يقدمه للمطبعة قريبا • وفى اخراجه ما يرسم المعالم ويحدد الطريق ، وما يحفز الى تجنيد عدد أكبر من الباحثين والدارسين للوصول الى الغاية وادراك الهدف •

والى جانب المعجمات اللغوية أسهم المجمع فى ميدان المعاجم الخاصة ، وكان «معجم ألفاظ القرآن» اول ما اتجه اليه ، وقد نبتت فكرته عام ١٦٤١ ، ولم يبدأ فيه الا عام ١٦٤٦ ، وأريد به أن يشرح الكلمات لغويا ، وان يرتب معانيها بحسب أهميتها وكثرة ورودها فى القرآن ، ويقرن كل معنى بالآيات المتصلة به • فهو معجم لغوى مفهرس ، تحاشى خلافات المفسرين وتأويلات الفقهاء والمتكلمين ، ولم يعرض لشىء من الالفاظ الدخيلة ، ولا لتحقيق الاعلام التاريخيه والجغرافية • وقد نشر منه ثلاثة أجزاء على التوالى فى عام ١٩٥٣ ، ١٩٥٩ ، ١٩٦١ • والأجزاء الثلاثة الباقية معدة للنشر ، ويرجى أن يظهر أولها قريبا •

واتجه المجمع أيضا نحو اخراج معجم فلسفى وآخر فى الجغرافيا ، وظهر الجزء الأول منهما ، والجزء الثانى تحت الطبع • ونشر فى العام الماضى معجما فى الجيولوجيا مشتملا على كل ما سبق ان أقره فى هذه المادة من مصطلحات • وهو الآن بصدد وضع معجمين : أحدهما فى العلوم الاجتماعية بالاشتراك مع اليونسكو ، والآخر فى الطب تحت اشراف لجنته الطبية •

والتأليف المعجمى شاق وطويل المدى ، وفى وسع المجمع أن يقول أنه قطع فيه شوطا كبيرا ، وتوافرت لديه خبرات وأجهزة متخصصة • غير أن دور المعاجم العالمية تحظى بموارد طائله ، وتعتمد على خبرات ممتازة وتخصصات دقيقة • وما أجدرنا أن نعزز قسم المعاجم فى المجمع وندعمه ، كى يصبح بحق دار المعجم العربى •

•

هذه صورة مجمله لما قام به المجمع خدمة للغه فى اثنتين وثلاثين سنة ، اقتطعت منها الحرب العالمية الثانية خمسا أو تزيد ، وبرغم قلة الموارد وعجز الوسائل • وله جهود أخرى كان يود أن يرى ثمارها يانعة • فقد شغل بتيسير النحو زمنا ، ورسم له منهجا كاملا ، وأعد فيه أجرومية شبيهة بأجرومية بعض اللغات الحية • ودعا وزارة المعارف الى أن تؤلف كتبا فى ضوئها ، ولم يستجب لدعوته ، وبقى الأمر فى طى النسيان عشر سنين • وأخيرا رأت وزارة التربيه والتعليم أن تبعثه من مرقده ، وألفت فيه كتبا لم تعرض على المجمع ، وبدأ التلاميذ يتعلمون النحو الميسر ، وقضوا فى ذلك عامين ، ثم عدل عن المشروع جملة • ولا نظننا فى حاجة أن نشير الى أن تيسير النحو على المتعلمين سائر فى طريقه وأصبحنا نؤمن بأن النحو لغير المتخصصين ليس علما يقصد لذاته ، وانما هو وسيلة من وسائل تقويم اللسان والقلم ، وشأن الوسيله أن نقف بها عند أضيق الحدود الممكنة •

وعنى المجمع أيضا بتيسير الكتابة العربية ، فعالجتها لجانه علاجا متصلا ، ووقف على مناقشتها دورة كاملة من دوراته ، وأعلن عن جائزة لأحسن اقتراح فى تيسيرها ، واشترك فى لجنه كونتها الجامعة العربية لبحثها • وانتهى الى مشروعين ، ينصب أحدهما على الضبط والشكل فى كتب مراحل التعليم العام ، وأخذت به وزارة التربية والتعليم • ويعالج الثانى صندوق الطباعة العربيه ، فاختصر صوره وهذبها حتى هبطت الى ١٣٥ صورة ، واقتربت كل القرب من صندوق الطباعة اللاتينة ، وهى صالحة للآلات الكاتبة صلاحيتها لأنواع الجمع المختلفة « كالمونوتيب » ، واللينوتيب » • ولا يزال المشروع فى انتظار التنفيذ ، وأن كان قد قدم منه نموذج عملى •

ولا يزال المجمع على الطريق ، وعلى عاتقه أعباء ثقيلة ، وأمامه مشروعات مختلفة • وما أحوجه الى دار فسيحة يتسع صدرها لمجلسه ومؤتمره ، واعضائه وضيوفه ، وخبرائه ومحرريه • ومجمع القرن العشرين لابد له أن يبسط صلاته فى الخارج والداخل ، ويوثق علاقاته بجمهور القراء والباحثين ، ويتبادل مطبوعاته مع الهيئات العلمية شرقا وغربا . ويشترك فى المؤتمرات الأدبية والعلميه • والعربية لغة عالمية تستعيد اليوم مكانتها بين اللغات الكبرى ، وهى ولا شك لغة مطواعة لاعقم فيها ولا جمود ، تلبى دعوة العلم ، وتستجيب لمقتضيات الحضارة . ولا ضير أن تسعى اليها ألفاظ مولدة أو دخيله ، فانها كفيلة بأن تصهرها وتتبناها • ويقيننا ان فى محو الأمية ونشر الثقافة العامة ما يجمع العالم العربى كله على لغة موحدة ، سهله وميسرة ، نامية ومتطورة •

إحياء التراث

وما تمّ فيه

بقلم عبد السلام هارون

التراث هو تلك الآثار المكتوبة الموروثة التى حفظها التاريخ كاملة أو مبتورة فوصلت الينا . وليس هناك حدود معينة لتاريخ أى تراث كان . فكل ما خلفه المؤلف بعد حياته من انتاج يعد تراثا فكريا . ولقد أصبح شعر شوقى وحافظ، وحديث عيسى بن هشام ، وآثار العقاد والمازنى تراثا له حرمته التاريخية ، وله مقداره الأثرى .

تقويم التراث العربى :

ولعل من نافلة القول أن نسهب فى بيان قيمة التراث العربى ، فلقد سبقنا العلماء الأوربيون الى الاعتراف بهذا الفضل ، واستولت عليهم الدهشة ازاء ظهورهم على ما صنع أسلافنا فى مختلف زوايا العلم والمعرفة . فالتراث العربى غنى فى الكيفية وغنى فى الكمية ، ولا تزال آثار هؤلاء الأسلاف فى التشريع والعلوم الفلسفيه والرياضية والفنية وغيرها ، معدودة فى قمة الانتاج الفكرى العالمى ، ولا تزال النظريات الفلسفيه والاجتماعية لعلماء العرب وفلاسفتهم أصلا وجذرا من جذور علم الاجتماع والفلسفة المعاصرة .

وكنت قريبا فى مجلس ضم بعض المشتغلين بالفلسفة فذكر بعض الأساتذة أن أحدث البحوث الفلسفيه الآن أصبح يستخدم الرموز الحرفية فى حل مشاكل الفلسفة ، وأن مسائل الفلسفة أمست شبيهة بمسائل الجبر والمعادلات الرياضيه . فقلت له : ان أسلافنا العرب قد سبقوا فلاسفتنا المعاصرين فى هذا الاتجاه ، وذكرت له أنى قمت بنشر رسالة للرئيس ابن سينا ، عنوانها « الرسالة النوروزية » يتكلم فيها ابن سينا عن فلسفة الوجود مستخدما فى ذلك الرموز الحرفيه (أ ، ب ، ج ، د ، س ، ص ... الخ) . وهذه الرسالة فى ضمن سلسلة نوادر المخطوطات التى قمت بنشرها سنة ١٩٥٤ . فأخذت الدهشة صاحبى من ذلك السبق الفنى العجيب لأسلافنا العرب .

●

وفى التراث العربى كثير من المعجزات الفريدة التى لم تتكرر فى عالم التاليف الى الآن . فكتاب « مقاييس اللغة » لابن فارس ، يعد فريدا فى بابه ، اذ أن ابن فارس استطاع أن يبتدع نظريه لغوية دقيقة ، تتمثل فى ارجاع مفردات كل مادة لغويه الى أصل أو أصلين أو أصول معنوية ، ترجع كل المفردات اليها ، وقام بتطبيق تلك الفكرة على جمهور المواد اللغوية العربية فاستقام له ذلك . ولم نسمع الى الآن بمن قام بمثل هذا المجهود التاليفى فى أى لغة من لغات العالم كانت ، فى قديمها والحديث .

ويكفى أن ترجع الى « كشف الظنون » لتقرأ أسماء نحو مائتى علم أو فن ، كعلم الأكتاف ، والأكر ، والآلات الحربيه ، والآلات الرصديه ، وآلات الساعة، والآلات الظلية ، وعلم انبساط المياه ، وعلم الأوزان والمقادير ، والباه ، والبرد ومسافاتها ، والبيذرة

والبيطرة ، وتحسين الحروف ، وتدبير المدنية ، وتدبير المنزل ، وترتيب العسكر ، وتركيب المداد ، والتصوف ، وتعبير الرؤيا ، والجبر والمقابلـــة ، والجراحه ، وجر الأثقال ، والجغرافيا ، والجفر ، والجهاد ، والحروف والأســـماء ، والحـــكمة ، والرصد ، والرقص ، والرمل ، والرمى ، والرياضه ، والريافة ، والزيج والزايرجـــة ، والســـياسه ، والسيمياء ، والشروط والسجلات ، والصـــيدلة ، والطبخ ، والطلســـمات ، والطيـــرة ، والعدد ، والعــرافة ، وعقــود الابنية ، والغنج ، والفتاوى ، والفراسة ، والفلاحة ، والفلقطيرات ، والقرانات ، والقرعة ، وقلع الآثار ، وقوانين الكتابة ، وقـــود العساكر والجيوش ، والكحـــاله ، وكشف الدك ، والكهانة ، والكيمياء ، ومراكز الأثقـــال ، والمرايا المحرقة ، والمساحة ، والمعادن ، والمعمى ، والملاحة ، والملاحم ، والموسيقى ، والميقات ، والنبـــات ، ونزول الغيث ، والنيرنجات ، والوصايا ، والوضع ، والهندسة ، والهيئة . الى كثير جـــدا مما أغفلت ذكره .

هذه بعض أسماء علومهم ، وفى المكتبات العـــامة فى العالم ـ وهى تناهز الفا وخمسمائة(1) على ما احصاه الفيكونت فيليب دى طرازى فى كتابه المسمى « خزائن الكتب العربية فى الخافقين » ـ آثار خالدة خلـود الأهرام . وهى جديرة بأن يتعاقب المحققون على تمهيد السبيل للانتفاع بها والإستمداد منها .

ومن البديهى أنه يقصد بالتراث العربى ما تركه الأسلاف المتكلمون أو المؤلفون باللغه العربية ، فان الأفق العربى أوسع مجالا وارحب نطاقا من أن يتقيد بالعنصرية العربية الأصيلة .

احياء التراث :

وليس احياء التراث أمرا حديثا ، بلْ هو عمـــل طبيعى قامت به الأجيال القديمة على امتداد الدهر وعلى صور شتى ، من نشر ، أو تفسير ، أو تلخيص ، أو نقد أو تعليق .

فكم قد رأينا من الكتب القديمـــه التى خلفهـــا أصحابها ، فقام النساخ والوارقون باحيائها واذاعتها على نطاق واسع .

فالمقريزى (الخطط ٢ : ٢٥٣ ـ ٢٥٥) يذكر أنه كان فى خزانة العزيز بالله ٣٠ نسخه من كتاب العين و ١٠٠ نسخه من جمهرة ابن دريد . كما يذكر انه كانت فى خزانه الفاطميين ١٢٠٠ نسخة من تاريخ الطبرى .

ويروى ابن النديم (الفهرست ٣٦٩) فى ترجمته ليحيى بن عدى المنطقى النصرانى ، أنه كان ينسخ كتب التفسير والكلام ، مع انه كان من النصارى اليعقوبية . وهذا أمر عجب . ويذكر أنه لقيه وعاتبه على كثرة نسخه ، فقال له : من اى شىء تعجب فى هذا الوقت من صبرى ؟ قد نسخت بخطى نسختين من التفسير للطبرى ، وحملتهما الى ملوك الأطراف . وقد كتبت من كتب المتكلمين ما لا يحصى ، ولعهدى بنفسى وأنا أكتب فى اليوم والليلة مائة ورقه وأقل !!

ومن طريف ما يروى عن أحد النحاة ، وهو يحيى ابن محمد الأرزنى ، ما ذكره ياقوت فى شأنه ، اذ يقول : « امام فى العربية مليح الخط ، سريع الكتابة ، كان يخرج فى وقت العصر الى سوق الكتب ببغداد ، فلا يقوم من مجلسه حتى يكتب الفصيح لثعلب ، ويبيعه بنصف دينار ، ويشترى نبيـــذا ولحمـــا وفاكهة ، ولا يبيت حتى ينفق ما معه منه » .

ومن الناشرين القدماء ، الذين عملوا فى حقل احياء التراث أبو على محمد بن الحسن بن الهيثم ، المهندس البصرى نزيل مصر ، المتوفى سنة ٤٣٠ . ذكر أنه كان ينسخ فى مدة سنة ثلاثه كتب فى ضمن أشغاله ، وهى اقليدس ، والمتوسطات ، والمجسطى ، ويستكملها فى مدة السنة ، فاذا شرع فى نسخها جاءه من يعطيه فيها مائة وخمسين دينارا مصرية ، فيجعلها مؤونة لنفسه .

وكانت صناعة الوراقة فى الأمصـــار العظيمـــة والبلدان الكبيرة من هذا الوطن العربى بمثابه المطابع الحديثة التى تملأ أمصار بلادنا فى الوقت الحاضر . وكانت مهمة الوراقين موزعة بين الانتساخ والتصحيح والتجليد والتذهيب وكل ما يمت الى صناعة الكتب بصلة (مقدمة ابن خلدون ٣٦٧ ـ ٣٦٨) .

هذا جانب من جوانب احياء التراث قديما . أما الآخر فيتمثل فى شرح ذلك التراث . فنحن نجد أن حماسة أبى تمام المتوفى سنة ٢٣١ تناولها بالشرح أكثر من أديب ، فشرحها أبو بكر الصولى ، والمرزوقى ، وابن جنى ، والآمدى ، والتبريزى ، وأبو هـــلال العسكرى ، وابن سيده ، والشنتمرى ، وغيرهم ممن أحصى عددهم صاحب كشف الظنون واحدا وعشرين شارحا . وذكروا أن أول شارح لها هو أبو رياش أحمد بن ابراهيم الشيبانى المتوفى سنه ٣٣٩ .

وكتاب سيبويه المتوفى ســـنة ١٨٠ شرحه أو قام بخدمته أكثر من ٥٥ عالما ، منهم السيرافى ، والرمانى ،

(1) منها فى مصر ١٦ مكتبة وفى الجزائر ٨ وفى فلسطين ٦ ولبنـــان ٣ وسوريا والعراق والحجاز واليمن ١٥ والمغـــرب الاقصى ١٠ وتونس ٧ والولايات المتحـــدة ٢٨٥ والمانيا والنمسا ١٤٥ والاتحـــاد السوفيتى ١٢٠ وبريطانيا ٧٦ وفرنسا ٦٧ وايطاليا ٤٨ وسويسرا ٢١ وهولنده ١٥ وبلجيكا ١٣ واليابان ٩ والدانمرك ٦ واليونان ٢ والهند ٣ وايران ٣ . وفى هذه المكتبات جميعا نحو ٢٦٢ مليون مجلد .

والزمخشري ، وابن الحاجب ، والشلوبين ، وابن الباذش(٢) ٠

ومقامات الحريري أبي محمد القاسم بن علي (٤٤٦ ـ ٥١٦) شرحها معاصر له وقرأها عليه ، وهو محمد بن علي العراقي المتوفى سنة ٥٦١ ثم تولى شرحها كثيرون ، منهم صدر الأفاضل قاسم بن حسين الخوارزمي (٦١٧) ، وناصر بن عبد السيد المطرزي (٦١٠) ، وأبو البقاء العكبرى (٦١٦) ، وأحمد بن عبد المؤمن الشريشي (٦١٩) له شروح ثلاثة على المقامات : كبير ، واوسط ، وصغير ٠

وكتاب احياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي (٥٠٥) شرحه الزبيدي صاحب تاج العروس (١٢٠٥) وطبع هذا الشرح بفاس سنة ١٣٠٢ فى ١٣ جزءا ثم فى الميمنية سنة ١٣١١ فى ١٠ أجزاء ٠ وقام أخوه أحمد ابن محمد الغزالي (٥٢٠) باختصاره، واختصره كذلك أبو العباس الموصلي (٦٢٢) اختصارين ، كما اختصره السيوطي (٩١١) ٠ وآخر اختصار له الى الآن ما نشره عبد السلام هارون باسم « تهذيب احياء علوم الدين » فى مجلدين ٠

تلك بعض النماذج للمحاولات القديمة التى كانت تعمل على احياء التراث أو استحيائه على تطاول العصور ، لم يخل دهر من طائفة صالحة كانت تعمل فى هذا المضمار ٠

احياء التراث فى العصور الحديثة :

أما احياء التراث فى هذه العهود الحديثة فقد لبس ثوبا جديدا يمتاز بالنشاط السريع الذى يتمثل فى انتاج المطبعة الحديثة ، فهى كانت عاملا فعالا فى نشر التراث الفكرى على نطاق أوسع وعلى صور شتى، ودرجات مختلفه من الصحه والتوثيق ، ومراحل متدرجة من الدقة والعناية حتى وصلت الى ما يشبه القمة فى عصرنا الحاضر ٠

واذا تحدثنا عن المطبعه رجع بنا التاريخ الى سنة ١٤٥٠ التى طبعت فيها التوراة بعد أن ابتدع جوتنبرج الألمانى ، « المطبعة » ٠

أما الطباعة العربية فكان مهدها الأول فى ايطاليا فى أوائل القرن السادس عشر ، اذ ظهرت أول مطبعة عربيه فى مدينة فانو بأمر البابا يوليوس الثانى وافتتحها ليون العاشر سنة (١٥١٤) ٠ ومن أوائل ما طبع فيها سفر الزبور (١٥١٦) ٠ ثم مطبعة البندقيه وفيها طبع القرآن الكريم للمرة الأولى ، وبعد أن تم طبعه صودرت نسخه وقضى عليها بدافع تعصبى ، ثم طبعت أول ترجمة ايطاليه للقرآن سنة ١٥٤٧ ٠

(٢) انظر مقدمة سيبويه ص ٣٦ ـ ٤١ تحقيق عبد السلام هارون ٠

وفى مطبعة روما (١٥٩٣) طبع « قانون ابن سينا » فى الطب ، ومعه علم المنطق ، وعلم الطبيعى وكتاب النجاة له أيضا(٣) ٠ فكان صدور هذا الكتاب بداية عهد جديد فى دراسة الطب ٠

ثم تعددت المطابع العربية فى أوروبا وطبع فيها مئات من الكتب العربية والشرقية ، أكثرها فى لندن وباريس ، وليبزج ، وليدن ، وغوتبجن ، وروما ؛ وفينا ، وبرلين ، وبطرسبرج ٠

ثم تعددت المطابع العربية فى أوربا وطبع فيها فى أوائل القرن (١٦) اذ طبعت فيها التوراة العربية ترجمة سعيد الفيومى بالأحرف العبرانية ، أى العبريه وذلك فى سنة ١٥٥١ ٠

وفى القرن الثامن عشر ظهرت الطباعة العربيه فى كل من الآستانة وسورية ولبنان ٠

ففى سورية طبع الانجيل وطائفة من الكتب المسيحية ابتداء من سنة ١٧٠٢ ٠

●

أما فى تركيا فكان القوم فى حال تردد فى طبع كتب الحكمة واللغه والتاريخ والطب والفلك التى لم يجرؤ أحد على طبعها الا بعد ظهور فتوى من شيخ الاسلام عبد الله أفندى سنة ١٧١٦ بجواز ذلك ما عدا الكتب الدينية ، التى استصدرت فتوى أخرى بعدها لاجازة طبعها ٠ وتعددت المطابع فى الآستانة فكان أشهرها مطبعة الجوائب لأحمد فارس الشدياق، ونشر فيها الى جانب جريدة الجوائب طائفة صالحة من الكتب العربية ٠

وتلتهما فى ذلك لبنان ٠ وكان من أقدم مطابعها مطبعة فرحيا ، بدأت بالحروف السريانية ثم انتقلت الى العربيه وكان اهتمامها بالمطبوعات الدينية ٠ ومطبعة الشوير التى أسسها عبد الله زاخر ، وكانت معظم منشوراتها من الكتب الدينية كذلك٠ ثم ظهرت مطبعة القديس جاورجيوس للروم الأرثوذكس فى بيروت سنة ١٧٥٣ وطبعت كثيرا من كتب الأدب والتاريخ، ثم المطبعة الأمريكية للمبعوثين الأمريكان، أنشئت فى مالطة سنة ١٨٢٢ ثم نقلت الى بيروت سنة ١٨٣٤ وطبعت كثيرا من الكتب المدرسية وطائفة من كتب الأدب والتاريخ ودواين الشعر ٠ ثم المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين سنة ١٨٥٤ فكان لها فضل عظيم فى نشر كثير من أمهات التراث العربى سنفرده بالذكر ٠ ثم المطبعة السورية لخليل الخورى صاحب حديقة الأخبار أنشأها سنة ١٨٥٧ واعتنت بطبع كتب القانون والأدب والتاريخ ٠ ثم

(٣) انظر وصف تلك الطبعة وسلسلة الطبعات التى بعدها فى معجم سركيس ١٣٠ ـ ١٣١ ٠

مطبعة المعارف للبستانى (بطرس بن بولس) سنة ١٨٦٧ وهى التى قامت بنشر دائرة المعارف له ثم لولده سليم ، وكذا محيط المحيط ، وقطر المحيط ٠

أما مصر فان أقدم مطبعة ظهرت فيها هى مطبعة الحملة الفرنسية التى أحضرها نابليون معه سنة ١٧٩٨ لطبع المنشورات السياسية والأوامر باللغة العربية ، وكانت تعمل وهى على السفينة فى عرض البحر ، وحينما اقتحمت هذه الحملة ثغر الاسكندريه قام رجالها بتوزيع المنشورات التى أعدوها فى البحر ، وأطلق على تلك المطبعة اسم « المطبعة الأهليه » ، ثم نقلت الى القاهرة واستمرت فى عملها الى سنة ١٨٠١ حيث تم انسحاب الفرنسيين ٠ ومن اظهر انتاجها كتاب فى الهجاء باللغات العربية والتركية والفارسية ٠

ومرت فترة من الزمن زهاء عشرين سنة بقيت مصر فيها بلا مطبعة حتى استقر الأمر لمحمد على فأنشأ مطبعة على أنقاض المطبعة الأهلية الفرنسية ، وسميت بالمطبعة الأهلية أيضا وذلك فى سنة ١٨٢١ ثم نقلت الى بولاق فعرفت بمطبعة بولاق ، وعهد بادارتها الى نقولا مسابكى السورى ، وكان هذا قد بدأ دربته الفنية على الطباعه فى روما زهاء اربع سنوات لصنع أمهات الحروف وسبكها ٠ وكان محررو مطبعة بولاق من الطلبه الأزهريين الذين دربوا لذلك تدريبا خاصا استغرق نحو ست سنوات ٠ ومن ألمع نظار مطبعة بولاق حسين حسنى (باشا) الذى بدأ أمره مصححا وكاتبا بالتركية فى الوقائع المصرية سنة ١٨٥١ ثم عمل فى المطبعة الى أن ولى نظارتها سنة ١٨٨٠ وهو أول من أنشأ مصنعا للورق فى مصر ، اذ كان معظمه قبل ذلك يستورد من ايطاليا ٠

وقد استمرت مطبعة بولاق فى عملها أكثر من ٩٠ سنه لم تركد فى أثنائها الا بضع سنوات فى الفترة التى انقضت بين عهد محمد على واسماعيل ، وكان نشاطها ظاهرا فى طبع مئات من الكتب العربية فى الطب والرياضة والطبيعة والفنون الحربية والتاريخ والأدب والشعر والتفسير والحديث وغيرها ٠ وهذه المطبعة هى نواة المطبعة التى عرفت منذ عهد قديم باسم المطبعة الأميريه ٠ وظهرت الى جانبها مطبعتان حكوميتان أخريان احداهما فى طرة ، والأخرى فى أبى زعبل ٠

●

أما المطابع غير الأميرية فلم تظهر الا بعد مضى نحو أربعين سنة من انشاء مطبعة بولاق ، وأولها المطبعة الأهلية القبطية التى عرفت فيما بعد بمطبعة الوطن ، أنشئت سنه ١٨٦٠ بعد أن تدرب عمالها فى مطبعة بولاق باذن من سعيد باشا ٠ ومن أقدم المطابع الأهلية كذلك مطبعة وادى النيل ١٨٦٦ طبعت فيها صحيفة وادى النيل التى انشأها صاحبها أبو السعود أفندى ٠ ومطبعة جمعية المعارف ٠ ثم تعددت المطابع فى عهد عباس الثانى فى القاهرة وفى سائر العواصم المصرية كالاسكندريه وبورسعيد وطنطا وأسيوط والمنصورة ٠

وظهرت كذلك مطابع عربيه أخرى فى بلاد غير عربيه ، ومنها مطابع كلكتا وبمباى ، ودهلى ، ولاهور، ولكناو ، وحيدر أباد فى الهند ٠ وكان لهذه الأخيرة فضل كبير فى نشر موسوعات من التراث العربى ٠

هذه نظرة خاطفة الى تاريخ الطباعة العربية فى عصورها الأولى ٠ أما فى الحديث فان الحصر لا يحيط بعدد المطابع المنتشرة فى العالم العربى والغربى ، التى تقوم فيما تقوم به على احياء التراث العربى ، ولعل ابرزها جميعا مطبعة دار الكتب المصرية ، ومطبعة دار المعارف ، ومصطفى الحلبى ، وعيسى الحلبى ٠

جهود المستشرقين :

ان الجهد العلمي الذى بذله المستشرقون فى احياء التراث العربى جهد لا يستطاع انكاره ، فهم كانوا أساتذة الجيل الحاضر فى الطريقة العلميه التى جروا عليها ٠ وأعود لاقول ان تحقيق النصوص وتوثيقها فن عربى أصيل ، يتجلى فى معالجة أسلافنا الأقدمين لرواية كتب الحديث واللغه والشعر والأدب والتاريخ فى دقة وأمانة ونظام بارع ، ولكن المستشرقين تبنوا احياء هذا الفن فى هذه العصور القريبة ، ونبغ من بينهم علماء أمناء ، قاموا بنشر عيون ثمينة من التراث العربى ، على الوجه الأمثل ، ومنهم :

وستنفلد الألمانى : Ferdinand Wustenfeld ١٨٠٨ ــ ١٨٩٩ الذى الف وحقق نحو مائتى كتاب بين صغير وكبير(٤) ٠

وبيفان الهولندى : Bevan ١٨٥٩ ــ ١٩٣٤ ناشر نقائض جرير والفرزدق ، وتحقيقه لها وتفسيره للألفاظ التى لم ترد فى المعاجم مما يذكر له بالتقدير ٠

ولايل الانجليزى : Charles Lyall ١٨٤٥ ــ ١٩٢٠ محقق شرح المفضليات لابن الأنبارى مع ترجمة شعريه لها باللغة الانجليزية !

وجاير الألمانى : Rudolf Geyer ١٨٦١ ــ ١٩٢٩ محقق ديوان الأعشى فى عناية فائقة وتخريج مستفيض ٠

---

(٤) معجم المطبوعات لسركيس ، القهرة ١٩١٧ــ١٩١٨ ٠

ولا تستطيع هذه العجالة أن تجلو صـفحة هؤلاء المستشرقين ، ولكن كتاب « المستشرقون » لنجيب العقيقى (وهو كتاب ضخم فى ١٤١٤ صفحة) أعيد طبعه فى العام الماضى ،هذا الكتاب كفيل بأن يبين ضخامة الجهود التى قام بها هؤلاء المستشرقون .

ولعل من أروع محاولاتهم فى احياء التراث ونقله الى داخل لغتهم ما قام به المستشرق العبقرى الدكتور ج. يان : D. Gustave Jahn من ترجمته نص كتاب سيبويه كاملا الى اللغة الألمانية، مع اضافات وتعليقات بالعربية مقتبسة من شروح السيرافى والشنتمرى وغيرها ، وظهرت تلك الترجمة فى خمسه مجلدات ضخمة من سنة ١٨٩٥ ـ ١٩٠٠ .

جهود مطبعة بولاق :

أما جهود مطبعة بولاق فتبدو واضـحه فى نشر أمهات كتب التراث ، أمثال صحيح البخارى ، وخزانة الأدب ، والأغانى ، ولسـان العرب ، وصـحاح الجوهرى ، والقاموس المحيط ، وكتـاب سيبويه ، والمخصص لابن سيده ، وشرح الحماسة للتبريزى ، وشرح المقامات للشريشى ، وقلائد العقيان للفتح بن خاقان وصـبح الأعشى ، وكثير غيرها من أمهـات الكتب . ولست أدرى ماذا يكون الوضع لو لم تبكر هذه المطبعة بنشر تلك الكتب واذاعتها ، اذن لتغير وجه الثقافة العربية المعاصرة التى لا تزال مهتزة ازاء لطمات الاستعمار المتوالية ، وازاء الدس الثقافى الذى لا يزال طائفة من أبناء أمتنا العربية فى دوار من بريقه الكاذب !!

ويحفظ التاريخ لنا أسماء شـيوخ عظام كانوا يقومون ـ فى امانة ـ باخراج تلك الكتب على قدر طاقتهم العلمية ومنهجهم الساذج فى الاخـراج ، منهم : الشيخ نصرالهورينى ،والشيخ قطة العدوى، والشيخ محمد الحسينى ، والشـيخ طه محمـود ، والشيخ محمد عبد الرسول (٥) ، وغيرهم .

دار الكتب المصرية :

وأما دار الكتب المصريه فاليها يرجع الفضـل الأخير فى القدوة المثالية للمحققين المعاصرين. ولعل أول نافخ فى بوق احياء التراث العربى على النهج الحديث هو المغفور له أحمد زكى باشا الذى قام بتحقيق كتابى أنساب الخيل لابن الكلبى ، والأصنام لابن الكلبى أيضا ، وقد طبعا فى المطبعة الأميرية سنة ١٩١٤ باسم لجنة احيـاء الآداب العربية التى عرفت فيما بعد باسم القسم الأدبى ، ولعل هذين

(٥) كان رحمه الله آية فى العالم والفضل . وكان رئيسا للمصححين بالمطبعة الاميرية ثم مغيرا أول بدار الكتب . وقد رأيته فرأيت فيه رجلا فاضلا .

الكتابين مع كتاب التاج للجاحظ الذى حققه أيضا من أوائل الكتب التى كتب فى صـدرها كلمـة « بتحقيق » . كمـا أن تلك الـكتب قد حظيت باخراجها على أحدث المناهج العلميه للتحقيق ، مع استعمال المكملات الحديثة من تقديم النص الى القراء، ومن الحاق الفهارس التحليلية . يضاف الى ذلك أنه أول من أشاع ادخال علامات الترقيم الحديثـة فى المطبوعات العربيه ، وألف فى ذلك كتـابا سـماه « الترقيم فى اللغة العربية » طبع فى بولاق فى زمن مبكر جدا هو سنة ١٩١٣ وان كان يؤخذ عليه أنه كان يبالغ فى استعمال تلك العلامات ، ولا سيما فى الشعر الذى كان يختتم كل بيت مستقل فيه بنقطة يضعها فى نهايته .

ومن أوائل مطبوعات دار الكتب صـبح الأعشى للقلقشندى فى ١٤ مجلدا سـنة ١٩٢٠ بالمطبعـة الأميرية باسم دار الكتب . وتعـد هذه الطبعة هى الطبعة الثانية ، اذ طبع قبل ذلك فى مطبعة بولاق سنة ١٩٠٥ .

ثم نهاية الأرب الذى بدأت طبعـه محققا سنة ١٩٢٣ بمطبعتها .

وكانت الصيحة الداوية لدار الكتب تبنيها لطبع كتاب الأغانى لأبى الفرج باشراف القسم الأدبى الذى كان يرأسه المغفور له أحمد زكى العدوى بناء على اقتراح السيد على راتب الذى تكفل بنفقات طبعه ، وصدر الجزء الأول منه سنة ١٩٢٧ وحظى بعناية كاملة فى اعداد الأصول وصنع الفهارس التحليلية فى نهاية كل جزء من اجزائه ، واستمرت دار الكتب فى مهمتها تنشر موسوعات التراث ، ومنهـا النجوم الزاهرة وتفسير القرطبى ، ثم ضعفت العناية بهـذا القسم الى ان تولى الأستاذ أمين مرسى قنديل ادارة دار الكتب فقام بمجهود ضخم جدا لمسته بنفسى اذ حاول أن ينقذ هذا القسم من الفناء فدبت الحركة فيه ، وحاول أن يخلص كتاب الأغانى من ورطتـه التاريخية فعهد الى بعض العلماء باتمام ما بقى من أجزائه ، ولكن الظروف لم تسـعفه بتنفيذ فكرته النشيطة ، وكاد القسم الأدبى فى عهده أن يرتقى القمة فى نشر موسوعات التراث ، ولكن اطاحت بذلك فكرة خاطئة مغرضة تزعم أن ليس من وظائف دور الكتب فى أوربا أن تضطلع بنشر التراث ، وكأننا فى جميع خطواتنا انما نترسـم أوربا فى حقهـا وباطلها .

وفى أسف بالغ ودع المثقفون هذا القسم الأدبى الذى قضى على نشاطه بعد عهد أمين مرسى قنديل ـ أطال الله فى عمره ـ ولم يبق من أعلامه وعلمائه الا وشل يقوم باعادة طبع ما كان قد طبع من قبل .

وبعد الغاء هذا القسم جريمة لا تغتفر في حق احياء التراث العربي ، ويجب كل الوجوب أن يبعث ثانيا ليؤدي رسالته التي لا يستطيع أداءها غيره ، نظرا الى وفرة المراجع المخطوطة والمطبوعة ، وامكان تجنيد طائفة من العلماء واعداد جيل يتلقى فن التحقيق بوجه عملي في رحاب دار الكتب ، هذا الى اليسر الذي يجب أن تقدمه مطبعة دار الكتب لهذه الهيئة .

هيئات ومؤسسات نشر الكتب :

ومن أبرز هذه الهيئات :

المكتبة الميمنية :

أنشأها السيد أحمد البابي الحلبي المتوفى سنة ١٨٩٩ وتاريخ انشائها سنة ١٨٥٨ اي منذ أكثر من مائة عام . وكان منشيء هذه المكتبة عالما فاضلا له تقريرات على حاشية الشجاعي على شرح القطر لابن هشام . وهو عم مصطفى وعيسى وبكرى البابي الحلبي . وقد نشر طائفة من كتب التراث .

دار الكتب العربية الكبرى :

وبعد وفاته استمرت المكتبه باسم (دار الكتب العربيه الكبرى) وتولى ادارتها أبناء آخيه مصطفى وبكرى وعيسى وقتا طويلا . وظلت الدار واحدة حتى تفرعت في سنه ١٩٢٨ الى فرعين عرف أحدهما باسم (مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده) ، والآخر باسم (دار احيـــاء الكتب العربية) بادارة السيد عيسى البابي الحلبي .

مكتبة مصطفى البابي الحلبي :

ولها قسط وافر في احيـــاء التـــراث . ومن منشوراتها : رساله الشافعي بتحقيق الشيخ أحمد شاكر ، وسيرة ابن هشام بتحقيق السقا والابياري وشلبي ، والحيوان للجاحظ في سبعة مجلـــدات بتحقيق كاتب هذه السطور ، وعشرات اخرى من كتب التراث . ولا تزال تعنى بأداء رسالتها في هذه الزاويه الخطيرة .

دار احياء الكتب العربية :

ولها نشاط ظاهر ملموس في احياء التراث ، بل يكاد يكون هذا هو طابعها الغـالب . وفي عهـــد مديرها السـيد محمد عيسى الحلبي نشرت جمهـرة عظيمة من التراث ، منها المزهر للسيوطي ، وأمالي المرتضى ، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، وزهر الآداب للحصري ، والبرهـــان في علوم القـــرآن للزركشي ، والموشح للمرزباني ، ومقاييس اللغــة لابن فارس ، ووقعة صفين لنصر بن مزاحم ، وعدد آخر من كتب التراث يطول احصاؤه .

جمعية المعارف ١٨٦٨ م :

كونها محمد عارف باشا عضو مجلس الأحكام ، وقام ابراهيم المويلحي بانشاء مطبعة سماها باسم هذه الجمعية ، فكانت كتبها يطبع أغلبها في هذه المطبعة ، وبعضها في غيرها من المطابع . ولعل هذه الجمعية أول جمعية مساهمة لنشر الكتب ، وكان مقابل السهم فيها ثلاثين قرشا وعدد أسهمها ٣٠ ألف سهم . وقد نجحت في أداء مهمتها اذ نشرت طائفة من امهات الكتب ، منها أسد الغابة لابن الأثير في خمسة مجلدات ، وكتاب ألف باء للبلوى في مجلدين ، وتاج العروس شرح القاموس للسيد مرتضى الزبيدي في عشرة مجلـدات ، وتاريخ ابن الوردي في مجلدين(٦) .

المطبعة الكاثوليكية للآباء المرسلين اليسوعيين في بيروت :

وفي وقت مبكر ظهرت جهود الآباء اليسوعيين في بيروت ، اذ نشر كتاب النوادر في اللغة لأبي زيد الأنصاري، بتحقيق سعيد الخوري الشرتوني اللبناني سنة ١٨٩٤ وتهذيب الألفاظ للتبريزي بتحقيق الأب لويس شيخو سنة ١٨٩٥ واستمرت جهـــودهم في النشر زمنا ليس بالقصير . ولا تزال المطبعة الى وقتنا هذا تمارس نشاطها وتنشر كثيرا من تحقيقـــات المستشرقين .

شركة طبع الكتب العربية :

تكونت ســـنة ١٨٩٨ م وكان من أبرز أعضائها حسن عاصم ، وأحمد تيمور ، وعلي بهجت . ومما نشر فيها « الموجز » في فقه الشافعية ، وســـيرة صلاح الدين لابن شداد ، وهي المســـماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، وفتوح البلـــدان للبلاذري .

لجنة نشر المخصص سنة ١٩٠٢ :

وتكونت لجنة لنشر « المخصص » لابن سيده في ١٧ مجلدا ، وكان من أبرز أعضائها الشيخ محمـد عبده وكان مفتيا في ذلك الوقت ، وحسن عاصم ، وعبد الخالق ثروت الذي أصبح فيما بعد رئيسا للوزراء ، ومحمد النجاري . وقام بتصحيحه والتعليق عليه الامام الشنقيطي الكبير ، ونظر في أوله كذلك

(٦) أنظر تاريخ ابن الوردي ٢ : ٣٦٦ ـ ٣٦٨ لترى بعض أوجه نشاط هذه الجمعية :

الشيخ محمد عبده ، واستغرق طبعه ست سنوات . وهو كتاب جليل يحتاج الآن الى اعادة نشره مع اضافة الفهارس الفنية التى يتطلبها .

جمعية المستشرقين الالمانية بتركيا سنة ١٩١٨ :

ويرجع تاريخها الأول الى سنة ١٨٤٥ حيث أسست فى ألمانيا فى مدينه هاله ، ثم أنشأت فروعا لها فى الشرق ، أهمها فرع الآستانة سنة١٩١٨ تولى الاشراف عليه وتأسيس مكتبته المستشرق هلموت ريتر ، وقام مع غيره بنشر طائفة من كتب التراث الهامة ، منها مقالات الاسلاميين للأشعرى ، والوافى بالوفيات للصفدى بتحقيق ريتر ثم ديدرنج ، والمحتسب لابن جنى بتحقيق برجستراسر .

ثم فرع القاهرة الذى سمى بمعهد الآثار ، وكان يديره رويمر الذى حقق الجزء التاسع من كنز الدرر وجامع الغرر للداودى .

ثم معهد الدراسات الشرقية فى بيروت سنة ١٩٦٠ . ومن جهوده اعادة نشر الجزء الأول من الوافى بالوفيات للصفدى ، وطبقات المعتزلة بتحقيق السيدة فليتسر دى فالد من معهد استانبول ، وكتاب النحاة للمرزبانى بتحقيق سلايم من جامعة فرانكفورت .

مكتبة الخانجى :

وممن لهم يد طولى فى اذاعة التراث العربى السيد محمد أمين الخانجى ، وفيه يقول أحد أدبائنا : « وقل أن تجد عالما أو أديبا فى زمنه لم يكن لهذا الرجل النحيف الضئيل فضل عليه ، يذكره الذاكر محسنا فى ذكره ، وينساه الناسى مسيئا فى نسيانه . ذلك هو أمين الخانجى ، الذى احب الكتاب العربى كأنه تراث ابيه وأمه » (٧) .

وقد رأيت هذا الرجل فى صباى وعرفت فيه الاخلاص للعلم وحده اذ لم يكن المال عنده الا فى المرتبه الثانية ، كما لمست فيه التفانى فى نشر التراث العربى لا يكاد يعترف بغيره . وقد قدم الى قارىء العربية مجموعة ضخمه من كتب التراث ، يكفى أن نذكر منها معجم البلدان لياقوت ، وذيله عليه الذى سماه « منجم العمران » . وكذا حلية الأولياء لأبى نعيم ، وبدائع الصنائع فى ٧ مجلدات ، والاصابة لابن حجر فى ٨ مجلدات ، والعقد الفريد ، واللزوميات لأبى العلاء ، وجواهر الألفاظ لقدامة بن جعفر ، وتيسير الوصول الى جامع الوصول لابن الربيع الشيبانى وقد قام بتحقيقه والدى الشيخ محمد هارون رحمه الله .

(٧) مقدمة طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٥ .

ومن المعروف عنه أنه رحل الى العراق وغيرها من البلدان العربية ، وعاد من رحلته سنة ١٩٢٥ جامعا لنوادر المخطوطات التى لا يقدرها اثمن . وكان له ذوق مبكر فى منهج نشر الكتب وترقيمها واختيار الصالح منها للنشر ، وهو وان لم يكن العالم كل العالم فانه كان ذواقة لما يحتاج اليه المثقف العربى .

وبعد وفاته فى سنة ١٩٢٨ قام مقامه ولده محمد نجيب الخانجى وورث عنه الرغبة الملحه فى احياء التراث عن صدق لمسته فيه من طول صحبتى له . ومن منشوراته مما حققه كاتب هذه السطور البيان والتبيين للجاحظ ، والاشتقاق لابن دريد ، ورسائل الجاحظ ، ونوادر المخطوطات فى مجلدين وهى ٢٥ كتابا ورسالة . ومما حققه غيرى : صون المنطق ، وطبقات الصوفية للسلمى ، كما أسهم فى نشر الصلة ، وتكملة الصله ، وصلة الصله وغيرها .

المكتبة السلفية :

أنشأها الأستاذ محب الدين الخطيب ، وعبد الفتاح قتلان سنة ١٩٢٠ ثم استقل بها محب الدين الخطيب ونشر كثيرا من كتب السلف ، منها أدب الكاتب لابن قتيبه سنة ١٩٢٧ وقد اشتركت معه فى اخراجه وتتلمذت عليه فى ذلك الوقت حينما كنت طالبا فى تجهيزية دار العلوم ، فهو كان أستاذى الأول فى ذلك ـ مد الله فى حياته .

ومما نشره لأول مرة كتاب الميسر والقداح لابن قتيبه ، وصنع له فهارس فنية فى ذلك الوقت المبكر ، وكذا كتاب الموشح المرزبانى .

ونشر كذلك كتاب الملاحن لابن دريد ، والثلث الأول من كتاب خزانة الأدب ، وظهر هذا الثلث فى أربعة أجزاء بتحقيقى واضافه تعليقات لأحمد تيمور باشا وعبد العزيز الميمنى الراجكوتى . وكنت لا أزال اذ ذاك طالبا فى دار العلوم .

لجنة التأليف والترجمة والنشر :

وكانت نواتها طائفة من طلبة مدرسة المعلمين العليا ومدرسة الحقوق ، يقول فيهم الدكتور احمد أمين(٨) : « طائفة من الشباب تمتلىء نفوسهم غيرة على العالم الاسلامى ، ويطيلون التفكير فى وسائل اصلاحه والنهوض به ، ألف بين أفرادها الشعور بالألم من موقف الشرق وخموله ، والايمان بوجوب العمل على تنبيهه والأخذ بيده ورفع مستواه » . ومنهم أمين مرسى قنديل ، وعبد الحميد العبادى ، ومحمد بدران ، ومحمد صبرى أبو علم . وكان كل عضو منهم يسهم بعشرة قروش فى كل شهر ، ثم

(٨) انظر كتاب لجنة التأليف والترجمة والنشر فى عشرين عاما اصدار اللجنة سنة ١٩٣٤ .

جعل ثمن السهم جنيها واحدا . وتولى رياستها الأستاذ أحمد أمين فظهر نشاطها فى احياء التراث ، ونشرت السلوك للمقريزى بتحقيق الدكتور زيادة سنة ١٩٣٤ ثم المختار من شعر بشار للخالديين ، وغيره من نفائس التراث كالعقد الفريد ، ومعجم ما استعجم للبكرى بتحقيق مصطفى السقا ، وشرح الحماسة للمرزوقى بتحقيق عبد السلام هارون(٩) ٠

دار المعارف :

ولم تأخذ دورها فى احياء التراث بصفة الجدية الا فى سنة ١٩٤٢ حين فكرت أنا وأخى المغفور له الشيخ أحمد شاكر فى نشر مجموعات من عيون الشعر سميناها « ديوان العرب » ، وبدأنا فى نشر المفضليات ثم الأصمعيات ٠ ثم اقترحنا على دار المعارف أن تخصص نشرا منظما لعيون التراث العربى ، فسرعان ما استجابت لهذا الاقتراح ، وأذكر ان لم تخنى الذاكرة ان الدار قد أعلنت عن مسابقة لتسمية هذا المشروع ففاز به عنوان «ذخائر العرب» ، يشترك فى تحقيقها علماء الشرق والغرب ، وكان باكورة هذه المجموعه كتاب « مجالس ثعلب » فى مجلدين بتحقيق عبد السلام هارون ، واصلاح المنطق لابن السكيت بتحقيقه مع الشيخ أحمد شاكر ، والطبعة الأولى من « جمهرة أنساب العرب » لابن حزم تحقيق ا٠ ليفى بروفنسال E. Levi Provençal

وتوالى بعد ذلك نشر طائفة من تلك الذخائر التى بلغت الآن ٣٩ كتابا منها ما هو فى أكثر من عشرة مجلدات ٠

ولا تزال تلك المجموعة فى تزايد ونجاح مطرد وان كانت قد أبطأت دلاؤها فى الفترة الأخيرة ٠

جهود فرج الله زكى الكردى :

وقد أنشأ مطبعة سماها مطبعة كردستان العلمية بدأت نشاطها نحو سنة ١٩١١ ونشر طائفة من كتب التراث على منهج علمى مقارب ، منها كتاب تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ٠

جهود محمد منير الدمشقى :

وكان يميل الى نشر موسوعات التراث ، وقد نشر عمدة القارى للعينى ، وشرح المفصل لابن يعيش ، وتفسير الآلوسى ، والكامل فى التاريخ لابن الأثير وكثير غير ذلك ٠

---

(٩) من الخطا التاريخى أن ينسب تحقيقه الى الاشتراك بينى وبين الاستاذ أحمد أمين ٠ وانظر لذلك كلام الاستاذ أحمد أمين نفسه فى مقدمة ص ٥ وكلامى كذلك فى ص ٢٤ ٠

جهود حسام الدين القدسى :

وهو ناشر معاصر لا يزال يوالى نشاطه فى احياء التراث فى صورة مكافحة ، ويقوم الآن بنشر تاريخ الاسلام للذهبى الذى أخرج منه خمسة أجزاء ، ولو قد وجد عونا من أولى الأمر لأتم هذه المهمة الجليلة التى بدأها منذ عهد قديم ، ولكن الرجل مغمور مع أنه جدير بأن يلقى من التشجيع ما يمكنه من أداء رسالته ٠ ولقد سمعت أنه ينسخ الكتاب بنفسه ، ثم يجمع حروفه بيده ، ثم يصححه ، ثم يدفع به الى المطبعة(١٠) ، ويكفى ان نذكر من جهوده نشر شذرات الذهب لابن العماد ، والضوء اللامع للسخاوى ، ومجمع الزوائد للهيثمى ، وديوان المعانى للعسكرى ، واللباب فى تحرير الأنساب ، وذيول تذكرة الحفاظ ٠

جهود جامعة القاهرة :

ومن أقدم منشوراتها « الذخيرة » فى علم الطب لثابت بن قرة تحقيق جورجى صبحى سنة ١٩٢٨ ومنتخب جامع المفردات للغافقى تحقيق ماكس مايرهوف وجورجى صبحى سنه ١٩٣٢ ، ونقد النثر لقدامة تحقيق طه حسين والعبادى سنة ١٩٣٣ ، ورسائل فلسفيه للرازى تحقيق بول كراوس سنة ١٩٣٨ وبعض أجزاء من الذخيرة لابن بسام تحقيق عبده عزام ، وعبد العزيز الأهوانى ، وخليل عساكر وعبد القادر القط سنه ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ وكتاب الاصل للامام محمد بتحقيق شفيق شحاته سنة ١٩٥٤ والسير الكبير له تحقيق محمد أبو زهرة ومصطفى زيد سنة ١٩٥٨ ٠

المجمع اللغوى بالقاهرة :

أنشىء سنة ١٩٣٤ ولم تظهر له جهود فى احياء التراث العربى ، اللهم الا بعض اقتراحات نفذ بعضها فى خارج المجمع ، ومنها اعراب القرآن المنسوب الى الزجاج ، وتهذيب اللغة للأزهرى ، وكتاب سيبويه ٠ ومحاولة أخرى فريدة لتشجيع احياء التراث ، اذ أعلن فى سنه ١٩٤٩ عن مسابقة أدبية لمحققى التراث ، ظفر فيها كاتب هذه السطور بالجائزة الأولى للنشر والتحقيق العلمى عن كتابيه : (الحيوان للجاحظ) ، و (مجالس ثعلب) ٠ كما ظفر كتابان آخران بالجائزة الثانية ، هما (رسالة الغفران) ، و (كتاب البخلاء للجاحظ) ٠ ولم تكرر هذه المسابقة مرة أخرى ٠

---

(١٠) مما يسجل مشابها لهذا العمل ماقام به المستشرق الاسبانى قديره فرنسسكو مع زميليه اللذين قاما باخراج المكتبة الاندلسية نسخا وتحقيقا وجمعا وطبعا ٠

المجمع العلمي العربي بدمشق :

أنشيء سنة ١٩١٩ ونشر في مجلته بعض كتب التراث ، منها نشوار المحاضرة ، وبحر العـوام ، وديوان الوليد بن يزيد • كما قام بنشر كتب أخرى مستقلة ، منها رسالة الملائكة لأبى العلاء ، وديوان ابن عنين ، والأشربة لابن قتيبة ، وديوان على بن الجهم ، وديوان الوأواء ، وديوان ابن حيـوس ، وثلاثة أجزاء من الخريدة فى شعر الشام •

مديرية احياء التراث القديم بوزارة الثقافة والارشاد القومي بسوريا :

وقد بدأت نشاطها سنة ١٩٦٠ بنشر ديوان بشر بن أبى خازم الأسدى بتحقيق عزة حسن ، وكتاب المحكم فى نقط المصاحف لأبى عمرو الدانى بتحقيق عزة حسن أيضا •

المجمع العلمي العراقي :

وظهرت جهوده فى تقديم المساعدات المالية لنشر المخطوطات ، منها كتاب الديارات للشابستى الذى عنى بتحقيقه كوركيس عواد ونشر سـنة ١٩٥١ ، ورسوم دار الخلافة لأبى الحسين الصابى بتحقيق ميخائيل عواد سنة ١٩٦٤ ، وخريدة القصر (قسم العراق) •

مديرية الثقافة العامة بالعراق :

وقد بدأت العام الماضى بنشر (سلسـلة كتب التراث) ظهر منها : الدر النقى فى علم الموسيقى للقادرى الرفاعى الموصلى بتحقيق الشـيخ جلال الحنفى ، وديوان عدى بن زيد العبادى تحقيق وجمع محمد جبار المعيبد •

مكتبة المثنى ببغداد :

ولها جهد بارز فى اعادة طبع الكتب النادرة من تحقيقات المستشرقين والمحققين القدماء بطريقـة التصوير (الأوفست) ، ظهر منها أكثر من خمسين كتابا هاما ، منها : ديوان ذى الرمة ، وفهرست ابن خير ، والبدء والتـاريخ للبلخى ، والآثار البـاقية للبيرونى ، وأحسن التقاسيم للبشارى ، والمصاحف لابن أبى داود السجستانى •

وهذا الأسلوب ـ أعنى أسلوب الطباعة بالتصوير ـ مع فائدته العاجلة ، يخشى منه ان اسيء استخدامه أن يضع عقبة كأداء أمام من يحاولون اعادة تحقيق هذه الكتب على ضوء مخطوطات أخرى • وبذلك تجمد هذه الكتب على أوضاعهـا القديمـة التى قد تحتاج الى تعديل ، أو اعادة تحقيق • فالأمر فى سلامة وضعه موكول الى حسن استخدامه •

لذلك نوجه الدعوة الى جميع من يسيرون فى هذا التيار الخطير ـ ولا سيما اخواننا فى لبنـان ـ أن يكفكفوا من غلوائهم ، وأن يكون عملهم فى حدود ضيقة مبنية على دراسة علمية لا على تخطيط تجارى •

وانا أعلم ان السيد قاسم محمد الرجب صاحب مكتبة المثنى من خير من يستجيب لمثل هذه الدعوة •

المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة :

قام بنشر كثير من الكتب ، منها جامع ابن وهب، والجمانة فى ازالة السرطانة ، وطبقـات الحكماء والأطباء لابن جلجل ، وخطط المقريزى •

المعهد العلمي الفرنسي بدمشق :

قام كذلك بنشر بعض الكتب ، منها كتاب تعبير الرؤيا لحنين بن اسحاق، وكتاب التوابين لابن قدامة المقدسى ، والمعتمد فى أصول الفقه لأبى الحسين محمد بن على البصرى المعتزلى ، وزبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم ، وكثير غيرها •

دائرة المطبوعات والنشر بالكويت :

أصدرت وتصدر سلسلة عنوانهـا « التـراث العربى » • وقد بدأت نشاطها سنة ١٩٥٩ فأصدرت مجموعة من روائع التراث ، منها المصون لأبى أحمد العسكرى ، ومجالس العلمـاء للزجاجى وديوان لبيد • ولعل اقوى أعمالها نشر تاج العروس للزبيدى محققا بعناية علماء مختصين تراجعه لجنة فنية من وزارة الارشاد والأنباء بالكويت ، وسيظهر فى نحو خمسين جزءا •

المجلس الأعلى للشـئون الاسـلامية بوزارة الأوقاف :

تسهم لجنة احياء التراث التابعة له فى نشر طائفة من الكتب ، منها تحرير التحبـير لابن أبى الاصبع ، والمقتضب للمبرد ، وبصائر ذوى التمييز، وغيرها •

ادارة احياء التراث بوزارة التربية والتعليم :

وقد قامت منذ عهد بنشر ديوان أسامة بن منقذ ، ورفع الاصر لابن حجر ، وتحفة القـادم ، والأيام والليالى والشهور للفراء •

ادارة احياء التراث بوزارة الثقافة والارشاد :

فى سنة ١٩٥٨ ضمت الادارة السالفة الى الادارة التى أنشئت بوزارة الثقافة والارشاد • وقامت بنشر بعض الكتب ، منها الشفاء لابن سينا ، وطيف الخيال للشريف المرتضى ، والفاخر المفضل بن سـلمة ،

والمسلسل فى غريب اللغة لابى الطيب ، والمعارف لابن قتيبة وذلك فى سلسلة (تراثنا) ٠

ادارة التأليف والترجمة والنشر :

ثم ضمت الادارة السابقة الى المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ، ثم انتقلت الى شركة الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ، وخصصت ادارة فيها لاحياء التراث ، فقامت بنشر طائفة من الكتب ، منها تهذيب اللغة للأزهرى ، والمحكم لابن سيده ، وتبصير المنتبه والمغنى القاضى عبد الجبار ، كما عملت على اعادة طبع بعض الموسوعات التى نشرتها دار الكتب قديما كالأغانى ، والنجوم الزاهرة ، ونهاية الأرب ، وصبح الأعشى ٠ وهى الآن بصدد تكملة ما لم يتم من تلك الموسوعات ، وهى الأجزاء الباقية من الأغانى ونهاية الأرب ، والنجوم الزاهرة٠ كما أنها أعادت طبع نسخة لسان العرب مصورة عن طبعة بولاق ، ومذيلة بفهارس فنية حديثة ، ولكن هذا الجهد النافع وان يكن معيبا بأنه ينقصه التحقيق العلمى والمراجعة على نسخة ابن منظور المودعة فى دار الكتب ، فانه يدرأ الآن خطر الفراغ الثقافى الذى يشعر به الباحثون اللغويون ، ولكنه لا يعفى المسئولين من وجوب اعادة نشر اللسان فيما بعد محققا تحقيقا علميا ، ومراجعا على الأقل على نسخة المؤلف ٠

المجلس الأعلى للفنون والآداب :

يحاول جاهدا أن يتبنى نشر طائفة من كتب التراث ، ولديه ثبت بمشروعات لم ينفذ منها الا القليل ٠ ومما صنعه اعادة طبع آثار أبى العلاء المعرى ، المتمثلة فى شروح سقط الزند (خمسة مجلدات) ، وتعريف القدماء بأبى العلاء ، وهذه الآثار قام بتحقيقها منذ سنة ١٩٤٤ لجنة احياء آثار أبى العلاء ، المؤلفة من مصطفى السقا ، وعبد الرحيم محمود ، وعبد السلام هارون ، وابراهيم الابيارى ، وحامد عبد المجيد ، باشراف الأستاذ الدكتور طه حسين ، وانتهت من مهمتها سنة ١٩٤٨ ووقف مجهود تلك اللجنة عند هذا الحد مع أنه قد بقى شىء غير قليل من آثار أبى العلاء ، والمأمول من المجلس الأعلى أن يتابع تكملة آثار أبى العلاء بتأليف لجنة أخرى شابة تستطيع أن تستوعب تحقيق ما بقى من ذلك التراث ، وتمنحها التفرغ الذى كان متاحا للجنة الأولى ، والفرصة العلمية التى اختارت دار الكتب بين المخطوطات والمراجع مقرا لها للتمكن من أداء عملها على الوجه الأوفق ٠

ومن المجهودات التى تسجل لهذا المجلس اعادة طبع ديوان زهير ، وديوان الهذليين ، والأصنام لابن الكلبى ٠ ونحن نخشى أن يستمرىء المجلس هذه الطريقة الميسورة فيظل يعيد طبع ما نشر من قبل وتقتصر جهوده على هذا العمل الهين اليسير ٠

دار القلم :

وقد شعر مديرها محمد المعلم بضرورة استكمال صور النشاط العلمى للدار فى أعلى مجال لها ، وهو مجال تحقيق التراث ، فبدأ بطبع كتاب (سيبويه) ، الذى ظهر منه الجزء الأول من أربعة أجزاء محققا بعناية كاتب هذه السطور ٠ وكذلك شرع فى طبع موسوعة (خزانة الأدب) للبغدادى ، التى تظهر فى ١٢ جزءا متضمنة للفهارس الفنية ٠ كما أن دار القلم قد أسهمت فى تنفيذ اعادة طبع بعض كتب دار الكتب كالأغانى وعيون الأخبار وتفسير القرطبى ٠ وقد علمت أيضا أنها بصدد نشر طائفة من كتب التراث اليمنى الذى لم يسبق طبعه من قبل بمشاركة فروعها التى أنشأتها فى الجمهورية اليمنية ٠

المؤسسة العربية الحديثة :

وقد بدأت منذ عهد قريب فى نشر بعض كتب التراث ، ويؤمن صاحبها حمدى سيد مصطفى بضرورة الاسهام فى هذه الناحية ، وقد نشر منها أمالى الزجاجى ووقعة صفين ، وجمهرة الأمثال للعسكرى ٠ وقد وضع برنامجا طويلا لتنفيذ نشر بعض كتب التراث لولا أزمة الورق الساحقة التى يئن تحت وطأتها الناشرون ٠

صحيفة الجمهورية :

وتحاول صحيفة الجمهورية فى أسلوب ميسر — وان يكن غير علمى سليم — أن تقرب كتب التراث الى جمهرة الشعب ، وهو مجهود يشكر وان كان لا يساير أصول التحقيق العلمى ، فكيف تنشر كتاب تجريد الأغانى لابن واصل ، ثم تضع عليه عنوان « كتاب الأغانى » ؟! ومع ذلك لا ينكر لها فضلها فى نشر (كتاب الشعب) الذى ظهر منه صحيح البخارى، وصحيح مسلم ، وأساس البلاغة ، وحياة الحيوان للدميرى ، وغير ذلك ٠ لكن هذه المجهودات كلها محتاجة الى رقابة علمية صارمة ٠

دار العروبة :

وهى الآن فرع من فروع الدار القومية، وقد بدأت فى سنة ١٩٥٩ فى مشروع لاحياء التراث العربى سمته « كنوز العرب » قياسا على تسمية « ذخائر العرب » لدار المعارف ، وبدأت تلك السلسلة بكتاب (الايضاح فى علل النحو للزجاجى) بتحقيق مازن المبارك ومشروع آخر سمته « كنوز الشعر » نشرت فيه (شرح أشعار الهذليين) بتحقيق عبد الستار فراج ٠

وعسى أن تتابع الدار القومية الاستمرار فى هاتين السلسلتين اللتين بداهما أصحابها الأولون ·

دار الثقافة ببيروت :

لها سلسلة المخطوطات العربيه ، وبين يدى منها (أشعار الحسين بن الضحاك) جمع وتحقيق عبد الستار فراج ·

دار المعـارف للتأليف والترجمـــة والنشر بالعراق :

ويبدو أنها قد راقتها فكرة « نوادر المخطوطات » التى قمت بنشرها من سنة ١٩٥١ الى سنة ١٩٥٥ فشرعت فى نشر مجموعه مماثلة لتلك سمتها « نفائس المخطوطات » ابتدأت فى نشرها سنه ١٩٥٣ الى سنة ١٩٥٥ ونشرت ١٨ كتابا ورسالة منها كتـاب « الأضداد فى اللغة » لابن الدهان النحوى ، وديوان السموأل صنعة نفطويه ، وديوان أبى الأسود الدؤلى · والمجموعه كلها بتحقيق الشيخ محمـــد حسن آل ياسين ·

عود الى دار الكتب وأثرها :

ولقد كان للطابع المتميز الذى ظهرت به منشورات دار الكتب أثر بالغ فى اقتداء بعض الأفراد العلماء بذلك النهج السديد · ولقد أدركت عصرا طويلا بعد وفاة أحمد زكى باشا الى سنة ١٩٣٨ لم يكن فيه فى مصر من العلماء من يضع اسمه على كتاب محقق الا (جماعة محدودة لا تكاد تعدهم أصـــابع اليدين) ، وهم سبعة على وجه التحديد : محب الدين الخطيب ، أحمد شاكر ، عبد السلام هارون ، محمد مصطفى زيادة ، مصطفى السقا ، ابراهيم الأبيـارى ، عبد الحفيظ شلبى · والأخيران من هذه الجماعة كانا ممن تمرس بالقسم الأدبى بدار الكتب · فكان القسم الأدبى مدرسة مباشرة وغير مباشرة لكل من مارس التحقيق العلمى من بعد ذلك ·

وعلى ضوء مجهودات هذا القسم ومجهودات هذه الجماعة الأولى للمحققين ، وجدنا ثبت أسماء المحققين يزداد يوما بعد يوم ، حتى أصبحوا الآن لا يعدون كثرة فى مصر وفى أنحاء العالم العربى ، نعرف منهم الأسماء التالية مقرونة بذكر أبرز أعمالهم ، ومنهـم من حقق أكثر من عشرين كتابا ، ومعظمهم ممن نشر أكثر من كتاب :

فى مصر :

ابراهيم مصطفى (المنصف ، لابن جنى) بالمشاركة
احمد احمد بدوى (ديوان القاضى الفاضل)
أحمد أمين (رسالة حى بن يقظان)
أحمد يوسف نجاتى (المنهل الصافى ، لابن تغرى بردى)
ثروت عكاشه (المعارف ، لابن قتيبة)
جمال الدين الشيال (مفـــرج الكروب ، لابن واصل)
حامد عبد المجيد (رفع الاصر عن قضاة مصر ، لابن حجر)
حسن كامل الصيرفى (ديوان البحترى)
حسين نصار (ديوان سراقة البارقى)
خليل عساكر (تشحيذ الأذهان برحلة بلاد العرب والسودان ، لمحمد بن عمر التونسى)
زكى حسن (المغرب لابن سعيد) بالاشتراك مع غيره ·
السيد أحمد صقر (اعجاز القرآن ، للباقلانى)
سليمان دنيا (تهافت الفلاسفة ، للغزالى)
شوقى ضيف (المغرب ، لابن سعيد)
طه الحاجرى (البخلاء)
طه حسين (اشراف ومشـــاركه فى نشر لزوم ما لا يلزم)
عائشة عبد الرحمن ، بنت الشاطىء (رســالة الغفران لأبى العلاء المعرى)
عبد الحليم النجـــار (المحتسب ، لابن جنى) بالمشاركة
عبد الخالق عضيمة (المقتضب ، للمبرد)
عبد الرحمن بدوى (الاشارات الالهية ، لأبى حيان التوحيدى)
عبد الستار فراج (شرح أشـــعار الهـذليين للسكرى)
عبد العزيز أحمـــد (التصحيف والتحريف ، للعسكرى)
عبد العزيز الأهوانى (المقتطف من أزاهير الطرف ، لابن سعيد المغربى)
عبد العزيز مطر (تثقيف اللســـان لأبى حفص الصقلى)
عبد العليم الطحاوى (الفاخر ، للمفضل بن سلمة)
عبد الفتاح الحلو (التمثيل والمحاضرة ، للثعالبى)
عبد الفتاح شلبى (الابانة ، لمكى بن أبى طالب) ·
عبد القادر القط (الذخيرة لابن بسام) بالمشاركه
عبد الله أمين (المنصف ، لابن جنى) بالمشاركة
عبد الوهاب عـــزام (الورقة ، لابن الجراح) بالمشاركة

أبو العلا عفيفى (نصوص الحكم ، لابن عربى)
على سامى النشار (ديوان أبى الحسن الششترى)
على عبد العظيم (ديوان ابن زيدون)
على عبد الواحد وافى (مقدمه ابن خلدون)
على محمد البجاوى (زهر الآداب ، للحصرى)
فؤاد سيد (طبقات فقهاء اليمن ، لابن سمرة الجعدى)
محمد أبو الفضل ابراهيم (انباه الرواة، للقفطى)
محمد حفنى شرف (تحرير التحبير ، لابن أبى الاصبع)
محمد خلف الله أحمد (ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن للرمانى والخطابى والجرجانى) بالاشتراك
محمد زغلول سلام (ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن للرمانى والخطابى والجرجانى) بالاشتراك
محمد عبد الجواد (شجر الدر ، لأبى الطيب اللغوى)
محمد عبد الغنى حسن (حلية الفرسان ، لابن هذيل الأندلسى)
محمد عبد الله عنان (الاحاطة فى اخبار غرناطة ، للسان الدين بن الخطيب)
محمد عبده عزام (ديوان أبى تمام)
محمد على النجار (الخصائص ، لابن جنى)
محمد محيى الدين عبد الحميد (شرح الحماسة للتبريزى)
محمد مصطفى (بدائع الزهور ، لابن اياس)
محمد مصطفى هدارة (سرقات أبى نواس ، لمهلهل بن يموت)
محمود الطناحى (النهاية ، لابن الأثير)
محمود محمد شاكر (طبقات فحول الشعراء ، لابن سلام)

فى سوريا :

ابراهيم الكيلانى (الصداقة والصديق لأبى حيان)
أحمد راتب النفاخ (ديوان ابن الدمينة)
خليل مردم (ديوان ابن عنين)
سامى الدهان (ديوان أبى فراس)
سعيد الأفغانى (شرح الأبيات المشكلة الاعراب، للحسن بن أسد الفارقى)
شكرى فيصل (الخريدة : قسم الشام)
صالح الأشتر (أخبار البحترى ، للصولى)
صلاح الدين المنجد (السير الكبير ، للسرخسي)

عبد الكريم الأشتر (ديوان دعبل)
عز الدين التنوخى (الاتباع والمزاوجة ، لأبى الطيب اللغوى)
عزت حسن (ديوان تميم بن مقبل)
محمد اسعد طلس (ديوان ابن أبى حصينة)
محمد كرد على (الأشربة ، لابن قتيبة)

فى فلسطين :

محمد يوسف نجم (ديوان أوس بن حجر)
احسان عباس (ديوان لبيد)

فى الأردن :

ناصر الدين الأسد (ديوان قيس بن الخطيم)

فى العراق :

أحمد مطلوب (التبيان فى اعجاز البيان ، لابن الزملكانى)
أحمد ناجى القيسى (شرح اشعار هذيل ، لابن جنى)
خضر الطائى (ديوان العرجى) بالمشاركة
خليل ابراهيم العطية (ديوان مزرد بن ضرار)
رشيد الصفار (ديوان الشريف المرتضى)
رشيد العبيدى (ديوان العرجى) بالمشاركة
عاتكة الخزرجية (ديوان العباس بن الأحنف)
كوركيس عواد (الديارات للشابشتى)
محمد بهجة الأثرى (الخريدة : قسم العراق)
محمد جبار المعيبد (ديوان عدى بن زيد العبادى)
محمد حسن آل ياسين (نفائس المخطوطات) ١٥ كتابا ورسالة
مصطفى جواد (تلخيص مجمع الآداب ، لابن الفوطى)
ميخائيل عواد (رسوم دار الخلافة)

فى السعودية :

أحمد عبد الغفور عطار (صحاح الجوهرى) بالمشاركة
حمد الجاسر (تعقيبات واستدراكات لطائفة من كتب التراث)

فى اليمن :

القاضى محمد الأكوع (قرة العيون ، فى تاريخ اليمن الميمون ، لابن الديبع)

فى ليبيا :

طاهر بن أحمد الزاوى (التـذكار فيمن ملـك طرابلس وما كان بها من الأخبار ، لابن غلبون)

فى تونس :

حسن حسنى عبد الوهاب (رحلة التيجانى)

الطاهر بن عاشور (ديوان بشار بن برد)

فى الجزائر :

محمد بن شنب (الجمل للزجاجى)

فى المغرب :

عبد الله جنون (اخبار الملوك الشرفا ، للمراكشى)

علال الفاسى (الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون)

محمد بن تاويت الطنجى (التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا)

فى السودان :

عبد الله الطيب (شرح أربع قصائد لذى الرمة)

فى ايران :

محمد غفرانى الخراسانى (الأدب الوجيز ، المولد الصغير ، لابن المقفع)

فى الهند وباكستان :

السيد محمد يوسف (حماسة الخالديين)

عبد الحق المدراسى (ديوان ابن سناء الملك)

عبد العزيز الميمنى الراجكونى (سمط اللآلىء ، لأبى عبيد البكرى)

عبد القدوس الأنصارى (تلخيص مجمع الآداب ، لابن الفوطى)

محمد بدر الدين العلوى (المختار من شعر بشار للخالديين مع شرحه لأبى الطاهر التجيبى)

محمد حميد الله (أنساب الأشراف ، للبلاذرى)

يوسف حسين (الاختياران ، للأصمعى)

فى تركيا :

فؤاد سزكين (مجاز القرآن لأبى عبيدة)

استمرار جهود المستشرقين :

والى جانب هذه الجهود العربية والشرقية ، لا نزال نلمس صنيع اخواننا المستشرقين المعاصرين فى خدمة التراث العربى ، ونذكر من أفاضلهم — وهم كثيرون :

١ — أ. ليفى. بروفنسال الفرنسى (توفى سنة ١٩٥٦) . حقق طائفة من الكتب من ألمعها (كتاب نسب قريش لمصعب الزبيرى)

٢ — أمبرتو رتزيتانو الايطالى (ديوان الفنلوبى الصقلى)

٣ — انس خالدوف الروسى (المنـازل والديار لأسامة بن منقذ)

٤ — أوسكار لوفجرين السويدى (الاكليـل للهمدانى ج ١ ، ٢)

٥ — ايفان فاجنر الألمانى (ديوان أبى نواس)

٦ — الآنسة ايلـزة ليختن شـتيتر الأمريكية (كتاب المحبر لابن حبيب)

٧ — شارل بلاث الفرنسى ، له نشاط ظاهر فى نشر كتب للجاحظ ، منها (البغـال) ، و (التربيع والتدوير) ، و (الجـوارى والغلمان)

٨ — شارل كونيس الفرنسى ، يقوم الآن بتحقيق (كتاب الجيم لأبى عمرو الشيبانى)

٩ — كراتشكوفسكى الروسى ، المتوفى سـنة ١٩٥١ له ما يربو على أربعمـائة وخمسين أثرا بين مصنف ومترجم ومفسر ومنقـود باللغات الروسـية والفرنسـية والألمانية والعربية ، ومن تحقيقاته (الأخبار الطوال للدينورى) ، و (طبقـات الشعراء لابن المعتز) ، و (كتاب البديع لابن المعتز)

١٠— الأب هوبن الهولندى ، له (المجموع المحيط بالتكليف ، للقاضى عبد الجبار)

أثر النقد فى استقامة منهج تحقيق التراث :

ان متابعة النقد لما يظهر محققا من كتب التراث كانت ذات أثر فعال فى تقويم منهج النشر . وهنا أنوه بالجهد البارع الذى بذلته الاستاذة الدكتورة عائشة عبد الرحمن فى نقد طائفـة كبيرة من منشـورات

التراث نقدا منهجيا وموضوعيا وتوجيهيا ، اضمحل على اثره ذلك العبث الذى كان يمارسه بعض ناشرى التراث .

كما أنوه بجهد الأساتذة : حمد الجاسر ، والسيد صقر ، ومحمد عبد الغنى حسن ، وشوقى ضيف ، وعبد الستار فراج ، وعبد العزيز مطر ، وعبدالفتاح الحلو ، ومصطفى جواد ، ومحمد جبار المعيبد وغيرهم .

ولست أنسى أن أحيى ذكرى كل من الأب أنستاس مارى الكرملى ، والدكتور بشر فارس اللذين كانت لهما مشاركة فعالة فى هذه الناحية .

ولئلاأغمط نفسى حقها أذكر أن كاتب هذه السطور كانت له جولات طويلة فى هذه الحركة النقدية التى لا بد من استمرارها للاسهام فى تقويم الأخطاء والمناهج المنحرفة ، والرقابة الواجبة للحفاظ على هذه الأمانة الغالية .

كلمة أخيرة :

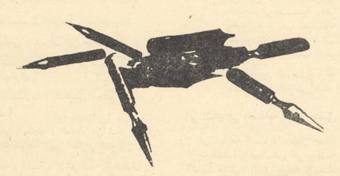
هذه صورة موجزة جدا لتلك الحركة الدائبة التى لا تزال تخدم التراث العربى ، وتحاول مجتمعة حينا ومفترقة أحيانا أن تنبش كنوز هذا التراث العربى الاسلامى الخالد ، وتستخرج اللؤلؤ من أصدافه .

ولا يزال محققو التراث ، وهم المجاهدون المكافحون حقا ، فى حاجة ملحة الى تيسير مهمتهم الشاقة الناصبة . فانى أعلم تمام العلم وقد مارست هذا الفن أكثر من أربعين عاما متتالية ، انتكثت فيها بالخبرة والمعالجة من تأليف أول كتاب عربى فى هذا الفن ، وهو (تحقيق النصوص ونشرها) ، أقول : أنى أعلم مقدار الصعوبات التى تكتنف هذا الجهاد المضنى من عنت بعض الناشرين ، وعنت بعض الهيئات الرسمية وشبه الرسمية ، ومن صعوبة الحصول على المخطوطات ، أو مصوراتها التى ترهق تكاليفها هذه الطائفة المستبسلة ، كما ترهقهم اجراءات الحصول عليها من ندرة ورق التصوير وأفلامه ومضاعفة أثمان ذلك الى أربعة أضعاف ما كان عليه الى وقت قريب جدا ، هذا الى العقبات الشديدة التى تعترض سبيل النشر من أزمات المطابع وندرة ورق الطبع وأدواته .

وهذا أمر جدير بأن يجد من أولى الأمر عناية عاجلة ، تزيل شكوى المحققين الذين جندوا أنفسهم فى هذا الميدان طوعا ، لخدمة العروبة التى هى الرباط الأسمى بين الشعوب العربية ، ولمحاولة التحرر من اسار الاستعمار الثقافى الذى لا تزال بقايا منه جاثمة على عقول بعض المفتونين بالأفكار المستوردة من خارج الاطار العربى الأصيل .

وان هناك أمورا أخرى لا يجد العلماء المحققون مجالا لبسطها والافصاح عنها الا عند كبار المسئولين ، فان هناك أخطاء واساءات صارخة تجافى الذوق ، يتعرض لها هؤلاء السادة من أولئك الذين لا يحسنون تقدير العلماء . وان هناك هضما ظالما لحقوق النشر فى كبريات دور النشر ، ومنها (دار المعارف) ، (ادارة التأليف والترجمة والنشر) . وهناك أيضا مشكلة الضرائب التى يأمل فى حلها المحققون والمؤلفون .

وانى اذ أهدى هذا **البحث التاريخى الذى يصور** هذه الناحية الثقافية الخطيرة الى الأستاذ الجليل وزير الثقافة (الدكتور سليمان حزين) ، وأنا أعلم عنه الكثير من الاهتمام بأمورنا الثقافية — أرجو أن يولى هذا الأمر الخطير ما هو جدير به من علاج سريع يتيح لتلك الانطلاقة العارمة أن تجد مجراها مذللا ميسرا ، محفوفا بالاعزاز والتقدير ، فقد كاد غيرنا ممن لا يحسن هذا الأمر أن يحتل مكاننا هذا المرموق ، وأن ينتزع منا مجدا بنيناه بالكفاح الصادق ، والجهاد الطويل .



وظيفة اللغة في مجتمعنا المعاصر

بقلم دكتور تمام حسان

يصعب على العلماء أحيانا أن يعرفوا بعض المفاهيم العامة في فروع تخصصهم على رغم فهمهم فهما تاما لما قد يكون لها من مظاهر وماقد يحدث عنها من آثار . فعالم الكهرباء يستطيع أن يسيطر على استخدامها وأن يولدها ويحول مسراها من خط الى خط ويحول مظهرها الى ضوء أو الى حركة أو الى صوت أو غير ذلك . ولكنك اذا طلبت اليه أن يعرف الكهرباء تعريفا منطقيا جامعا مانعا ما استطاع وماكان له أن يستطيع بسبب طبيعة الكهرباء أولا وبسبب مايقتضيه تركيب التعريف بعد ذلك – ومثل ذلك يقال عن النفس بالنسبة لعالم النفس والحياة بالنسبة لعالم الحياة وهلم جرا . فما مقدرة العلماء على تعريف اللغة وتحديد وظائفها العملية بالنسبة الى المجتمع؟ هل استطاع العلماء أن يعرفوا اللغة بماهيتها ، أو أنهم لجأوا الى تعريفها بذكر وظائفها عند تعذر تحديد الماهية ؟

●

من الواضح أننا اذا أردنا أن نعرف اللغة بتحديد ماهيتها فلابد أن نجد ذلك في منتهى الصعوبة ولو تحقق لنا الوصول الى تعريفها – وما أظنه ميسرا – فسنجد أننا قد انتهينا الى نص لا يمكن أن يكون تعريفا أبدا ، وان تعدد مظاهر اللغة من صوتية الى كتابية الى اشارية حركية الى اشارية ضوئية الى لغة باللمس على طريقة المكفوفين الى غير ذلك – لا بد أن يفرض على نص التعريف الذى نحاوله أن يطول حتى لا يعود تعريفا ، اذ يصبح وصفا مسهبا لعدة أمور يسمى كل منها « لغة » ويبقى بعد ذلك أن يلجأ العلماء الى تعريف اللغة ببيان وظيفتها . وقد قال بعضهم في محاولة التعريف أن اللغة وسيلة لايضاح الأفكار ، وقد رد تاليران على ذلك بأن اللغة وسيلة لاخفاء الأفكار لا لايضاحها ، وقال آخرون ان اللغة وسيلة للتعبير وقد رد على ذلك بأن المرء قد يتكلم الى نفسه أحيانا حين لا يكون بحاجة الى التعببير عن أفكاره اذ يكون قد عرفها فعلا وأدركها ادراكا أعمق مما تستطيع كلماته أن تعبر عنه . وقال بعضهم أن اللغة افراز حركى ضرورى للفرد صالح لأن يكيف بالكيفيات الاجتماعية وبهذا يمكننا أن نفسر كلام المرء الى نفسه وكلامه الى صاحبه .

والحقيقة أن اللغة في عمومها ذات وظيفة هامة جدا يمكن أن نلخصها في أمرين :

١ – أمر فردى هو قضاء حاجات الفرد في المجتمع .

٢ – أمر اجتماعى خالص هو تهيئة الوضع المناسب لتكوين مجتمع وحياة اجتماعية .

فأما بالنسبة للشق الأول من وظيفة اللغة فواضح أن طبيعة التخصص تبدو في وظيفة كل فرد بحيث

لا يمكن أن يكون خبازا ونساجا وحدادا ونجارا وزارعا وصيادا فى وقت واحد. ولقد كان على الفرد من هنا أن يعتمد فى أموره على غيره من أصحاب هذه المهن وان يتصل بهم لقضاء حاجاته ولا سبيل الى هذا الاتصال ولا الى قضاء الحاجات الا بواسطة التفاهم ولابد للتفاهم من لغة ولو راقب المرء نفسه يوما واحدا فى حقل الاستعمال اللغوى لرأى كيف يعتمد وجوده الى حد كبير على وجود اللغة بل ان مصالحه قد تتوقف أحيانا على حسن استخدامه اياها لا على مجرد الاستخدام .

وأما الشق الثانى من وظيفة اللغة وهو تهيئة الوضع المناسب لتكوين مجتمع وحياة اجتماعية فان اللغة أصل وجذر لكل ما يمكن أن نتصوره من عوامل تكوين المجتمع كالتاريخ المشترك والدين المشترك والأدب المشترك والفكر والاحساس والارادة والعمل المشترك اذ لا يقوم شىء من ذلك بدون اللغة وكيف يمكن تصور تاريخ بلا لغة أو دين بلا لغة أو أدب بلا لغة أو فكر بدونها أو احساس لا يترجم عنه بها بعد أن يتم تكوينه بواسطتها أو ارادة تقوم بغيرها أو عمل يتحقق بعيدا عنها . ان الشركة فى كل أولئك هى الحياة الاجتماعية ولا تتم هذه الشركة بدون اللغة .

تلك وظيفة اللغة فى عمومها أى وظيفة كل لغة على وجه الأرض . ويبقى بعد ذلك أن ننظر الى وظيفة اللغة العربية فى مجتمعنا العربى المعاصر وسنجد ان ما قدمنا من تحديد وظيفة اللغة بصفة عامة لابد أن يخضع للكثير من التفصيل .

●

قلنا ان من وظيفة اللغة بصفة عامة تكوين المجتمع بايجاد الشركة بين أفراده فى الفكر والاحساس والارادة والعمل . واللغة العربية كذلك تخلق هذه العناصر الرابطة بين أفراد المجتمع فتجعل كل فرد فى مجتمعنا هذا يحس بالانتماء الى هذا المجتمع لا فى صورته الحاضرة فحسب ، بل ان جذور وجوده تضرب بعمق فى أغوار الماضى الاجتماعى السحيق ويظهر ارتباطه بالماضى ظهورا خاصا فى طاعته للعادات والتقاليد الموروثة وفى انفعاله بالأدب القديم واعتزازه به وفى نشوته التى يحس بها عند مطالعة تاريخ العرب القدماء وهلم جرا . ولولا هذا الارتباط بالماضى ما صح أن يكون للمجتمع استمرار تاريخى على مر العصور . وسنحاول فى الفقرات الآتية وفى ضوء هذه الحقيقة السابقة أن نرى وظيفة اللغة فى السياسة الداخلية وفى ادارة الاقتصاد الوطنى وفى الحياة اليومية العامة .

جاءت الثورة الى مسرح حياتنا المصرية والمجتمع طبقات تحكمها علاقة التنازع وتبادل الشك والموجدة وكان موضوع هذا التنازع هو الثروة القومية وما يترتب على توزيعها من قدرة أو عجز على ممارسة الحقوق السياسية للفرد كما كفلها الدستور كفالة نظرية . بل ان الدستور والقانون كليهما لم يخلوا من تمييز الأغنياء على الفقراء فى حق الترشيح وتولى الوظائف العامة وذلك بالاصرار على فكرة النصاب عند الترشيح . ثم برزت الثورة على المسرح الوطنى فوجدت هذه التركة التنازعية بين الطبقات فكان لابد للنظام الاشتراكى الثورى الجديد أن يتصدى لعلاج هذه الظاهرة . جعلت الثورة من همها اذابة الفوارق بين الطبقات من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية على السواء ، ووجدت أن خير طريق الى انهاء التنازع الطبقى أن يحل محله الحل الاشتراكى الحتمى السلمى وألغت اعتبار النصاب فى التمثيل النيابى والوظائف العامة . ولكن أهم اتجاه ثورى فى هذا الطريق كان اتجاه الثورة الى أن تحل محل التفكك الاجتماعى الذى أنتجه التنازع الطبقى مجتمعا مركبا عضويا متكاملا أشبه مايكون بالكائن الحى ذى الأعضاء والخلايا . والأعضاء فى المجتمع الاشتراكى هى الهيئات والمؤسسات على حين نرى الخلايا هى الافراد . وكما أن الطبيعة جعلت أعضاء الجسم الحى متكاملة يؤدى كل منها وظيفة غير وظيفة الآخر ولكنها ضرورية لها ، كذلك تقوم المؤسسات والهيئات فى المجتمع الاشتراكى بنفس الدور وكما أن العضو الحى يعتمد فى وجوده على دوام أعضائه لا على دوام خلاياه بمعنى أنه يفرز الخلايا التالفة ولايتأثر بتلفها كذلك يتوقف المجتمع الاشتراكى على هيئاته ومؤسساته ولايتوقف وجوده على وجود الفرد الواحد وكما تقوم الخلية بدورها فى بناء الجسم يقود الفرد بدوره فى بناء المجتمع . وأحسن مايكون الفرد أداء لهذا الدور حين يكون عالما به محيطا بملابساته وأعبائه . وهنا يأتى دور اللغة فى التوعية والتوجيه اذ تصبح الأداة الأولى والأخيرة فى خدمة الغايات الوطنية . فهى أداة تبصير الفرد بحقوقه وواجباته كما هى أداة ارشاده الى أن يكون مواطنا صالحا . فاللغة هنا تقوم بدور لا سبيل الى المبالغة فى أهميته .

وليس أقل من ذلك خطرا ماتقوم به اللغة من توحيد الفكر والاحساس والارادة والعمل بين أفراد الشعب بعضهم وبعض وبين بعض الهيئات وبعضها الآخر بحيث يصلون معا بالفكر الى فهم حاجات المجتمع وطريق تقدمه ويصلون معا بالوجدان الى الاحساس بآمال المجتمع وآلامه ثم يصلون معا بالتصميم الى ارادة ماتحتمه ظروف مجتمعهم من تغيير وتطوير ثم يتشاركون معا فى العمل على احداث هذا التغيير والتطوير . ومن أجل هذا تقف اللغة دائما فى خدمة توليد هذه الحاجات الضرورية

عند الفرد فى المجتمع فتخضع اللغة نفسها لهذه الحاجات الضرورية وتتمخض عن المفردات والتراكيب الضرورية لهذا الغرض . وكلنا يذكر ويعرف الآثار التى خلقتها فى النفوس شعارات مثل : ارفع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الاستعباد — ان على الاستعمار أن يضع عصاه على كاهله ويرحل — الاتحاد والنظام والعمل . ثم ما تبع ذلك من شعارات : الوحدة العربية — من الخليج الى المحيط — نصادق من يصادقنا ونعادى من يعادينا — محاربة الأحلاف — القضاء على الرجعية — حتمية الحل الاشتراكى ..الخ. والملاحظ أن الشعارات لها قدرة على تركيز المعانى شبيهة بما لرسوم الكاريكاتير من هذه القدرة فنحن اذا أخذنا أى واحد من هذه الشعارات وأردنا شرح ملابساته لايضاح مراميه وجدنا أن بعضها قد يطول شرحه طولا واضحا . فاللغة بكل طاقاتها تقف هنا فى خدمة الأهداف الاجتماعية .

وان وضعنا السياسى الحاضر كديموقراطية حديثة يحتم علينا أن يكون سبيلنا هو الاقناع بالدعوة كبديل للارغام بالقوة والبطش أو كبديل للارغام بالقانون فى بعض الحالات . ومن هنا تبدو خطورة اللغة كأداة من أدوات الدعوة والتوعية . ونضرب مثلا لذلك مثلا بما يحسه المجتمع من حاجة ماسة الى تحديد النسل فهل تبطش الدولة بمن يولد له ؟ أو هل تسن القانون الذى يفرض عليه الغرامات أو يحرم وليده هذا من الخدمات المجانية ؟ ان الدولة لا تلجأ الى هذا الحل ولا الى ذلك وانما تقوم بحملة توعية غايتها الوصول الى تحديد النسل وان المهارة فى استخدام اللغة فى الاغراء بهذا التحديد لتؤدى الى مالاتؤدى اليه مهارة الجيش والبوليس مجتمعين فى استخدام أى بطش أو قمع .

ومجتمعنا المعاصر فى أشد الحاجة الى توسيع قاعدة الوعى الشعبى . لقد كان قوام الرأى العام المؤثر فيما قبل الثورة طائفة المثقفين فقط ، وكان هؤلاء يتحملون العبء كله ، وكان قوادهم عرضة للاغراء بالمال والجاه فكان هذا الرأى العام المثقف فى بعض الظروف عرضة لفقد فاعليته بانحراف العناصر القيادية بين صفوفه . وكان لابد للثورة وقد ارتضت لسياسة البلاد فلسفة اشتراكية أن تحقق عدالة التوزيع لا فى الدخل فقط بل فى الوعى السياسى أيضا . ولكن لا سبيل الى نشر الوعى السياسى الا بمقدرة أداة التوجيه على حسن استخدام اللغة ثم — وهذا أهم — مقدرة الجماهير الواسعة على فهم اللغة التى تستخدمها أداة التوجيه . من أجل ذلك اتجهت الدولة الى محو الأمية الفكرية لدى الجماهير وجعلت من مقدمات ذلك أن تمحو الأمية الكتابية بانشاء مشروع محو الأمية للكبار وتوسيع تعليم المرحلة الأولى للصغار .

●

وهناك أمران ضروريان يتحتم علينا أن نعنى بهما أشد العناية فى استخدام لغة الدعوة والدعاية فى الوقت الحاضر .

أولا : أن نعمل على تطوير لغة الدعوة باعطائها المرونة المناسبة لتسمية المفاهيم الجديدة عن طريق التوليد بالاشتقاق والتعريب ثم نفرق بين المستويات اللغوية المختلفة فى الدعوة فاذا كانت المسألة اثارة عاطفية فالأساليب البلاغية محمودة دون شك وأما اذا كانت المسألة بث معلومات فعلى اللغة هنا أن تقلد الضبط العلمى قدر الطاقة . وهذا أمر لا نستطيع المبالغة فى خطورته مهما حاولنا ولكل مقام مقال .

ثانيا : أن كل دعوة ذات فلسفة معينة فى التاريخ لابد أن تلجأ الى اصطناع مركزية فكرية معينة لم يشذ عن ذلك مذهب من المذاهب السياسية والاجتماعية . فلا عار اذن فى الدعوة الى مركزية الدعوة الاشتراكية العربية بأن يكون لها مكتب مركزى مسئول عن تحديد فلسفتها ومفاهيمها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية . ومن الخطورة بمكان أن يترك المجال للاجتهاد الفردى ليتحكم فى تحديد هذه الفلسفة لأن نتيجة ذلك لابد أن تكون تناقضا بين بعض أجزاء هذه الفلسفة وبين أجزائها الأخرى بحكم اختلاف مصدر هذه الفكرة عن تلك .

ليست هذه الفلسفة متنا من متون الاقتصاد ولكنها تحديد لنظام المجتمع وبيان تركيبه العضوى وهو أمر ان لم يستغن عن علم الاقتصاد أو علم الاجتماع فليس أيا منهما على حدة وليس اياهما مجتمعين .

●

ونخلص من الكلام عن وظيفة اللغة فى حقل السياسة الى وظيفتها فى حقل الاقتصاد الوطنى . كان الناس فيما مضى يرصدون الأحداث الاقتصادية الهامة فى البلاد بمنظار فلكى ثم لا يعطونها من اهتمامهم وانفعالهم فى الغالب الا مايعطيه الفلكى لانتقال الشمس من برج الى برج . ذلك بأن هذه الأحداث الاقتصادية كانت ملكا لأفراد قلة ولم تكن ملكا لجماهير الشعب . ثم تملك الشعب مصادر الانتاج فى البلاد وأصبح القطاع العام سيد الموقف فى هذا الاقتصاد الوطنى فتحول جزء هام من السياسة الى أرقام واحصاءات وأصبح الاقتصاد سياسة وأصبح الفرد والرأى العام كلاهما مشغولين بالاقتصاد والأرقام والاحصاءات والمشروعات الانشائية والمصانع، ورأينا الكلام فى هذا الحقل يلقى

رواجا يوما بعد يوم • ولابد لهذه الأهمية الطارئة للتفكير الاقتصادى لدى الرأى العام من أن تنعكس على اللغة فكان عليها أن تكيف نفسها بكيفية الأوضاع الجديدة فتتزود بالمفردات الضرورية وبالمصطلحات الفنية الجديدة التى لم تكن موجودة من قبل •

واذا كانت الفكرة المركزية فى الاقتصاد هى زيادة الدخل فان وسيلة ذلك هى زيادة الانتاج • ولقد أصبحت زيادة الانتاج فى مجتمعنا النامى ضرورة حيوية لا سبيل الى التنمية ولا الى النمو بدونها • بل ان على زيادة الانتاج وحدها يتوقف كل ما نتوق اليه من الوصول الى الرخاء• وفى هذا الحقل مجالان لاستخدام اللغة• أولهما : الدعوة الى زيادة الانتاج وثانيهما : الانتاج نفسه الذى ندعو زيادته • فأما الدعوة الى زيادة الانتاج فطريقها طريق كل دعوة أخرى تلجأ الى الحقائق الجافة حينا والى الأساليب المثيرة حينا آخر وغايتها دائما أن تولد فى نفس الفرد دافعا الى بذل جهد أكبر للوصول الى انتاج أكثر • وأما عملية الانتاج فانها تتطلب عنصرين لاغنى لها عنهما وذانك هما التدريب والتنظيم فالتدريب بطبعه يعتمد اعتمادا كبيرا على التلقين وعلى استخدام اللغة بما تشتمل عليه من مصطلحات وايضاحات فلا غنى عن اللغة فى التدريب الا اذ صح فى الأذهان أن يستغنى عنها فى برامج التعليم فى المدارس والجامعات • والتنظيم بدوره يقتضى تخصص كل عامل فى المصنع فى وظيفة فرعية ليست لها قيمة مستقلة ولا تفهم فهما مستقلا وانما تفهم وتكون لها قيمة فى نطاق العمل العام الذى هو مجموع ما يقوم به العمال المتعاونون على انتاج السلعة • وان عاملا واحدا فى هذا المصنع ربما اقتصر عمله على الضغط على مقبض معين ثم رفع يده عنه ثم تكرار ذلك طول ساعات العمل اليومى • وان من صالح تنظيم العمل أن يبصر هذا العامل بقيمة هذه الحركة البسيطة التى يكررها بالنسبة للخطة العامة للعمل كله ثم بصلة هذه الحركة بما يقوم به العمال الاخرون من حركات جزئية مماثلة وهنا يؤدى التنظيم الى التوعية وهى بدورها مجال من مجالات اللغة ووظيفة من وظائفها • من هنا تتضح ضرورة محو أمية العامل قبل اشتغاله بعمله حتى يكون قادرا على الدخول فى مجالات التدريب والتنظيم على صورة مفيدة • فاللغة خيط فى نسيج الانتاج لا غنى له عنها •

لقد كنا من قبل الثورة نعتمد على الزراعة اعتمادا شبه كامل فى حياتنا الاقتصادية ثم بددت الثورة سحابة الوهم التى كثفها الاستعمار دون تفكيرنا اذ فرض على فهمنا أن بلدنا لا يملك امكانية تحويل اقتصاده الى الصناعة • وسرعان ما شملت نواحى النشاط الاقتصادى مشروعات التصنيع وتوليد القوى وتفجير الطاقات الكامنة فى الانسان والبيئة على سواء وانكشف غبار الملحمة النبيلة عن حقيقة قدراتنا وثرواتنا وهكذا وجدنا الديناميكية الجديدة التى منحها التصنيع لاقتصادنا الوطنى تفرض على الاستعمار اللغوى أن يفى بحاجات حقول جديدة من النقل والتصدير والاستيراد ودراسة المشروعات وتقويمها من حيث الصلاحية الاقتصادية للتنفيذ فى ضوء هذه الاعتبارات وغيرها • وعلى اللغة هنا أن تسلح نفسها كذلك بالمفردات والتراكيب والمصلحات الفنية اللازمة •

واشتراكيتنا تعاونية والتعاون تفاعل الجهود وتضافر القوى وتساند الامكانيات فهو بطبعه مشاركة تعتمد أولا على الاستعمال اللغوى، ثم ان هذا التعاون باعتباره جزءا من فلسفة الدولة لابد أن يكون موضوعا للنقاش والشرح والكتابة كما أن تعليمه والتدريب عليه وتنفيذه والدعوة اليه كل ذلك يتطلب أن تفى اللغة بمطالب هذا الحقل وتعد له عدته من المصطلحات والتراكيب والأساليب •

ان حياتنا الاقتصادية الجديدة بما تتسم به من تخطيط واشراف يشملان منابع الاقتصاد ومصارفه جعلت الاهتمام غير مقصور على المنابع التى هى الحقول والمصانع والمناجم ونحوها وانما ألقت الكثير من الضوء على مشاكل الاستهلاك ووجهت النظر الى ظاهرة خطيرة تقترن بحياتنا الاستهلاكية هى ظاهرة الاسراف وعدم التوفير فأصبحت مشاكل الاستهلاك موزعة بين ضبط الدولة وضمير الفرد وأصبحت الدولة والفرد يتجاذبان أطراف اللغة فى علاج الاستهلاك على وجوه متعددة ، منها ملء الاستمارات والبطاقات ومنها الطلبات المقدمة وقيد المواليد والندوات الخاصة بالاستهلاك والأحاديث الاذاعية والبرامج الاذاعية الدائمة مثل برنامج « حسب التسعيرة » وانتقلت الدعوة الى التوفير الى الخطب الوطنية على أعلى مستوى وهكذا أصبحت اللغة جزءا لا يتجزأ من عملية الاستهلاك كما كانت جزءا من لا يتجزأ من عملية الانتاج .

وكان لابد للحقل الاقتصادى أن يكون له تعبيرات جديدة فى اللغة كما كان للحقل السياسى شعارات •• ففى حقول التطبيق الاشتراكى جدت تعبيرات مثل : القطاع العام ـ القطاع الخاص ـ رأس المال الوطنى ـ وفى حقل التصنيع زاد تداول بعض الاصطلاحات التى كانت تستخدم قبل ذلك للدلالة على مفهومات خارج حدود الوطن مثل : الصناعات الثقيلة ـ الصناعات الزراعية ـ الصناعات الاستهلاكية • وفى المجال الانتاجى جدت تعبيرات مثل : العاطلون بالوراثة ـ توظيف رءوس الاموال ـ وفى المجال الاشتراكى العام جد تعبير : الوظيفة

الاجتمـــاعية لرأس المـــال • أما فى مجـــال الضرائب فقد جدت تعبيـــرات مثل : الشرائح ـ الأوعيـــة الضريبيـــة ـ الضرائب التصـــاعدية ـ الضريبة العـــامة على الايراد ـ الضرائب النوعية وفى مجال الاستهلاك جدت تعبيرات مثل : المستهلك ـ المجمعات الاستهلاكية ـ السلعة البديلة وغير ذلك •• ومادامت حياتنا السياسية والاقتصادية متطورة وما دامت نظريتنا الاشتراكية قابلـة للتطور حسب نتائج التطبيق فلابد للغة العربية فى مجتمعنـــا أن تكون على استعداد دائم لتلبيـــة مطالب السياســة والاقتصاد بتقـــديم المصـــطلحات والتـــراكيب والأساليب •

•

وننتقل بعدذلك الى وظيفة اللغة فى حياتنا اليومية الاجتماعية العامة : ذكـــرنا من قبل أن من وظيفـة اللغة قضاء حاجات الفرد فىالمجتمع ونحب أن نضيف هنا أن هـــذه الحاجات لا يتحتـــم أن يتسم كلها بطبيعة التبادل الاجتماعى فللفرد حاجات لا تتصـل من قريب أو من بعيد الا بشخصه ولا دخل للمجتمع أو لأى فرد آخر غيـره فى قضاء هـذه الحاجات فمن ذلك مثلا التفكير بصوت عال ومنه الانفجار باحتجاج غاضب عندما تعثر فى الطريق أو يفسد فى يدك أمر كنت تريد اصلاحه • ومنه أن تشتم السائق الغبى الذى أمام سيارتك دون أن تقصد اسماعه ودون أن يكون فى سيارتك راكب غيرك وأن تقيد فى مفكرتك موعدا خاصا بك وفى كل هذه الحالات لا ترجو أن يسمعك سامع حيـن تنطـــق ولا تود أن يقرأ لك قارىء حين تكتب فوظيفة اللغـــه هنـا فردية غير اجتماعية لاتتسم بتوصيل الأفكار ولاباخفائها• وحتى التبادل الاجتماعى فى حاجات الفرد لا يتحتم فيه أن يكون تبادلا ماديا بمعنى الأخذ والاعطاء بل تكون اللغـة أحيانا وسـيلة ايجاد الشركة فى تجربة أو موقف ما لا وسيلة تبادل مصلحة مادية •

يحدث أحيـــانا أن تدخل المصعد فى مبنى ذى عشرة طوابق أو أكثر فتجد بالمصعد شخصا واحدا فاذا كان هذا الشخص صاعدا الى الطابق نفسه أو طابق بعده فانك تجـد أن الوقوف معه دون كلام طول مـدة الصعود يخلق نوعا من الحرج الاجتماعى الذى لا تحبه أنت ولا يحبه هو فيبدأ أحدكما الكلام عن اختلاف سرعة المصاعد مع الاشارة الى بطء هـذا المصعد أو سرعته وليس الغـرض من هـذا الكلام توصيـل معلومات أحـدكما الى الآخر عن المصاعد اذ أن كلا منكما غير خبيـر فى شأنها ولكن الغرض الأساسى رفع الحـــرج الاجتماعى الذى يترتب على وجود شخصين منفردين وجها لوجه ينظر أحدهما الى الآخر ولا يكلمه • وفى مناسـبة أخرى قد يجرى الحديث عن الطقس أو فى السياسة أو فى الأسعار أو فى صورة تعليق على شىء تلاحظانه معا • وقــد رأينا فى الطائفـة الأولى من التجارب التى ذكرناها هنا أن اللغة كانت نوعـا من الافراز الحركى الذى يمكن اعتباره رد فعل لا فعلا ورأينـــا فى الطائفـة الأخيرة من الأمثلــة أن وظيفـة اللغة كانت ايجاد الاحساس الاجتماعى ورفع الوحشة وسنرى أن هذه الوظيفة من أهم الوظائف الأولية للغة فى المجتمع •

ولقد ذكرنا كذلك من قبل أن اللغة تهيىء الوضع المناسب لتكوين مجتمع وحيـاة اجتماعية ونحب أن نضيف هنا بناء على ماتقدم أن للغة بعد خلق الوضع الصالح لتكوين مجتمع وظيفة أخرى هى ايجادالاحساس بالزمالة الاجتماعية لدى الفرد ومن ثم خلق ترابط اجتماعى بين أفراد المجتمـع ثم وظيفة ثالثة تترتب على ذلك هى التمـكين من المخالطة الاجتماعية وأداء المجتمع لوظائفه كمجتمع • أن المجتمعات السياسية التى لا تربط بينهـــا لغة واحدة كما هى الحال فى المجتمع الهندى والمجتمع النيجيرى تجـد صعوبات كثيرة تقوم دون توحيد فكرها واحساسها وارادتهـا وعملها فتجد الوحدة فى هـذه الأمور الأربعة تتحقق فى الأزمات فقط، فاذا زالت الأزمات ظهرت أعراض التصدع الاجتماعى ثم بدت أشد ما تكون عند الكلام عن اختيار لغة قومية للبلاد اذ أن أصحاب كل لغـة فى داخل الاتحاد يودون بجدع الأنف أن لو كانت لغتهم هى المختارة ويفضلون بدافع الغيرة أن تبقى اللغة الانجليزية لغــة رسمية للدولة دون أن تختار لغة محلية غيـر لغتهم لتكون لغة الحكومة والدولة • ولو أن هذه المجتمعات وجــدت منذ البداية بلغة واحدة لوجـدتنا بدل ما يقض مضجعها من تصدع ترابطا اجتماعيا وفكريا واحساسيا واراديا وعمليـا يسبغ عليها نعمة الحياة الاجتماعية المطمئنة • وعلى العكس من ذلك تفرق السياسة بين الدول العربية ويقع الصدام بين واحدة منها والأخرى أحيانا ولكن رعايا هذه وتلك يجـــدون من شركة اللغة احساسا بالقومية الواحدة ومن ثم احســـاسا بالآمال والآلام المشتركة بل انهم يحددون معا عدوهم المشـــترك ويتعاطف بعضهم مع بعض من وراء الحدود المصطنعة والأسلاك الشائكة •

وان حياتنا الاشتراكية الحديثة التى تعنى بتوفير أقصى قدر ممكن من الاتصال بالفرد والأسرة لتعطى لمجال الاستعمار اللغوى سعة لم تكن له من قبل • ويجد الفرد والأسرة أنهما فى الوقت الحاضر عـلى صلة بالكهرباء والماء والتليفون والاذاعة والمواصلات والمدارس والنوادى الاجتماعية والرياضية والتموين والسجل المدنى ومكاتب الصـحة والشرطة والبنوك وشركات التـأمين والشهـر العقـارى ومأموريات الضرائب ، وفى كـل واحدة من هذه الجهات تربط الكلمة المكتـــوبة بين الجهة المذكورة وبين الفرد أو

بينها وبين الأسرة ، فيجرى تحرير الاستمارات والطلبات الرسمية والاقرارات والايصالات والمراسلات والتسجيلات • أما الكلمة المنطوقة فمسلطة على أذن الفرد والأسرة من دار الاذاعة والتليفزيون ومسجد الحى والنادى الاجتماعى والمعهد والمصنع والندوات السياسية والاجتماعية ثم المناسبات الأسرية التى يخلقها التزاور أو الأفراح أو الأحداث والتقاء العرضى والبيع والشراء• فلاغنى للحياة الحديثة عن اللغة وبدون اللغة لا يمكن أن يقوم أى نوع من أنواع هذا النشاط •

ولقد حرصت الدولة تحقيقا منها لفكرة التعاون أن تقدم بعض التسهيلات التعاونية فى حقل الاسكان فوجد الفرد العادى نفسه قادرا بوسائله المحدودة على أن يملك مسكنا بعد أن كان ذلك بالنسبة له فى عداد المستحيل وبذلك اتسعت قاعدة النشاط الاسكانى فشملت القطاع التعاونى • وكان على اللغة أن تفى بحاجات هذا الحقل الجديد فتهيىء له الاصطلاحات وتصوغ الجديد من الكلمات والتعبيرات وأنشأت الدولة وزارة خاصة بالاسكان تستهلك بالاستعمال اللغوى كل عام ماتستهلكه أية وزارة أخرى أو أكثر من الورق والحبر والأقلام وذلك بالاضافة الى ما يحرره الأفراد من العقود والطلبات والاستمارات ومايعطى للفرد من ايصالات وتصديقات وغير ذلك • ولغة المكتوبة فى هذا الحقل والحقول التى ذكرت الفقرة السابقة وظيفة أخرى غير الاحساس بالزمالة هى وظيفة الارتباط والالتزام القانونى فكل اقرار أو وصل أو تصديق أو تسجيل يعتبر التزاما أمام القانون بموضوع الاقرار أو الوصل أو التصديق أو التسجيل • وهذه وظيفة لم ترد على بال من تصدوا لتعريف اللغة الذين ذكرناهم فى بداية الكلام فى هذا الموضوع •

وتحرص الحياة الحديثة على تجديد نشاط الفرد بعد أن فرضت عليه العمل فى زيادة الانتاج• وتحقيقا لهذا المبدأ وجد الفرد فى متناوله حقولا متعددة لترفيه منها الفلم السينمائى والمسرحية والاغنية والبرنامج الاذاعى والتليفزيونى والقراءة الحرة والنكتة الفكاهية والكاريكاتير والمباريات الرياضية فاذا نظرنا الى هذه الحقول الترفيهية واحدا بعد الآخر وجدنا اللغة قاسما مشتركا بينها جميعا فتقف وحيدة فى بعضها وتستعين بغيرها فى البعض الآخر • فاللغة أداة ترفيه مستقلة فى القراءة الحرة والنكتة الفكاهية والبرنامج الاذاعى وهى قرينة الصورة الثابتة فى الكاريكاتير الصحفى وقرينة الصورة المتحركة فى الفلم وقرينة اللحن فى الأغنية •• وان اللغة حين تضام الصورة أو الحركة أو اللحن لتتقوى بها وتقويها بل تتحد معها. ويكون من اتحادهما شكل تعبيرى مركب ينتج عنه أن تتحول اللغة من أداة اجتماعية الى شكل فنى فتأخذ اللغة من ضميمتها الجمال وتعطيها الطابع العرفى الذى يضمن لها أن تكون مفهومة لدى المجتمع كله • ولا شك أن انضمام الجمال الى الطابع العرفى يجعل الموضوع ذا قيمة ترفيهية عظمى لدى الجماهير العريضة •

●

لقد آن الأوان عند هذه النقطة أن نتعدى بتفكيرنا حدود الجمهورية العربية المتحدة الى الحقل العربى العام لنرى وظيفة اللغة فى هذا الحقل وسنجد لها من الخطر هنا ما لا يمكن أن يختلف فيه اثنان • لقد أشرنا من قبل الى أن اللغة وحدت أبناء العروبة على رغم اختلاف دولهم وتنازع بعضها مع بعض ونود هنا أن نلقى بعض الضوء على هذه النقطة من نقط الكلام بتأكيد أن اللغة لم تجمع العربيين من جيل واحد فحسب بل جمعت بين العربيين من جيلين مختلفين وسنعطى ذلك فضل ايضاح • فأما أن اللغة جمعت بين العربى والعربى من جيل واحد فذلك واضح مما ذكرنا من مشاركة العربى للعربى فى الآمال والآلام ومن استمتاعهما معا بأدب واحد وافتخارهما معا بأمجاد تاريخ واحد وعنايتهما معا بتراث ثقافى وروحى واجتماعى واحد ولايستطيع عربى معاصر أن يتنكر لأى شىء من هذا التراث فلو أعلن فى الناس عدم اكتراثه بشىء مما يعتز به العرب من الخليج الى المحيط لكان مجازفا بسمعته وشرفه وحياته •• مثال ذلك أن القومية العربية أصبحت صيحة اليوم فى كل قطر عربى وقد اقترنت الدعوة الى هذه القومية بأفكار تقدمية اشتراكية رأى فيها بعض الملوك خطرا على سلطانهم وثرواتهم ، فماذا فعلوا ؟ من المؤكد بادى الرأى أنهم لا يستطيعون أن يطلعوا على الناس بقول صريح ضد القومية العربية لأنها أصبحت أقوى من أن تهاجم ولكن التراث العربى فيه مقدسات أخرى الى جانب القومية العربية كالاسلام مثلا • وقد رأى هؤلاء أنهم اذا عجزوا عن مهاجمة تراث فلامفر من مواجهته بتراث ومن ثم ذهب هؤلاء الى استخدام الاسلام سلاحا ضد القومية ولولا الاسلام ما استطاعوا أن ينبسوا ببنت شفة • ولما كانت القومية العربية تجمع بين العربى والعربى وكان الاسلام يجمع بين العربى وغير العربى ذهب هؤلاء يستعدون غير العرب على قومية العرب ويتسترون بجرمهم وراء أقدس المقدسات وهو الاسلام • وان هذا التستر ليعنى أن القومية العربية أخطر من أن تجابه مجابهة صريحة ويعنى بالتالى أن العربى فى الخليج والعربى على المحيط يتشاركان معا فى الانفعال الواحد بهذه القومية فاذا نظرنا الى مقومات هذه القومية وجدناها جميعا من اللغة والى اللغة كالأدب والتاريخ والثقافة والاجتماع والتراث الروحى وبهذا تكون اللغة عصب القومية •

وأما أن اللغة تربط بين جيلنا هذا والأجيال العربية السابقة فقد أشرنا من قبل الى فكرة الاستمرار الزمنى للمجتمع وهى التى تتضح فى محافظة هذا الجيل على العادات والتقاليد والموروثات الأخرى مما جاءنا عن الأجيال السابقة • وزعمنا أن هذا الاستمرار التاريخى نتيجة من نتائج وجود اللغة فاللغة هى وعاء الأدب واللغة وعاء التاريخ والأقاصيص والأساطير والخرافات والخزعبلات واللغة أداة الرواية والتلقى ووعاء الدين والعرف والأمثال والحكم ثم هى المنبع الغزير الذى يضيف به اللاحق الى تراث السابق والذى يسلم به الحاضر ما لديه من تراث الى الخلف • لا شك أننا كمصريين نطرب جدا عند النظرة فى مجد الفراعنة ونطرب جدا عندما ننظر فى مجد العرب ولكننا اذا اخترنا شخصيتين من التاريخ أحدهما مصرى والثانى عربى ثم وازنا بين ارتباطنا بكل منهما فسيتضح لنا خطر اللغة • أما الشخصية المصرية فهى أحمس الذى حرر البلاد وطرد الغاصب • وأما الشخصية العربية فهى عمرو بن العاص الذى غزا البلاد من خارج ودخلها فاتحا • نحن نفخر بهما معا ولكن السؤال هو : « بأيهما نحن أكثر فخرا ، أبالحامى الذى حرر البلاد أم بالغازى الذى فتح البلاد ؟ » • أما أنا فالجواب الحاضر على لسانى أن فخرى بعمرو أكثر ألف مرة من فخرى بأحمس لأن الرابطة بينى وبين أحمس رابطة فى المكان فقط والرابطة بينى وبين عمرو رابطة فى المكان والزمان معا ، والرابطة بينى وبين أحمس رابطة منفكة ولكن التى بينى وبين عمرو رابطة مستمرة فى التاريخ • والرابطة بينى وبين أحمس رابطة بالترجمة ولكن الرابطة بينى وبين عمرو رابطة باللغة الواحدة المشتركة،مثل ذلك يقوله اللبنانى العربى عن الفينيقيين والسورى العربى عن الآراميين والعراقى العربى عن البابليين والأشوريين وهلم جرا •

اذن تكون اللغة العربية الفصحى كبرى دعائم القومية العربية بل هى الدعامة التى لولاها لانهارت بقية الدعائم وانهارت بانهيارها القومية العربية لا كمفهوم سياسى فحسب بل كمفهوم اجتماعى أيضا • لقد كانت اللغة اللاتينية ذات يوم لغة الامبراطورية الغربية المقدسة والكنيسة الكاثوليكية وكانت لها لهجات محلية فى ايطاليا وفرنسا وأسبانيا ثم فى رومانيا فى شرق أوربا وكانت الشركة فى اللغة اللاتينية بين هذه الشعوب أقوى رابطة بينها حتى أن هذه الشعوب لا تزال تعرف بالشعوب اللاتينية على رغم شهرة استقرار كثير من الأجناس الأخرى فى رقعة هذه اللغة كاستقرار الوندال فى أسبانيا واستقرار الصقالبة والاغريق فى رومانيا ثم جاءت النهضة الأوربية فرفعت هذه اللهجات المحلية الى مستوى اللغات وأحلتها محل اللاتينية فلم يكن الانهيار نصيب اللاتينية فحسب وانما كان كذلك نصيب العلاقة الخاصة بين هذه الشعوب وهى العلاقة التى جعلتها أمة واحدة فى دولة واحدة ولم يعد هناك من رابطة بين هذه الشعوب الا رابطة التاريخ والدين وكلاهما لا يقوم مقام اللغة بل ان رومانيا حتى من الناحية الدينية وقعت فى قبضة الكنيسة الشرقية فلم تعد لها رابطة خاصة باللاتينيين الغربيين • وهكذا انهار المجتمع اللاتينى الأكبر بانهيار اللغة اللاتينية التى كانت رباطه الوثيق •

وان اللغة العربية لتقف نفس الموقف فى الربط بين الشعوب العربية وان هذه الشعوب لتسمى « عربية » على رغم علمنا بأن الدماء قد اختلطت فى رقعة هذه اللغة فلم يعد يوجد اليوم عربى صريح الدم واذا وجد فلن تكون صراحة دمه ميزة له على أى حال •

اذن فصلة النسب ليست عنصرا من عناصر العروبة • ومثل ذلك يقال فى الدين أيضا فهو وان كان يربط بين الأغلبية الساحقة من العرب لا يعتبر من مقومات العروبة وان اعتبر من مقدساتها فالانسان يوصف بالعروبة وان لم يتصف بالاسلام • فاذا عرفنا أن الاسلام دين الأغلبية العظمى من العرب عرفنا بالتالى أن الاسلام أول مقدسات العروبة لأنه يوحد بين ضمائر هذه الأغلبية العظمى ويكيف طريقة معيشتهم • الاسلام اذن من مقدسات العروبة ولكنه ليس عنصرا من عناصر تكوينها اذ أن بعض المسلمين ليس عربا واذا كان بعض المسلمين غير عربى وبعض العرب غير مسلم فالنتيجة بالطبع أن الاسلام غير العروبة • أما اللغة فى صورها المختلفة ــ الأدب والأساطير والأمثال والأقاصيص الخ •• فهى كما قلنا عصب القومية العربية فاذا انهارت لغة العرب انهارت قومية العرب كما حدث من قبل للغة اللاتينية وأصحابها • ووظيفة اللغة هنا وظيفة اجتماعية أولا وسياسية ثانيا وقد استطاع شعار القومية العربية أن يركز هذين المفهومين الاجتماعى السياسى أحسن تركيز •

وهنا ندرك خطورة الدعوة الى احلال اللهجة العامية محل اللغة الفصحى ونعرف أن هذه الدعوة انفصالية الطابع • ولست بهذا أوجه اتهاما لأحد بأنه يريد اذابة الروابط العربية اذ لا مصلحة لعربى فى اذابة هذه الروابط ولكننى بالتالى أعلم أن أصحاب هذه الدعوة أكثر ذكاء من أن يجهلوا نتائج دعوتهم أوأن يغفلوا عنها ولا سيما أن الذين كتبوا يعارضون هذه الدعوة قد نبهوا الى هذه المخاطر ربما بصورة أكثر تفصيلا مما أفعل هنا • وليس عنوان هذا المقال بالذى يسمح بالدخول تفصيلا فى تحليل هذه المشكلة ومايترتب عليها من نتائج اجتماعية وسياسية وثقافية واقتصادية ودينية ،

ولذلك أحجم مضطرا عن الدخول فى تفصيلها آملا أن تتاح لى الفرصة فى المستقبل القريب أن أشرح نتائج هذه الدعوة بالتفصيل المطلوب •

●

وفى الحقل العلمى العربى فى وقتنا الحاضر حالة شبيهة بالانفصال الذى يسببه قيام العاميات مقام الفصحى • فالمعلوم أن للعلماء عرفا خاصا ، وأن الاصطلاح العلمى لا يستحق هذه التسمية الا اذا اكتسب هذه الصبغة العرفية بحيث يستعمله العلماء بمعنى واحد يتعارفون عليه ويجعلونه له ملازما • فليس من المرغوب فيه اذن أن تتعدد المعانى للاصطلاح الواحد ولا أن تتعدد الاصطلاحات للمعنى الواحد • فالعرفية وعدم التعدد والدلالة بالحقيقة لا بالمجاز، أمور يجب أن تتوفر فى الاصطلاح العلمى• وهذه العرفية الاصطلاحية ينبغى لها أن تكون عرفية عربية على المستوى القومى العام لا على المستوى الاقليمى الخاص ولكننا نشكو هنا من ميل العلماء الى النزعة الاقليمية فى مصطلحاتهم مما يجعل العلماء يبدون وكأنهم فى غفلة عن حاجات المجتمع العربى الأكبر • ولو أننا قرأنا مجلة علمية تخرجها احدى الجامعات المصرية وأخرى تنشر فى سوريا وثالثة تنشر فى العراق وهلم جرا لأدركنا الى أى حد تتحرك هذه الجامعات فى أفلاك مختلفة فلا يجمع بينها عرف ولا توحد بينها غاية •

واذا جاز فى دنيا العرب أن تختلف السياسة فمن الجريمة أن يختلف العلم لأنه من هنا تتشعب الثقافة العربية فلا تكون ثقافة واحدة وينخر سوس التفتت فى الأمة العربية نفسها • لقد وقع فى يدى منذ قليل كتاب الدكتور نكروما Consciencism وقد نقله الى العربية الدكتور كريم عزقول «دكتور بالفلسفة» تحت عنوان « الوجدانية » فصادفت به اصطلاحات لا عهد لى باستعمالها مثل « مذهب ألوهية الكل » يعنى وحدة الوجود و « الاختبارية » يعنى المذهب التجريبى و « العقلانية » يعنى المذهب العقلى و « الكثرويه » يعنى القول بالتعدد ، و « الاسمانية » يعنى المذهب الاسمى و « الذرانية » يعنى متمشية مع القول بمذهب الذرة و « التناغم » بمعنى الانسجام و « تجزؤ الشخصية » بمعنى انفصام الشخصية و « جامد » بمعنى ساكن و « القذف الاشعاعى » بمعنى « الطاقة الاشعاعية » و « الحركات التماوجية » بمعنى ميكانيكية التماوج و «التعابير الفنية » بمعنى المصطلحات • و «الفيزياء» فى جامعة دمشق هى « الطبيعة » فى جامعة القاهرة و « الميتافيزياء » هناك هى « ماوراء الطبيعة » هنا وهلم جرا • وهكذا تتفرق الثقافة العربية بددا بتفرق التعارف على المصطلحات والغرم فى ذلك على العرب حاضرا ومستقبلا • فاما أن يتقبل هؤلاء مصطلح أولئك أو يكون العكس ، واما أن يجتمع هؤلاء وأولئك فيصلوا الى كلمة سواء بين الجميع تلم شعث العقلية العربية وشتاتها • أما أن يدوم الوضع على صورته الحاضرة فذلك الشتات والبوار •

ومسألة أخرى فى الحقل العلمى لا تقل خطرا عن هذه وتلك هى مسألة تعريب العلم المعاصر وتدريس العلم فى الجامعات والمعاهد باللغة العربية • فالمعروف أننا نحاول اليوم بناء صرح نهضتنا على الدعائم الآتية :

١ ـ التراث العربى القديم الذى خلفه لنا السلف وهذا التراث على قيمته التى لا يمكن التهوين من شأنها لا يمثل العصر الحاضر ولا طريقة تفكيره ولكنه يصلح « أساسا » لبناء الحاضر والمستقبل وهو بهذا المعنى يتخذ دعامة هامة جدا فى بناء صرح مستقبلنا الثقافى والعلمى •

٢ ـ الثقافة المعاصرة التى بدأت ذات يوم فى أوروبا ثم انتهى بها الأمر الى أن تكون عالمية وملكا لشعوب الأرض جميعا لا يستقل بها شعب دون شعب فدورها هذا شبيه بدور الثقافة الهلينية التى بدأت باليونان وانتهت باشتراك شعوب المشرق جميعا فى بناء صرحها • ولكن هذه الثقافة الحاضرة وان كانت عالمية الطابع تلتمس فى اللغات على درجات متفاوتة تفاوت نشاط الشعوب صاحبة اللغات وتفاوت تقدم هذه الشعوب ومن ثم يتحتم على طالب هذه الثقافة الحديثة أن يطلبها فى أكثر من لغة واحدة وأن يحول ما باللغات الأخرى من كنوز هذه الثقافة الى لغته هو •

٣ ـ الاضافات العربية المعاصرة الى هذه الثقافة العالمية وهى اضافات أفادت دون شك من العنصرين السابقين : العربى القديم والأجنبى المعاصر •

على هذه الدعائم الثلاث يقوم نشاطنا العلمى والثقافى المعاصر فينمى ما بأيدينا ويبتدع الى جانبه المفاهيم الحديثة ويضطر الى تسمية هذه المفاهيم باسماء اصطلاحية فنية وهنا يأتى دور اللغة فى صياغة المصطلح الجديد باشتقاقه أو تعريبه أو ترجمته •

والاشتقاق أمثل هذه الطرق من وجهة النظر اللغوية • والمعروف أن أصل الاشتقاق كان موضع خلاف بين علماء الصرف اذ قال بعضهم هو المصدر وقال الآخرون هو الفعل الماضى ولكن أصحاب المعاجم الذين لم يناقشوا المسألة مناقشة نظرية أوقعهم التطبيق على أصل الاشتقاق فى غير عناء فاستخدموا الأصول الثلاثة فى التوليد على حسب الصيغ والموازين الصرفية ولم يعنوا حتى بتنبيه الصرفيين الى جواب ماشجر بينهم من خلاف • فالاشتقاق على هذه الصورة يتطلب الأمور الآتية :

أ ـ النواة الدلالية المكونة من الأصول الثلاثة ذات المخارج العربية •

ب ـ ما قد يتطلبه المعنى من حروف الزيادة التى يحددها العرف اللغوى ٠

ج ـ الصيغة الصرفية المناسبة ذات الميزان الصرفى العربى ٠

د ـ انتماء الكلمة المشتقة الجديدة الى أسرة اشتقاقية يفهم منها المعنى الجديد او يكون قريبا من معانى أفرادها ٠

أما بالنسبة لتوطين العلم الاجنبى واستيعابه فى ثقافتنا المحلية فواضح أن بقاء المصطلحات الأجنبية على صورتها الغريبة على بيئتنا عائق كبير دون الانتفاع بها لثقلها على ألسنة طلابنا وسرعة نسيانها وعدم شفافيتها عن المعنى المقصود وعدم تمشيها مع السياق العربى حين الكلام والكتابة ٠ ولقد كانت هذه الصعوبات ذاتها هى التى اضطرت القائمين على الكليات العلمية أن يفرضوا على الطلبة اللغة الأجنبية لا فى المصطلحات فحسب بل فى لغة التدريس والاطلاع والانتاج وبذا حرمت اللغة العربية من النمو الطبيعى فى هذه الحقول العلمية الهامة لا لسبب الا للكنة المصطلحات التى هى مفاتيح العلم فى هذه الحقول ٠ وكان على العلماء منذ البداية حين أرادوا توطين العلم أن يعربوا هذه المصطلحات أو يترجموها ٠ ولقد كان علماء العصر العباسى الأول فى وضع شبيه كل الشبه بوضعنا الحاضر بالنسبة للتراث الأجنبى وكانوا فى غاية الحكمة حين لجأوا الى الوسيلتين معا فى توطين العلم الأجنبى ٠ أما التعريب فله قواعده التى وضعها هؤلاء العباسيون وان لم ينصوا عليها صراحة ومن هذه القواعد :

أ ـ اخضاع المخارج الأجنبية للمخارج العربية وقد أنشأوا فى هذا الميدان مقابلات حرفية كأن يحولوا الرمز (   ) دائما الى نطق القاف كما فى موسيقى وبوطيقا وهرطقة وحرف (G) الى غين كما فى غرناطة وغراماطيقا وفيثاغوراس وكانوا يحولون رمز (P) اما الى فاء كما فى فردوس وفردزق واما الى باء كما فى بهلوى وبنجاب وكانوا أحيانا يعربون الكلمة الواحدة المشتملة على (P) تعريبين أحدهما بالفاء والآخر بالباء ولكل معنى ٠ مثال ذلك كلمة Pontricus التى تحولت الى فندق وبندق وبالوذج حيث عربوها فالوذج وبالوذة وكانوا يحولون (V) الى باء أو واو كما فى قرطبة وبلنسية والأستا والقوقاز والوزير ٠

ب ـ اخضاع الكلمات الأجنبية للموازين الصرفية العربية قدر الطاقة حتى تبدو الكلمة فى صورتها العربية المقبولة كالفلسفة والهرطقة على وزن فعللة وكوب على وزن فعل ومسك على وزن فعل ومرجان على وزن فعلان أو فعلال وصراط على وزن فعال وخندق على وزن فعلل ٠ لكنهم قد يتغاضون عن المطابقة اذا حصلت المقاربة فى هذا الباب واذا طالت الكلمة الأجنبية فقد يجعلونها وزن كلمتين عربيتين ٠

ج ـ اخضاع الكلمة لطرق التركيب والصياغة العربية فلا يجوز مثلا الابتداء بالساكن أو التقاء الساكنين ومن هنا زادوا الألفات فى أول اقليم واقليد وزدنا نحن الألف فى أول استراتيجية وكسرنا النون الساكنة فى أول نكروما ونيريرى ٠

أما الترجمة فلا تكون نتيجتها بالضررة كلمة معربة ولا كلمة مشتقة اشتقاقا حديثا وانما الغالب فيها استخدام التخصيص الدلالى بتحويل المعنى اللغوى العرفى العام الى معنى اصطلاحى عرفى خاص كأن تتحول كلمة الهاتف من الدلالة اللغوية على كل من يهتف بشىء الى الدلالة الاصطلاحية على جهاز التليفون ويتمثل فى تسمية هذا الجهاز نوع من الاختلاف بين الأقطار العربية بالأخذ بواحدة أو بالأخرى من الوسائل الثلاث التى ذكرنا ـ الاشتقاق والتعريب والترجمة ـ فقد أخذ السوريون فى تسمية هذا الجهاز بمبدأ الاشتقاق وأخذ المصريون فى تسميته بمبدأ التعريب على عكس ماكان الوضع فى فيزياء وطبيعة ٠

وأياما كانت الوسيلة الى صياغة المفردات والقاعدة المتبعة فى هذه الصياغة فان شيئا هاما ينبغى لنا أن نلتزم به فى أسلوب العلم ذلك أن تتسم لغة العلم بالضبط الرياضى التام بحيث يكون المعنى محددا واللفظ غير محتمل الا هذا المعنى فلا مجال فى لغة العلم للمجاز ولا الكناية ولا التورية ولا المحسنات البديعية ولا المبالغة ولا الظلال الذاتية فى وصف الحقائق وانما لغة العلم لغة الدلالة المطابقية المباشرة المضبوطة الحقيقية التى تشبه الى حد كبير لغة الرياضيات ٠ ولقد خضعت اللغة الانجليزية ذات يوم لمحاولة متعمدة ترمى الى طرح الأساليب الفضفاضة فى الكتابة وتحديد الدلالات تحديدا يتسم بالضبط الرياضى وان كل لغة ترجو لنفسها أن تكون وعاء للعلم لابد لها أن تفرض على أساليبها نوعا من الرقابة الواعية الحذرة وأن تحد من الميل الفردى الى المبالغة والاطناب وتحل محلهما الضبط والمساواة ولا يمكن الحصول على علم دقيق من لغة غير دقيقة ٠

وهنا نصل الى القول فى دور اللغة فى الحقل الفنى ٠ والفن بطبيعته من أوسع مجالات الاستعمال اللغوى سواء أكان هذا الفن مقالا أم شعرا أم خطابة أم قصة أم تمثيلا على خشبة المسرح ٠ والمقال أقدر هذه الأشكال الأدبية على التراوح بين أسلوب العلم وأسلوب الفن اذ يمكن لهذا المقال أن يكون ذاتيا كالخطبة الملتهبة حماسا واثارة وأن يكون موضوعيا رزينا كرزانة الحقيقة العلمية وأن يكون وجدانيا رقيقا محلقا كقصيدة الشعر الرائعة ، ومن هنا يصبح المقال متعدد الوظائف بحكم تعدد

النزعات والألوان المذكورة • ولا يزال المقال فى الأشكال الأدبية ميدانا خالصا للفصحى لم تدخله العامية نظرا لما تشتمل عليه مجالات استعماله من الجدية والوقار اللذين لم يتوفرا قط فى أسلوب العامية كما توفرا فى أسلوب الفصحى •

والشعر اثارة وتأثير واعجاب وعاطفة ومن ثم تقبله النفس وتقبل عليه واذا كان الشعر مفهوما كان احتفاء الناس به كبيرا • وللنفس المثقفة والنفس الأمية على السواء حاجات فنية معينة لا يقضيها لها الا الشعر وماكان لنا أن نتصور العامة والجماهير العريضة أقل اهتماما بالشعر من المثقفين • ولكن الشعر العربى الفصيح شعر يرتضى لنفسه أرستقراطية وجدانية وتعبيرية يحلق بها فوق رءوس الجماهير ومن هنا تبحث الجماهير عن حاجاتها الفنية فى صورة شعرية أخرى عامية عن الزجل والموال والدور والأغنية الخ • وبين الشعر الفصيح وبين هذه الصور الشعرية العامية أرض حرام لم يطرقها انسان قبل أحمد شوقى ولا بعده • فلقد حاول شوقى جهد الطاقة أن يقرب أحد الشكلين من الآخر ولكن الحلول الوسطى لاتدوم • وهل كتب الخلود لمحاولة سعدى ومهيار وغيرهما أن يقولوا الشعر شطرة بالعربية وشطرة بالفارسية؟ ان للعربية الفصحى قدرة على التعبير النبيل تزرى بأية لغة تخالطها فى نص واحد وتكون الضحية فى النهاية هى النص نفسه • ولقد لعب المقال والشعر كلاهما أخطر الأدوار فى حركتنا الوطنية فيما قبل الثورة ولا يزالان يؤديان بعد الثورة دورا هاما على انخفاض فى مستواهما اللغوى العام • وربما صح القول ، فى هذا المقام ، أن النقد فى حياتنا الأدبية المعاصرة أكثر رواجا من الانتاج وكلاهما بحاجة الى التطور •

ولعل الخطابة تكون واحدا من الأشكال الأدبية التى اكتسبتها الثورة سعة فى الأفق وتنوعا فى الموضوع وحرية فى الأداء ولكن اتساع قاعدتها الشعبية أدى الى ضرورة توفير عنصر الافهام فيها وان كان على حساب عنصر الفصاحة • ولقد قدمنا أن الرأى العام فيما مضى قام بطبقة المثقفين دون غيرهم من الطبقات وكان هؤلاء قادرين وأحيانا قديرين على انتاج الأدب الفصيح وفهمه ونقده ومن ثم كانت الخطب الموجهة اليهم فصيحة تتعمد أن ترقى الى مستوى أدبى معين • ثم قامت الثورة فانصفت الطبقات الكادحة غير المثقفة ووسعت دائرة الرأى العام ونشرت الوعى بين العوام ووجهت اليهم اهتمامها وخاطبتهم فكان لابد لها أن تخاطبهم بلغة مفهومة لديهم ومن هنا تسللت العامية بحسب الضرورة الى منصة الخطابة اما خالصة واما ممتزجة بالفصحى ، وأصبحت منافسا الى حد ما للغة الفصحى • ومع ذلك بقى للغة الفصحى مناسباتها التى لا يستغنى فيها عنها ولا تنافسها بها العامية كافتتاح الدورة النيابية والمؤتمرات العربية العامة وكافة المناسبات الرسمية فى الدولة • ولولا أن القومية العربية ترتفع فى ذهن جيلنا هذا فوق كل اعتبار لتوقع المرء فى ظل هذه الظروف التى ذكرنا من اتساع قاعدة الرأى العام الى اهتمام الثورة بالطبقات الكادحة أن تنافس العامية الفصحى فى هذا الحقل منافسة خطيرة •

والقصة شكل تعبيرى أدبى يؤدى دورا ثقافيا واجتماعيا هاما • ولقد كانت الموهبة الأدبية فى الماضى تعمد الى الافصاح عن نفسها فى صورة شعرية أو نثرية تؤدى مضمونها أداء مباشرا أو غير مباشر متخذة وعاء شكليا لها من الغناء أو القصص أو الأساليب العاطفية أو الواقعية أو الرمزية ، أو مازجة بين اثنين أو أكثر من هذه الأشكال فى النص الواحد فليس القصص جديدا على الأدب باعتباره صورة من صوره لكن الجديد على القصص الأدبى هو الدور الذى أعطى للقصص فى الأدب الحديث حيث أصبحت القصة للنقد الاجتماعى وللتوجيه وللتحليل وأن المزاج الذى تبدو فيه من فاجعة الى جد الى هزل ليعطيها من الغنى والقدرة على التلميح والتصريح والتضخيم الكاريكاتورى قدرا لا يمكن أن يتاح لصور الشعر والنثر غير القصصيين • ويجدر بنا هنا عند الكلام عن دور اللغة فى مجتمعنا المعاصر أن نشير الى حقيقتين هامتين :

أ ـ أن اللغة الفصحى لا تزال وستبقى لغة القصة فى أدبنا •

ب ـ أن العامية لم تنم بعد من الناحية الأدبية الى مستوى لغة القصة وأن تعدد العاميات يحول بين احداها وبين أن تحل فى هذا الحقل محل الفصحى •

أما فى المسرح فان توجيه الاحداث المسرحية الى الافصاح عن مفاهيم الحياة بالاضافة الى اقتران الكلمة بالحركة واتساع النشاط المسرحى بحيث شمل الجماهير العريضة قد أعطى للعامية فرصة ذهبية فتسللت الى خشبة المسرح ووجدت من حماسة دعاتها لها مامكنها من أن تصبح ندا للفصحى ولاشك أن الرجل العادى يرى فى الفصحى لغة كتاب ويرى فى العامية لغة حياته العادية ومن ثم يرحب بان يرى الحياة التى يترجم عنها المسرح تستخدم لغة الحياة الواقعة لا لغة أخرى • أما حين تكون المسرحية تاريخية أو ذات مستوى اجتماعى أو ثقافى معين فالفصحى سيدة الموقف على المسرح لا شك فى ذلك • والواقع اننى لا أطيق أن أستمع الى مسرحية هزلية باللغة الفصحى لأن النكتة الهزلية تفقد طعمها وذوقها لدى الجماهير اذا لبست ثوبا فصيحا قد يستخدم من المفردات والتعبيرات مالا

عهد للجماهير به ولا غنى للهزل باللغة الفصحى عنـه .

وندلف بعد ذلك الى دور اللغة فى المعترك الدولى وتبدأ بدورها فى حقل التبادل الثقافى والمعروف ان شيوع اى لغة فى عالمنا هـذا يؤدى الى شيوع مايكتب بها من أفكار ويؤدى بالتالى الى شيوع وجهة نظر أصحاب هذه اللغـة والى الزيادة فى أهميتهم الدولية ، ومن ثم تسعى كل أمة من الأمم الى نشر لغاتها فى الخارج وتنفق الأموال الباهظة فى هذا السبيل . والعرب واحدة من هذه الأمم التى تسعى الى نشر لغـاتها . وأن الجمهورية العربية المتحدة بالذات لتسـخو سخاء عظيما فى سبيل هذه الغاية السامية فتنشىء المعاهد فى الخارج وتعير المدرسين بالمجان للدول الأجنبية وتهـدى الكتب والمطبوعات الأخرى وغير ذلك . ولكن ذلك كلـه على خطورته لا يؤدى الى الغرض المنشود اذا لم نعمل نحن هنا فى الداخل على تنمية لغتنا علميا وفنيا بترجمة العلوم والفنون اليها وبجعلها لغة تدريس العلوم المختلفة وبانتاج اضافاتنا الخاصة الى الثقافة العالمية ونشر ذلك باللغـة العربية بحيث يضطر الأجنبى الذى يود الاطلاع على مجهودنا العلمى أن يلتمسه فى لغتنا .

ومن نافلة القول أن ننبه الى فائدة هذه السياسة اللغوية لأن اللغـة فى وقتنا هـذا أصبحت سلعة للتصدير نبيع بهاالأفكار ونشترى بها الأصدقاء .

أما فى حقل السياسة الخارجية فقد ابتدع عالمنا المعاصر مايمكن أن نسـميه دبلوماسـية الخطب والبيانات والتصريحات . ويعمل الساسة بواسطة اللغة على الايضاح حينا والالباس حينا آخر وتصبح اللغة فى بعض صـورها أداة لاخفـاء الأفـكار لا لاظهارها كما قال تاليران . ونستطيع أن نضرب مثلا فيما يلى لهذا النوع من اخفـاء الأفكار : ان أبعـد ماتريد اسرائيل الذهاب اليه أن تميع قضية عـرب فلسطين وتكسب لنفسـها مظهر الدولة الثابتـة الدعائم من الناحية الشرعية — ولكنها لن تطمئن الى هذه الشرعية كاملة والعرب يطالبون من حولها بعودة حقوق شعب فلسطين ويتسلحون . ولـن تستطيع اسرائيـل أن تفصح عن هدفها هذا الا اذا خاطـرت باستفزاز العـرب به وانحياز أصدقاء آخرين اليهم نتيجة لاعلانها عن نواياها وأطماعها ، ولذلك تعمد اسرائيل الى الـدوران حول الفـكرة واظهارها تحت شعار لغوى مقبول سلمى المظهر هو شعار (الصلح مع العرب) .

وفى الحرب تؤدى اللغـة وظيفة فى الداخـل ووظيفة أخرى فى الخارج .

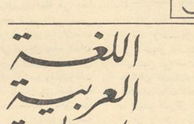
ففى الداخل تسخر اللغة لتوحيدالفكر والاحساس والارادة والعمل فى سبيل المعـركة بتقوية الجبهة الداخلية وشحذ جهودها وتضحياتها فى سبيل هذه المعركة . أما فى الخارج فان اللغة نفسها لا تعرف الحدود اذ تصل الكلمة المنطوقة بالاذاعة الى بيوت الأعداء ومعسـكراتهم ، وتصـل الكلمة المكتوبة بالطائرات الى قـراهم ومدنهم وتعمل كلتاهما على تخـذيل همة العدو وبث الرعب فى صفوفه . أما الحرب البـاردة فكلها لغـة لأنها اشاعات وتكتيلات وتهديدات واغراءات وخـدع وحيل واللغة فى كل أولئك سدة لحمة .

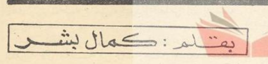
وفى حقل الاعلام تتجه اللغة أساسا الى تحسين موقفنا وتسفيه موقف الخصم ونحن نعمل جاهدين على اختيار الصيغ اللغـوية التى تؤدى الى هاتيـن الغايتين فى مختلف صور التعبير ومن وظائف اللغة هنا أن تعمـد الى ابتكار الاستعمالات الجـديدة للكلمات ذات المعنى الشـائع كما حدث فى تعبير « قاسم العراق » و « حزب البعثيين » و « شـاة ايران » ومن وظائفها أيضا خلق التعبيرات الجديدة مثل « العملاء » و « اخوان الشيطان » و « مجتمع النصف فى المائة » و « الاشتراكية كفاية وعدل » و « الصهاينة » وأحب أن أسـجل هنا أن ظهـور الاذاعة قد وضع فى يد الاعلام سلاحا أشد فتكا من السلاح اذ أصبحت الكلمة المنطوقة أخطر ألف مرة من الكلمة المكتوبة بسبب سرعة وصولها وسـعة انتشارها واقترانها بوسائل التعبير الصـوتى من حماسة الى سخرية الى غير ذلك مما يعوز الكلمـة المكتوبة . ويتضح ذلك من الموازنة بين البـرنامج الموجه والتعليق الاذاعى والنشيد الحماسى والأغنية ذات الهدف ثم بين الصحيفة والمجلة والنشرة .

والكتاب العربى سفير لنا حيث يحل ولنا حسناته وعلينا سيئاته سواء أكان ذلك من حيث الموضوع أم طريقة العرض أم الطباعة أم التجليد أم التوزيع اذ أن كل ناحية من هذه النواحى تحتاج الى الكثير من التفـكير والتحسـين ومراعـاة العوامل التى نصادفها فى المجال الخارجى من جمهور قارىء الى منافسة الى فائدة دعائية مرجوة . أما الموضوعات وطرق العرض فقد وصل فيها الكتاب العربى الى مستويات لا بأس بها ولنـا فى الخـارج سمعة من هاتيـن الناحيتين يحسـدنا عليهـا الكثيرون وأما الطباعة والتجليـد والتـوزيع فلا نستطيع الاغضـاء عن مساوئها على صورتها الحاضرة ويكفى أن نضع كتبنا الى جانب ماتصـدره مطابع بيروت مثـلا لنعلم أن روح الكسب تسيطر على الطباعة والتجليد ولنرى روح الكسب وسـوء الادارة تتضـحان فى عملية التوزيع .

تلك هى وظيفة اللغـة فى مجتمعنا المعاصر اذا ألقينا عليها أضواء الفهم تمكنا من تطويرها والافادة منهـا .

مظاهر التطوّر في اللغة العربية المعاصرة





بقلم : كمال بشر

العربية المعاصرة هى ما تعرف باللغة الفصحى فى العرف العام وقد آثرنا استعمال المصطلح الأول دون الثانى لسببين مهمين فى نظرنا ·

الأول أن استعمال كلمه « الفصحى » قد يوحى الى بعض الناس أننا سوف نشغل أنفسنا هنا بتلك القضية القديمة الجديدة ، قضية الفصحى والعامية ، أو أننا سوف نحاول وضع حدود أو قوانين للفصيح من الكلام وغير الفصيح منه · ولكنا فى حقيقة الأمر ما قصدنا الى هذا أو ذاك ·

الثانى أن الكلمة « الفصحى » تتضمن حكما نهائيا بتفضيل أسلوب كلامى على آخر ، وقضية التفضيل هذه ليست من شأننا فى هذا البحث ، فليس لنا أن نؤكد هذا الحكم أو أن ننفيه أو أن نناقشه ·

وهذه الكلمة ذاتها (كلمة الفصحى) قد توهم بعض المثقفين فتجرهم الى الاعتقاد بأن « فصحى » اليوم هى فصحى الأمس ، او أن لغتنا العربيه فى صورتها الحاضرة هى عربية العصور السالفه ، مخدوعين فى ذلك باطلاق اسم واحد عليهما هو « اللغة العربية الفصحى » ·

أما منطق الواقع والحقيقة فيقرر أن عربية اليوم تختلف اختلافا واضحا عن عربية القرون السابقة ، وأن الأولى ليست الا نوعا من الاستمرار للثانية ، أو أنها صورة من صورها : صورة احتفظت بمجموع الخواص الأساسيه للغه الأصل ، ولكنها انفردت عنها وتميزت منها بخواص أخرى جديدة ·

فاذا ما سميت عربية الماضى « العربية الفصحى » classical Arabic وجب تسمية عربية الحاضر بالعربية (الفصحى) الحديثة neo-classical أو modern Arabic على أن وجهة النظر الموضوعية الصرفة تقتضينا أن نطلق عليها « العربية المعاصرة » ·

والعربية المعاصرة ـ فى رأينا ـ هى لغة الأدب الجيد ، نثره وشعره · وهى لغة مكتوبة فى الأغلب الأعم ، ومن أمثلتها ـ على تفاوت يسير ـ لغة

المؤلفات العلمية والكتب الجامعية والمجلات الأدبية والصحف اليومية ، وما شاكل ذلك من رسائل ووثائق ، وليس من المبالغة فى شىء أن نقرر أن هذه العربية قل أن يتكلم بها المثقفون (بله غيرهم) ، وهم ان حاولوا انما يكون ذلك فى صورة محاضرات جامعية أو أحاديث اذاعية أو خطب عامة • وفى هذه المواقف نفسها يندر ان يرسل المتكلم كلامه دون الوقوع فى خطأ أو لحن أو تحريف ، وينطبق هذا - للاسف - على المتخصصين وغير المتخصصين فى العربية وفروعها •

لهذا كله سوف نهمل هذا القطاع - قطاع اللغة المنطوقة - وسنركز النظر على الصورة الثانية ، وهى لغة الكتابة • ومهما يكن من أمر فالعربية المعاصرة - بصورتيها المكتوبة والمنطوقة - تمثل مرحلة من مراحل التطور فى سلسلة التاريخ الطويل للغة العربية •

وكلمة « التطور » هذه هى الأخرى فى حاجة الى شىء من التوضيح • يستخدم الدارسون هذه الكلمة فى أربعة معان مختلفة ، بحسب وجهة النظر المعينة •

فهى عند بعضهم تفيد « الانتقال من طور الى طور أحسن وأفضل » evolution أو development على أساس أن اللغة بهذا الانتقال قد ادت وظيفتها على خير وجه ، فقابلت حاجات الانسان فى حياته المتجددة ، ولم تقف جامدة أو عاجزة عن مواكبة الحركة الدائبة فى المجتمع الذى يحتضنها •

وهناك فى الجانب الآخر من الصورة رأى يأخذ اتجاها مضادا فى هذه القضية ، ذلك هو رأى التقليديين من المشتغلين باللغة الذين ينظرون الى مظاهر التطور على انها نوع من الخطأ incorrectress وحجتهم فى ذلك أن هذه المظاهر - كلها أو بعضها - تتضمن بالضرورة خروجا عن القواعد المرسومة ، والأحكام المحددة التى سجلت فى كتب اللغة والتى ارتضاها رجال القواعد الموثوق بهم • ومضمون هذا الكلام أن هؤلاء التقليديين جعلوا القواعد « الرسمية » وحدها أساس الحكم بالصواب والخطأ ، وانهم أهملوا فى الوقت نفسه النظر الى الاستعمال الواقعى وقيمة هذا الاستعمال فى الفصل فى هذه المسألة •

وهناك من اللغويين من يتخذ موقفا وسطا ، فيفسر التطور « بالانحراف » drift أو deviation فالتطور فى نظرهم خطوة فى الطريق ، لم تصل بعد الى مرحلة الخطأ الصرف ، وفى استطاعة الباحثين رد أمثلة هذا التطور الى أصلها بالتنبيه عليها وتوجيه مستعمليها الوجهة الصحيحة •

هذه الآراء الثلاثة - كما ترى - تتسم بسمة الذاتية ، اذ كل واحد منها يعطى حكمه متأثرا بوجهة نظر خاصة ، وينظر الى الموضوع من جانب واحد دون الجوانب الأخرى • أما التفسير الرابع والأخير فقد حاول التخلص من هذه المسحة الذاتية ، وفسر التطور تفسيرا موضوعيا على أساس من الواقع والحقيقة ، ذلك هو تفسير التطور « بالتغير » change • فكل ما يعنيه أصحاب هذا الاتجاه هو ان هناك شيئا ما حدث باللغة ، أو ان هناك تغيرات أو ظواهر جديدة لحقت بها فى هذه الفترة الزمنية أو تلك على هذا المستوى اللغوى أو ذاك •

ووظيفة الآخذين بهذا الرأى هى الملاحظة المباشرة ثم تسجيل ملاحظاتهم ورصدها بطريق وصفها كما هى دون أن يعرضوا - فى هذه المرحلة - لموضوع الصواب والخطأ . فاذا ما تم لهم المسح الشامل والاستقراء الكامل للظواهر اللغوية التى يجرون وراءها، جاز لهم حينئذ أن يعمدوا الى عملية التقويم اذا شاءوا أو الى النظر فى الموضوع من حيث الصواب والخطأ •

غير ان الدارسين فى هذه المرحلة غيرهم فى المرحلة الأولى • فهم فى الأولى يتقصون الحقيقة ويسجلونها بطريق الوصف فقط، ولكنهم فى الثانية يصطبغون بصبغة المهيمنين على شئون اللغة الذين يعملون على خدمتها ورعايتها ، فيعمدون الى وضع قواعد وأحكام معينة يسير الناس على هديها ، ويتحركون فى حدود الاطار العام الذى رسموه لها • ولا مانع فى نظرنا من أن يسلك الدارس منهجين اثنين ، ولكن باعتبارين مختلفين وفى مرحلتين منفصلتين دون أن يخلط بينهما بحال من الأحوال• ولا بأس علينا ان نحن اتبعنا هذا الطريق هنا ، فنقرر الحقيقة اولا بطريق الوصف الصرف ، ثم نتبعها - اذا دعت الحاجة - بتقويمها واصدار حكم عليها •

وهذا المنهج ذو المرحلتين قد يكون ضروريا فى بعض الظروف والمناسبات، كتلك الظروف التى تمر بها اللغة العربية المعاصرة ، حيث تتعرض لأنواع وصور شتى من التغير والتطور • وليس من المقبول - من وجهة النظر القومية أو الثقافية أو الاجتماعية - أن نقف مكتوفى الأيدى أمام هذا الصراع الضخم دون أن نبدى فيه رأيا •

ومهما يكن من أمر فلا بد للباحثين فى المرحلة الثانية من الاعتماد على مجموعة من الأسس المهمة حين النظر فى عملية التقويم اللغوى ، وحين ابداء الرأى فى مسائل الصواب والخطأ فى اللغة • هذه الأسس فى نظرنا هى :

١ - استشارة القواعد التقليدية المسجلة فى كتب اللغة ، فقد تعيننا هذه القواعد على تفسير بعض الظواهر أو الحكم عليها بالاجازة أو الرفض •

٢ ــ مدى شيوع الظاهرة الجديدة فى الاستعمال. فعندنا أن الاستعمال الفعلى وقبول هذا الاستعمال فى الوسط اللغوى المعين لا يقل فى أهميته عن القواعد التقليدية من حيث الحكم فى هذا الموضوع .

٣ ــ التفريق بين المستويات اللغوية المختلفة ، فما يصح فى أسلوب كلامى قد لا يجوز فى آخر أو العكس . فاللغة الأدبية مثلا تختلف بحكم وظيفتها فى المجتمع ــ عن لغة التخاطب العام ، ومن ثم تناسبها أحكام وقواعد لا توائم لغة الكلام .

وقد أوجبنا اتخاذ هذه العوامل الثلاثة مجتمعة أساسا للحكم فى قضية الصواب والخطأ ، ليكون الأمر كله متمشيا مع طبيعة اللغة نفسها .

فاللغة ، أية لغة ، تنزع الى اتجاهين متقابلين : اتجاه نحو المحافظة والتقليدية conventionality واتجاه نحو التطور والتغير change او التجديد innovation وهذا الاتجاهان كلاهما مفروضان فرضا على اللغة من أصحابها فى البيئة اللغوية المعينة .

فنحن فى حياتنا اللغوية ــ كما هو شأننا فى أنواع السلوك الأخرى ــ محكومون بعادات الآخرين وتقاليدهم ، اذ يحاول كل واحد منا محاكاة رفاقه وأبناء بيئته فى أساليبهم وطرائق تعبيرهم ، وبذلك يضمن لنفسه مكانا مؤكدا فى هذه البيئة، فلا ينعزل عنهم أو يبدو شاذا فى نظرهم أو دخيلا عليهم . ولا شك أن الأجيال المتلاحقة تكتسب معظم عاداتها اللغوية عن هذا الطريق الطبيعى . وهذا الطريق نفسه ــ طريق المحاكاة imitation ــ من أقوى العوامل التى تتجه باللغة نحو المحافظة على عناصرها وخواصها الأصلية .

ولكننا لا نعدم فى الوقت نفسه أن نعثر على عوامل أخرى مهمة تدفع باللغة نحو اتجاه مضاد ، ذلك هو اتجاهها نحو التغير والتطور . والتطور اللغوى يبدأ عادة على مستوى الفرد أو الأفراد ، بمعنى أن الذى يبادر بعملية التجديد والتغيير فى اللغة انما هو فرد واحد أو أفراد لم يتفقوا عامدين ، وان جاز اتفاقهم فيما ابتكروه بمحض المصادفة . وهذه المرحلة تسمى مرحلة التغير أو الابتداع والتجديد. وتليها مرحلة أخرى هى مرحلة الانتشار التغير dissemination فاذا ما سمع الشىء المبتدع فى عبارة أو فى عبارات ــ كما هو الأغلب الأعم ــ علق بالذهن وترتب على ذلك استعمال الآخرين له ، ونفذ بالتدريج الى نظام اللغة . وهذه المرحلة مرحلة جماعية أو اجتماعية social وتعتمد فى أساسها على القبول الاختيارى ، على حين تدعى المرحلة الأولى بالمرحلة الفردية i di du.l .

والتطور اللغوى يظهر فى كل قطاعات اللغة على سواء : أصواتها وصرفها ونحوها ، وألفاظها ومعانى هذه الألفاظ ، غير أن التطور قد يكون أظهر أو أسرع فى قطاع منه فى قطاع آخر . وليست العربية بدعا بين اللغات فى هذا الشأن ، فقد تعرضت ــ ولا تزال تتعرض ــ للتغير من فترة الى أخرى فى كل جوانبها ، وان لم يشعر ــ أو لم يشأ أن يشعر ــ بذلك بعض الناس .

وان نظرة فاحصة فى هذه اللغة وآثارها المكتوبة عبر العصور المتعاقبة لتشير بوضوح الى أن تغيرا ملموسا لحق بها ، بالرغم من أن علماء العربية القدامى تجاهلوا هذه الحقيقة عندما أخذوا فى تدوينها وتدوين قواعدها . لقد نظر هؤلاء الى التطور الذى أصاب العربية حينئذ كما لو كان ضربا من الخطأ والانحراف يجب طرحه واهماله . ومن ثم أوجبوا وقف الاستشهاد فى مسائل النحو والصرف فى منتصف القرن الثانى الهجرى . وهذا المسلك ــ فى رأينا ــ مسلك غير محمود من وجهة النظر العلمية ، اذ هم بفعلتهم هذه قد أوصدوا أبواب البحث فى وجه الدارسين من بعدهم . وهكذا ظلت العربية تتغير وتتطور دون أن يسجل هذا التطور أو أن يلتفت اليه أحد من الناس .

نعم ، لا ننكر أن بعض اللغويين تناولوا هذا « التطور » بالدرس والمناقشة ، ولكن لا على أنه تطور أو تغير ، وانما بوصفه لحنا وخطأ ، كما يظهر ذلك بوضوح فى تلك الآثار الكثيرة المعروفة بكتب اللحن . وهذه الكتب كلها أو جلها نهجت نهجا متشابها من حيث مادة البحث وطريقة التحليل . انها ركزت جهودها على الألفاظ ومعانيها ، وصورها الاشتقاقية وما الى ذلك من مسائل لا تعدو ميادين الصرف والثروة اللفظية ، ولم يعن منها بالأساليب أو التراكيب وطرائق نظم الكلام الا آثار محدودة ، كدرة الغواص فى أوهام الخواص وشرحها للشهاب الخفاجى .

٥

ونستطيع الآن على أية حال أن نؤيد ما زعمناه من تعرض العربية المعاصرة للتطور ، كما نستطيع أن نشير الى أبعاد هذا التطور واتجاهاته الرئيسية . وسوف نستمد مادتنا من اللغة المكتوبة وحدها . وهى ــ وان اتصفت بشىء من الصنعة والتأنق ــ أولى بالاتباع وأوثق فى الاستشهاد من صورتها المنطوقة ، اذ هذه الأخيرة قلما تصدر عن أصحابها خالية من الخطأ والتحريف .

واقتصارنا هنا على الصورة المكتوبة يجرنا هو الآخر الى صعوبة حقيقية . ذلك أن اللغة المكتوبة تفقد عنصرين مهمين من عناصر البحث ، هما النطق الفعلى والمسرح اللغوى أو موقف الكلام وما يتصل

به من ظروف وملابسات context of situation ولكل من هذين العنصرين أهميـــة بالغة فى الدرس اللغوى الحديث • فالموقف بالنسبة للكلام اطار عام ذو وحدات وعناصر متكاملة متفـاعلة ، وما الكلام حينئذ الا عنصر واحد أو وحدة من هذه الوحدات• فعزل الكلام عن الموقف اذن يحرمه دفء الجـــو الطبيعى ويحيله الى شىء مشوه ممسوخ ، أو شىء جاف جامد ، جمود أمثله المعلمين فى فصول تعليم اللغات • أما النطق الفعلى للكلام فهو بمثـابة اللب والجوهر منه ، وفقدان هذا النطق يســلبه أهم خواصه ، وهى الخواص الصوتيه • ومعنى هـــذا – بكل بساطة – استحالة دراسة الكلام دراســـة صوتيه ، وتعقيد دراسته على أى مستوى لغـــوى آخر • فدراسة الصرف والنحو والمعـــانى دراسة جيدة تحتم الوقوف على الخواص الصـــوتية للكلام المدروس ، وان كان ذلك بصورة مجمله •

●

فدراسة اللغة المكتوبة اذن تقتضينا أن نعمل على تعويض هذا النقص ، وذلك بتوجيه عنـــاية خاصة الى هذين العاملين المفقودين •

فبالنسبة للموقف أو المسرح المفقود نســتطيع أن « نخلق » creata موقفا مناسبا للنص المدروس، وأن نشكله على أساس من خبرتنا الفعلية بالمواقف الحية الموجودة بالفعــل – او التى كانت موجودة – فى البيئة أو المجال الذى ينتمى اليه هـذا النص • وفى كل الحالات يجب أن يكون الموقف « المخلوق » ملائما قدر الطاقة للنص باعتباره وحدة من وحدات هذا الموقف •

أما فيما يتعلق بفقـــدان عنصر النطق فى الكلام المكتوب فنستطيع أن نعالج هذا النقص بتطبيـــق ما نسميه بمبدأ « مضمون النطق the implication of utterance » • ومعناه أن نلجأ الى النص المعين – بعد وضعه فى مسرحه المناسب الذى خلقناه من أجله – فنحاول نطقـــه نطقا طبيعيا لا كلفة فيـــه ولا صـــنعة على شريطة أن يكون الناطق ممثـــلا صحيحا لبيئة النص ، وأن يكون مثقفا ثقافة لغوية تناسب المستوى الذى صيغت على أساســـه اللغة المكتوبة الخاضعة للدرس والبحث •

والمثقف الذى يوائم العربيه المعـاصرة من حيث بيئتها ومستواها اللغوى ينبغى ألا يقل – فى نظرنا – عن متخرج فى احدى الكليات الجامعية المعنية باللغة العربية وشئونها على مستوى التخصص لا التثقيف العـــام •

ومظاهر التطور فى هذه اللغة كثيرة منـــوعة ، ونستطيع أن نلمسها فى كل قطاع من قطاعـــاتها • ونحن – وان لم يكن فى مقدورنا أن ناتى هنا بصورة مفصلة لهذه المظاهر – يكفينـــــا أن نلقى بين يدى القارىء بأمثلة منها تضمن لنا رسم اطار عام لهـذا التطور ، وتشير الى الاتجاهات الرئيســـــية التى يتبعها على المستويات اللغويه المختلفة ، أى مستويات الأصوات والصرف والنحو والألفاظ ومعانيها •

ودراسة التطورعلى المستوى الصوتى بالذاتتقابلها صعوبات جمة • أهمها أن معرفتنا بأصوات العربية فى عصورها الغابرة معرفة ناقصة من وجهـة النظر العلمية • فمعظم ما عرفناه عنها فى هـــذه الفترات مستمد من الأقوال والتصريحات التى سجلها علماء اللغة فى كتبهم وآثارهـــم • وهذه المادة المســـجلة – كتابة – لا تكفى وحدها فى مجال الدراســـات الصوتية ، اذ أن أساس الدرس الصوتى هو السماع الفعلى المباشر ، وفقدان هذا العامل يهدد الدراسة بالاخفاق والتخبط •

ولكنا مع ذلك نستطيع أن نعتمد فى بحثنا هـــذا على عدد من المصادر التى تتعاون فيما بينها للاخـــذ بيدنا الى الحقيقـــة قدر الطاقة • ففيمـــا يختص بالعربية فى الأزمان الماضية يمكننا أن نلجأ الى آراء هؤلاء العلمـــاء ، وبخاصة آراء المتقدمين منهـــم كسيبويه وابن جنى وأمثالهما • أما المرجع فى معرفة الخواص الصوتية للعربيه المعاصرة فهو نطق المثقفين ثقافة عربية متخصصة من أبناء الجمهورية العربية المتحدة •

●

وهناك بالاضافة الى ما تقدم مصـــدران آخران يصلحان للحكم على أصوات العربية فى فتراتهـــما المختلفة • هذان المصدران هما :

١ – المجيدون من قراء القرآن فى جمهوريتنا •• فهؤلاء القراء يمكن الاعتماد عليهم – وان يكن بشىء من الحذر والحيطة – فى القاء الضوء على أصـــوات اللغة العربية فى مراحلها السابقة ، على أساس أنهم توارثوا القراءة الجيدة بالمشافهة الفعلية جيلا بعد جيل • فهم بذلك يعدون من أصدق الناس تصويرا لنطق هذه اللغة ومن أدقهـــم توضيحا لخواصهـــا الصوتية • وهؤلاء القراء أنفسهم مرجع ذو أهميـــة بالغة فى التعرف على أصوات العربية المعاصرة ، اذ أنهم – دون شك – من أجود الناس نطقا لها ، ومن أصلحهم رعاية لنظمها الصوتية •

٢ – القوانين الصوتية المبنية على أســـاس من البحوث العلمية العـــديدة التى أجريت – ولا تزال تجرى – على اللغات المختلفة • فهذه القوانين تستطيع أن ترشدنا الى الاتجاهات العامة التى يحتمـــل أن تسلكها لغة من اللغات ، وفى مقدورهـــا أن تلقى الضوء على ما قد يقابلنـــا من صعوبات فى هـــذا السبيل •

ولقد أدى اعتمادنا على هذه المصادر فيما قمنا به من بحوث صوتيه قليلة الى عدد من الحقائق ، خلاصتها أن العربية المعاصرة قد أصابها التطور الصوتى على مستوى الأصوات المفردة ، وعلى مستوى الكلمة • كذلك تشير الدراسة الى أن بالعربيه المعاصرة أصواتاً مفردة تختلف عما يقابلها فى عربية القرون السابقة • من أهم هذه الأصوات فى نظرنا :

الضاد والطاء والقاف والجيم

فالضاد بحسب نطقنا الحالى توصف بأنها :

صوت أسنانى ـ لثوى انفجارى (= شديد) مجهور مطبق • ونظيره فى المخرج وفى كل صفاته ـ ما عدا الاطباق ـ هو صوت الدال • فلا فرق بين الضاد والدال الا أن الأول مطبق اى مفخم والثانى مرقق لا اطباق فيه •

ولكن الضاد قد جاء وصفه فى كتب اللغويين مخالفا لما ذكرنا ، وخلاصة هذا الوصف هو :

الضاد صوت مخرجه يقرب من وسط الحنك أو هو لثوى ـ حنكى رخو (= احتكاكى) مجهور مطبق • وليس له نظير من حيث المخرج •

فكأن ضادنا تختلف عن ضادهم من حيث موضع النطق ، وكيفية مرور الهواء حال النطق به ، وأهم من هذا كله أن الضاد القديمة ليس لها نظير من مخرجها على حين أن ضادنا لها نظير هو صوت الدال •

والطاء كما ننطقها اليوم تعرف صوتيا بأنها :

صوت أسنانى ـ لثوى انفجارى مهموس مطبق• ونظيره فى المخرج وفى كل صفاته ـ ما عدا الاطباق ـ هو صوت التاء •

أما عند القدماء فالطاء :

صوت أسنانى ـ لثوى انفجارى مجهور مطبق • ونظيره فى المخرج وفى كل صفاته ـ ماعدا الاطباق ـ هو صوت الدال •

وهكذا يتبين أن الطاء القديمة صوت مجهور ، أى تتذبذب الأوتار الصوتية حال النطق به ، على حين أنه مهموس فى نطقنا الحالى أى أن الأوتار الصوتية لا تتذبذب عند نطقه • وكان من نتيجة ذلك أن عدوا الدال (لا التاء) النظير المرقق للطاء ، ولكن صوت الدال فى نطقنا هو النظير المرقق للضاد (لا الطاء) .

ومعنى هذا أيضا أن الطاء القديمة كانت تنطق بما يشبه نطقنا للضاد الحالية، وان الضاد القديمة ليس لها ما يقابلها فى نطقنا المعاصر ، وهو صوت لا نستطيع أن نتبين بشىء من الدقة كيفية نطقه فى القديم ، على أن بعض المحدثين يميل الى القول بأنه كان ينطق بصورة تشبه نطق العراقيين للضاد فى لهجاتهم العامية •

يؤيد هذا الذى زعمناه من وجود فروق بين الطاء والضاد فى القديم وفى الحديث نصوص مشهورة سجلها سيبويه فى الكتاب ونقلها عنه ابن جنى ، وأهم هذه النصوص هو قول سيبويه : « لولا الاطباق لصارت الطاء دالا والصاد سينا والظاء ذالا ولخرجت الضاد من الكلام ، لأنه ليس من من موضعها شىء غيرها » •

والقاف فى نطقنا للعربيه الفصحى المعاصرة تعرف بأنها :

صوت لهوى انفجارى مهموس •

أما عند سيبويه وابن جنى فالقاف :

صوت من أقصى الحنك شديد (= انفجارى) مجهور • وبتطبيق هذا الوصف الأخير على النطق نجد أنه يتمثل فى صوت يشبه صوت «الجاف» التى نسمعها فى بعض بلاد الصعيد والوجه البحرى فى نحو قال Gaal ، أو هو صوت يشبه صوت الكاف الفارسية • ويؤيد هذا الذى ندعيه ما سلكه اللغويون القدامى نحو هذا الصوت من وضعه مع الغين والخاء فى مخرج واحد أو فى مخرج تال لمخرج هذين الصوتين • وهذا الموضع ـ بحسب نطقنا الآن ـ انما هو موضع الجاف . أو نوع من الجيم القاهرية المفخمة •

الجيم بحسب نطقنا :

صوت لثوى ـ حنكى انفجارى احتكاكى مجهور•

أما الوصف الذى قدمه علماء العربيه لهذا الصوت فيتلخص فى أنه :

صوت من وسط الحنك شديد (= انفجارى) مجهور • وهذا الوصف الأخير انما ينطبق على صوت أشبه ما يكون بالجيم القاهرية فى اللغة العامية ، ذلك لأن هذا الصوت هو الذى تتحقق صفة الانفجار فيه ، وان كان مخرجه الى الخلف قليلا • أما الوصف الأول فهو يتمثل تماما فى تلك الجيم المسماة ـ فى العرف العادى ـ بالجيم المعطشة •

وهناك بالاضافة الى هذه الأمثلة الواضحة حالات منوعة يمكن عدها هى الاخرى دليلا على تطور الأصوات المفردة فى العربية المعاصرة على مجال

أوسع مما يظن كثير من الناس ، فلو حكمنا بصحة كل ما جاء عن علماء العربية من أوصاف للاصوات لظهرت لنا فروق أخرى كثيرة ، يتضح بعضها فى الأصوات التالية :

الزاى والسين والصاد

فموضع نطقها عندهم سابق (من جهة الجزء الأمامى من الفم) لموضع نطق التاء والدال والطاء ، على حين نشعر نحن بالعكس تماما فى نطقنا العربى المعاصر •

وحين ننتقل الى مستوى الأصوات فى الكلمة نحس بصعوبة ضخمة للوصول الى نتائج علمية يعتمد عليها فى هذا المجال • ذلك لأن العرب القدامى لم يتعرضوا — فى قليل أو كثير — لأهم الخواص الصوتية على هذا المستوى ، فلم يوضحوا لنا مثلا خواص التركيب المقطعى للكلمة ، ولم يشيروا الى النبر Stress ولم يحددوا مواقعه • ولكنا مع ذلك نستطيع أن نفترض وجود خلافات بين العربية المعاصرة وأختها فى القديم فى هذه الخواص ذاتها • وهذا الافتراض مبنى على المبادىء الصوتية العامة التى تشير الى احتمال وقوع مثل هذه الفروق ، بسبب الاختلاف فى ظروف الحالتين وفى ظروف المتكلمين فيهما كذلك •

وقد يؤيد هذا الذى ندعيه ما نلحظه من خلافات واضحة فى هذا الشأن بين العربية المعاصرة واللهجات العامية ، أو بين لهجة عامية وأخرى فى البلاد العربية ، بل فى البلد العربى الواحد • وهذه أمثلة قد توضح ما نزعم :

نقول فى العربية المعاصرة : فَهِمَ 'fahima

ثلاثة مقاطع أولها منبور stressed

أما فى العاميه فنقول : فِهِم 'f ihim

مقطعان أولهما منبور •

أما فى العاميه فنقول : فهمتُ fa'himtu

ثلاثة مقاطع أوسطها منبور

ونقول فى العربية المعاصرة : فهمت f'himt

مقطعان فقط والأخير منهما منبور •

وهكذا نجد فى هذه الأمثلة فروقا صوتية من أنواع مختلفة • فهناك فروق فى عدد المقاطع وفى كميتها وفى العناصر المكونة لها وفى مواقع النبر كذلك • فليس ببعيد اذن أن يكون قد حدث شىء من هذا القبيل ونحوه فى اللغة العربية فى تاريخها الطويل • أما صعوبة اثبات هذه الظواهر وأمثالها فترجع — كما سبق أن أشرنا — الى عدم وجود مادة صوتية قديمة تساعدنا على المقارنة •

على أن هناك فى كتب اللغة امثلة متناثرة هنا وهناك نستطيع أن نتخذها دليلا على اختلاف الفترات التاريخية أو البيئات اللغوية فى مسائل النبر والتركيب المقطعى •

ورد فى كتب النحو أن الأسماء الخمسة يجوز فى اعرابها وجهان (بل ثلاثة) • أحدهما الاعراب بالحروف ، والثانى الاعراب بالحركات ، فنقول جاء أبوه على الأول (وهو المشهور) وجاء أبه على الثانى •

وعندى أن المسألة يمكن تفسيرها تفسيرا صوتيا خالصا• ذلك أن بعض القبائل نطقت «أبوه» بجعل النبر على المقطع الثانى (بو) فساعد ذلك على طول الحركة وهى الضمة ولكن رمز اليها بالواو لانها علامة الضمة الطويلة كما هو معروف • أما « أبه » بدون واو فيرجع الى أن قبائل أخرى غيرت موضع النبر ، بحيث جعلته على المقطع الأول (أ) دون الثانى ، ومن ثم بقيت الضمة قصيرة ولم تطل حيث لم يوجد ما يساعد على ذلك •

من هذا كله نستطيع أن نصل الى نتيجة واضحة هى أن هناك اتجاها ملحوظا نحو التطور الصوتى فى اللغة العربية المعاصرة ، وأن هذا الاتجاه مستمر فى طريقه الى مدى لا ندرى نهايته • ومما يؤيد هذا الاستمرار ميل الكثيرين من المثقفين ثقافة عربية الآن الى ترقيق اصوات التفخيم (وهى الصاد والضاد والطاء والظاء) ، والى نطق الثاء كما لو كانت سينا والذال كما لو كانت زايا والظاء كما لو كانت زايا مفخمة •

كما تميل النساء المثقفات (وغيرهن بالطبع) الى ترقيق الراء واللام فى غير مواضع الترقيق ، والى اتباع التاء المكسورة (كما فى نحو أختى) بهاء نفسية aspiration •

قد يقال ان هذا النطق وأمثاله ضرب من الخطأ ، ولكن الحقيقة لا تزال ثابتة ، وهى وجود اتجاه حقيقى نحو التطور الصوتى فى العربية المعاصرة •

فاذا ما انتقلنا الى التطور فى مجال الصرف ألفينا أن أكثر ما جاء من هذا الباب لا يزال — فى عرفنا — ينظر اليه على أنه خطأ ، وذلك لوجود آثار صريحة تنص على خلافه • ولعدم شهرة ما ورد من هذا القبيل بين من يعتمد عليهم من المثقفين • وامثلة هذا النوع كثيرة وكلها ترجع الى الجهل بالصيغ وأوزانها أو عدم معرفة ضبطها معرفة دقيقة أو الى عدم معرفة أصول الكلمات وقواعد الاشتقاق والتصريف الخ .. من ذلك مثلا : بدء (بكسر الباء) بناء (بضم الباء) ، سهولة وصعوبة (بفتح السين والصاد)

ومنه كذلك ، قولهم يزيد بضم اليـاء لجعله متعديا من أزاد على حين أن ثلاثيه وهو زاد متعـد بنفسه ، قال تعالى : « يزيد فى الخلق ما يشاء » •

ومنه قولهم : مغلوق وقفل ، والصحيح مغلق من اغلق واقفال من أقفـل ، وقاصر عالى ، والصحيح مقصور على ، ومحتم والصحيح محتوم •

وأمثلة هذه الأخطاء كثيرة ويستطيع أن يدركها كل من له معرفة جيدة بمسائل الصرف وقوانينه •

وهناك فى الجانب الآخر أمثلة خرجت عن الأصل، ولكنها شاعت فى الاستعمال المعـاصر الى درجة تؤهلها للدخول فى نظام اللغة وقوانينهـــا • من ذلك مثلا :

تقييم فى مقابل تقويم المنصوص عليهـــا فى كتب اللغة ، ومنه أيضا عضوة بالتأنيث فى اطلاقها عـلى المرأة •

ومن هذا الباب الأخير كذلك أمثلة عدة استعملت على أنها من قبيل المفرد وعوملت معـاملته على حين أنها فى الأصل جمع ، نحو : مصران وبرام ، فهمـا جمعان ومفردهما مصير وبرمة ، أما المصارين فهـو جمع الجمع •

ومن هـذا القبيل كذلك مفردات جمعت على غير جموعها المنصوص عليها فى كتب اللغه ، مثل : نوايا جمع نية ، ولو اتبعت الأوزان المنصوص عليها أوجب القول : نيات •

قد يذهب البعض الى أن هذه المجموعات الأخيرة من الأمثلة هى الأخرى ضرب من الخطأ الصريح • والحق أن هذا القول يعتمد فى حكمه على القواعـد المنصوص عليها وحدها ، ويهمل اهمالا تاما شهرة الاستعمال وقيمة هذه الشهرة فى مقياس الصـواب والخطأ •

وعندى أن هذه الأمثلة ونحوها تحتاج الى دراسة من المهيمنين على شئون اللغة على شريطة ان ينظروا الى الموضوع نظرة عادلة غير متحيـــزة الى جانب دون الآخر •

على أن ما يشبه هذه الأمثلة قد وقع فى النصوص القديمة ، وقد تأوله بعضهم وعده بعض آخر خطأ ، من ذلك قول عدى بن زيد :

ويلومون فيك يا ابنة عبد اللــــ
ـــه والقلب عنــدكم موثوق

يقولون : كان الواجب أن يقول « موثـــق » لأن الفعل هو « أوثق » • ومثله ما جاء فى قول لبيد :

أو مذهب جــــدد على ألواحــه
الناطق المبروز والمختـــــــوم

مع أن الفعل « أبرز » ، وتأوله ابن جنى على أن أصله المبروز به (الأخطاء الشائعة للاستاذ محمـد على النجار ج ١ ص ٦ – ٧) •

وهناك فى اللغة العربية المعاصرة أمثلة أخرى من التطور الصرفى ، وان كان ذلك بطريق سـلبى ، بسبب اختفاء الصيغة أو قلة استعمالها •

من ذلك مثلا قلة استعمال صيغ التصغير ، ولما الجازمة للمضـارع ، وبعض أدوات الشرط ، نحـو كيفما واذ ما وهمزة الاســـتفهام ، وأدوات النداء ما عدا « يا » •

أما أهم مظاهر التطور فى العربية الحديثة فمجالها النحو والتراكيب • وكثرة ورود أمثلة التطور على المستوى النحوى ترجع الى أسباب عدة أهمهـا فى نظرنا سببان :

الأول : تتميز اللغة العربية بخاصـتى التصريف والاعراب ، ولهاتين الخاصتين دور كبير فى عملية التطور على مستوى التراكيب • فالأسماء والأفعـال فى هذه اللغة تتصل عادة بعلامات صوتية أو عناصر صرفية فى أوائلها وأواخرها وأحيانا فى أحشائها هذه العناصر (= سوابق prefixes ولواحق suffixes) تشير بوضوح الى نوع الصيغ المتصلة بها والى الوظائف الصرفية والنحوية لهذه الصيغ • ومن ثم نستطيع أن نصوغ الجملة الواحدة فى صـور عدة من حيث التقديم والتأخير فى ترتيب كلماتها ، دون أن نخشى تعقيد المعنى أو لبسه ، لأن هذه العناصر تقـوم بوظيفة الارشاد الى المعنى المقصود •

والاعراب هو الآخر يقوم بهذا الدور وبصـورة أقوى وأوضح • ان الاعراب هو صـمام الأمان حين تشتبه علينا الأمور وتتعقد بسبب ما قد يقـع من تغيير أو تبديل غير مألوف فى مواقع الكلمات ، على أن الاعراب نفسه من ناحية الشكل انما يتحقق فى صورة دلالات صوتية (= علامات الاعـراب) هى العناصر الصرفية السابقة أو بعضها أو ما شاكلها ، وكلها علامات مادية حقيقية ، من شـأنها أن تأخذ بيد السامع أو القـارىء فتعينه على الفهـم وتذوق المعنى المراد •

الثانى – لقد كان لاتصالنا بالثقافات واللغـات الأجنبية أثر كبير فى تراكيب العربية وأساليبهـا ، بحيث ظهرت فى العربية المعاصرة أمثلة من الأساليب الحديثة المتطورة التى تنهج –كلها أو بعضها – نهجا يخالف المألوف أو المشهور فى العربية القـديمة • وبعض ما عثرنا عليـه من عبـارات وتراكيب مستحدثة يمكن رده مباشرة الى أصلـه الأجنبى ، كما سوف يتضح لنا فيما بعد •

وان ننس لا ننس فى هذا المجال ما للترجمة من اللغات الأجنبيـــة الى العربية من دور فى هـــذا

السبيل . فالترجمة – مهما كان المترجم متضلعا في اللغتين ذواقة لمعانيهما – لا بد أن تجره الى مخالفات في قوانين التصريف وقواعد نظم الكلام ، ثم لا تلبث هذه المخالفات أن تذيع ويتسع مجال استعمالها حتى تصبح قاعدة جديدة أو تكاد تكون كذلك .

ولسوف نحاول في السطور التالية ان نثبت حقيقة هذا التطور وأن نبين – في ايجاز – الخطوط العريضة التي رسمها في العربية المعاصرة . ولكن يجدر بنا قبل هذه الخطوة أن نثير نقطة أساسية في الموضوع ، تلك هي : ما المقصود بالنحو .. أو بعبارة أدق ، ما وظيفة النحو ؟

النحو في نظر بعض المتأخرين من النحاة وظيفته البحث في الاعراب ، اذ هو على حد تعبيرهم « علم يعرف به أحوال أواخر الكلم اعرابا وبناء » . ومن المدهش أن يتمسك بعضهم بهذا التعريف الناقص، على حين يقومون هم أنفسهم بدراسات عملية تطبيقية تتجاوز هذه الحدود الضيقة ، كما يظهر ذلك في مناقشتهم لقواعد التقديم والتأخير والمطابقة الخ .

وعندنا أن النحو يبحث في أربعة جوانب متصلة غير منفصلة ، هي :

١ – الاختيار أو الانتقاء selection او choice

٢ – الموقعية word-order

٣ – المطابقة concord

٤ – الاعراب .

وهذه نبذة قصيرة عن كل جانب من هذه الجوانب، مع التوضيح بالامثلة التيوقع فيها التغير أو التجديد في النحو بالمعنى الذي أردناه وهو علم التراكيب وهذا ما يقابل المصطلح الأجنبي Syntax

الاختيار أو الانتقاء : ويقصد به أن يعمد المتكلم (أو الكاتب) الى اختيار صيغ معينة صالحة للتعبير عن معانيه ، وجائز ارتباطها – بحسب العرف والتقليد اللغويين– بعضها ببعض او بغيرها في التركيب المعين .

فالقاعدة في العربية المسجلة قواعدها في كتب النحوأن اختيار صيغة المضارع مسبوقا بلم الجازمة يمنع (عادة) اختيار صيغ أو كلمات معينة وربطها بهذا المضارع .

أما العربية الحديثة فقد ورد فيها على لسان شوقي :

ان عزا لم يظلل في غد
بجناحيك ذليل مستباح

فاستعمل المضارع المنفي بلم وربطه بلفظة غد ، وهو في عرف المنطق تناقض ، لأن المضارع المسبوق بلم يفيد المضي ومع ذلك اتصل بما يفيد الاستقبال وهو « غد » . قد يعد هذا في نظر بعضهم مخالفة نحوية ، ولكن كثرة الأمثلة المصوغة على هذا النمط ونحوه تدل على أنه اتجاه جديد .

جاء في صحيفة الأهرام (١١–٤–٦٦) العنوان الرئيسي التالي :

« أسرار خطيرة تذيعها النيابة أمس في محاكمة قيادة التنظيم السري للاخوان » .

حيث استعمل الفعل المضارع (الدال على الحال أو الاستقبال في الأصل) مرتبطا بكلمة أمس الدالة على المضي . قد تعترض القواعد التقليدية على هذا الاسلوب ، غير أن واقع الاستعمال المعاصر يؤكد لنا كثرة استخدام مثل هذا الأسلوب في الصحافة بالذات .

على أن الاختيار لا يمكن فهمه على حقيقته الا بدراسة الموقعية ، اذ هما مرتبطان أشد الارتباط ، وليس من السهل فصلهما بعضهما عن الآخر ، كما تبين ذلك من مناقشة الأمثلة السابقة ، وكما سيتضح فيما يلي .

الموقعية : البحث في قوانين تاليف الكلام ، وقواعد ترتيب الكلمات في الجملة والعبارة من أهم ما يعنى به الدرس الحديث ، بل قد وردت الينا آثار تدل على عناية بعض الأقدمين به . فما النظم عند عبد القاهر الجرجاني – فيما أفهم– الا ما أطلقنا عليه « الاختيار » و « الموقعية » مجتمعين . غير أن الاختيار عند عبد القاهر يتضمن اختيار الأفضل والأنسب للمقام حتى تتم بلاغة الكلام . ولكن الاختيار هنا انما يرمي الى اختيار ما تصح به العبارة من الوجهة النحوية التركيبية فقط .

ولقد ظهرت في العربية المعاصرة اتجاهات جديدة من حيث ترتيب الكلمات وموقعها في الجملة . وأمثلة هذه الاتجاهات يمكن تقسيمها قسمين رئيسيين :

قسم تأثرت أمثلته بطريق مباشر او غير مباشر بما يجرى في لغات أجنبية كالانجليزية والفرنسية ، وقسم تعد نماذجه – في نظرنا – نماذج مستحدثة ، ولم نستطع حتى الآن ردها الى أصولها أو التعرف على مصادرها . وهذا النوع الأخير من الجائز أن يكون له نظير في العربية القديمة ، ولكنه نظير غير مشهور أو غير معروف لنا . ومن الجائزكذلك أن يتناول بعض الدارسين هذه الأمثلة من وجهة نظر مخالفة ، فيعمد الى تاويلها أو تخريجها على وجه من الوجوه .

القسم الأول : ظهرت فى العربية المعاصرة تراكيب وأساليب لا حصر لها تبدو فيها المسحة الأجنبية واضحة، بل ان الفقرة بأكملها أو العديد من الفقرات قد تجىء على نمط الأسلوب الأجنبى فى النظم، وأكثر ما يقع ذلك فى كتب الدواوين ونحوها ، كما فى التالى :

بالاشارة الى خطابكم المؤرخ فى ٢٠ أبريل سنة ١٩٦٦ أنهى الى سيادتكم .... فهذه العبارة فى رأينا نقل مباشر للعبارة الانجليزية :

With reference to your letter dated April 20th 1966, I inform you ...

على أنه فى مقدورنا أن نصنف مظاهر التأثر بالأجنبى الى صنفين اثنين :

أحدهما : تتمثل نماذجه فى تراكيب هى تعريب صرف لمعان أجنبية. فالكلمات عربيه خالصة والنظم الذى خضعت له هذه الكلمات فى الجملة ليس فيه خروج عن قواعد العربية، ولكن المعنى المعبر عنه بهذا التركيب أو ذاك معنى مستحدث ، من أمثلة ذلك ما يلى :

يلعب دورا هاما ، ويقابله بالانجليزية
He plays an important part ......

(كلام) للاستهلاك المحلى ، ويقابله بالانجليزيه
For local consumption

قبلت التحدى ، ويقابله بالانجليزيه
I accepted the challenge

و فلان يلعب بالنار ، ويقابله بالفرنسية
Jouer avec le feu

أعطاه صوته (فى الانتخاب) ويقابله بالفرنسية
Donner sa voix

فلان يصطاد فى الماء العكر ، ويقابله بالفرنسية
Pêcher en eau trouble

أما الصنف الثانى فقد جاءت أمثلته مخالفة لمشهور القواعد التقليديه أو جاءت على غير وجه من وجوه العربية فى القديم من حيث النظم وموقع الكلمات أو الأدوات فيها . وأمثلة هذا الصنف لا حصر لها فى العربية المعاصرة ، وأصبحت دليلا على اتجاهات أكيدة فى هذه اللغة .

ومن أكثر هذه الأمثلة ورودا تلك التى يتقدم فيها الظرف أو الجار والمجرور على متعلقه بحيث أصبح هو القاعدة أو يكاد يكون كذلك نحو :

فى حديث سبق ، اشرنا الى كذا وكذا ، ومن جهة أخرى يحق لنا أن نفعل ... ومن هذا الباب كذلك نحو قولهم :

وفيما يتعلق بكذا فان الرأى المشهور هو كذا ، حيث يقدمون الجار والمجرور ثم يبدءون العبارة بعد ذلك بحرف الفاء بلا داع واضح .

كما أن الظاهرة الشائعة الآن فى الجملة المكونة من اسم وفعل هى تقديم الاسم على الفعل، على عكس المشهور فى الأساليب العربية فى الفترات السابقة .

هذه الأمثلة ونحوها لها وجه فى العربية ، ولكنها ليست على نمط الأساليب الأكثر شيوعا واستعمالا فى التراث .

وهناك من جهة أخرى أمثلة تعد خطأ فى نظر التقليديين ، ولكنها كثيرة الورود فى اللغة المعاصرة منها مثلا :

أنا كمصرى ، المصوغة على نمط
(I am) as an Egyptian

كلما اجتهدت كلما حصلت على مال أكثر ، المصوغة على نمط
The more you work the more you get more money

دخل على بينما كنت أقرأ
He came in while I was reading

فالقواعد التقليدية لا تجيز المثال الأول وترى ان تكون صياغته هكذا : أنا مصريا أو أنا بوصفى مصريا ، وتوجب حذف كلما الثانية من المثال الثانى، كما لا تجيز وقوع بينما فى هذا الموقع، اذ هى مما له الصدارة فى العربية .

القسم الثانى : ونماذج هذا القسم تدل على اتجاهات جديدة فى الموقعية وترتيب الكلمات والأدوات كما فى القسم الأول ، ولكنها غير متأثرة ـ على ما نعلم ـ بلغات أجنبية . وأمثلة هذا القسم كثيرة أيضا ، وهى ذات أنواع وأنماط عدة ، بعضها يمكن تفسيره أو تأويله على وجه من الوجوه غير المشهورة فى عرف الأقدمين .

وفيما يلى أمثلة لأهم هذه الألفاظ :

١ ـ مصاحبات جديدة New colligations

نشأت فى العربية المعاصرة أساليب احتوت على « مصاحبات » مرفوضة فى القديم ، أو معترض عليها ، أو جاءت على غير المشهور المعتد به . من ذلك مصاحبة السين أو سوف للا النافية نحو سوف لا أسافر بدلا من لن أسافر . ومنها كذلك مصاحبة قد للا النافية ، مثل قد لا يجوز مكان ربما لا يجوز الخ .

٢ ـ وقوع الأدوات فى غير مواقعها

يلاحظ أن الأدب الحديث قد استخدم الواو استخداما متوسعا فيه ، فكثيرا ما يضعها فى مواضع

لا يمكن تفسيرها بحسب القواعد التقليديه ، وأظهر هذه الحالات عندما تستخدم مصاحبة لبل ، كما فى نحو : أنا لا أوافق على هذا بل ولا أحب أن اناقشة، أو عندما تظهر مصاحبة لحتى ، مثل : وحتى هذه الحالة لا تصلح • والمعروف فى القواعد التقليدية أن حتى الابتدائية لا تسبقها الواو •

ومن هذا الباب كذلك نحو منذ نشأ وهومجتهد فى مقابل هو مجتهد منذ نشأ ، فالواو هنا ليست لها وظيفة ظاهرة ، وليس لها من تفسير الا أنها أسلوب مستحدث •

٣ ـ فى التعدى واللزوم :

نلاحظ كثرة استعمال الفعل اللازم متعديا او جعل المتعدى الى واحد متعديا لاثنين ، ومثال الاول قولهم : الأحلام التى عشناها فى مقابل •••• التى عشنا فيها • ومثال الثانى قول شوقى :

وتهديك الثناء الحر تاجا
على تاجيك مؤتلقا عجابا

وقد يجيء العكس بأن يجعل الفعل المتعدى لازما والمتعدى لاثنين متعديا لواحد بنفسه وللاخر بحرف الجر ، كما فى المثالين التاليين :

أمكن لنا فى مقابل أمكننا
وأودعت فى هذا البحث خلاصة عملى فى مقابل أودعت هذا البحث خلاصة عملى •••

٤ ـ استعمال حرف مكان آخر

التبادل بين الحروف ظاهرة معروفة فى العربية فى القديم ، ولكن الأمثلة التى نوردها ليست من هذا القبيل فى شيء •

من ذلك استعمال « ان » الشرطية فى مكان يستوجب الهمزة ، وذلك فى المقولات الموضحة لعبارة « لا أدرى » و « لا أعرف » الخ نحو :

لا أدرى ان كان نجح أو لا ، فى مقابل لا ادرى أنجح أم لم ينجح •

ومنه قولهم : أنا واثق مما يقول ، فى مقابل أنا واثق بما يقول •

وهناك أمثلة اخرى مما تفيد ميل العربية المعاصرة الى التجديد والتطور فى قواعد الموقعية أو النظم بطرفيه : الاختيار والموقعية • وليس يسمح المجال هنا بذكر هذه الأمثلة كلها ، ولننتقل الى الجانب الثالث من جوانب البحث فى النحو :

المطابقة : من وظائف النحو البحث فى قوانين المطابقة أو عدم المطابقة بين الصيغ المختلفة من حيث الجنس (التذكير والتأنيث) والعدد (الافراد والتثنية والجمع) والتعريف والتنكير الخ •

وفيما يتعلق بهذه الناحية لم نعثر حتى الآن فى العربية المعاصرة على أمثلة تكفى للقول بوجود اتجاه نحو التجديد أو التطور فى هذا الشأن • وكل ما ورد من هذا الباب لم يزل فى دائرة الأخطاء أو هو مما يمكن تفسيره بوجه من الوجوه •

من ذلك مثلا قولهم : مصران أعور ، بافراد الصفة على توهم أن « مصران » مفرد ، كما سبق ان أشرنا الى ذلك ، ومثله كذلك قولهم برام كبير ، على حين تنص القواعد على وجوب أن نقول : برام كبار •

الاعراب : لم يرد فى العربية المعاصرة أمثلة نستنتج منها أى اتجاه جديد فى الاعراب وكل ماورد منها فهو اما خطأ صريح ، أو هو مما يتمشى مع القديم • وذلك كما فى قول الشابى :

ولا بد لليل أن ينجلى
ولا بد للقيد أن ينكسر

بتسكين آخر الفعلين لضرورة الشعر • ومنه قول الآخر :

ترامت السنون بيننا دما ونار

حيث وقف على المنصوب (المنون) بالسكون والوقوف على المنون المنصوب يكون بالألف على المشهور •

ومنه كذلك صرف الممنوع من الصرف ، كما فى قول شوقى :

يخطرن بين أرائك ومنابر
فى هيكل من سندس فيـاح

حيث نون « أرائك ومنابر » •

ولسنا نظن أن تغييرا **مقبولا** سيقع فى اعراب العربية ، لأن هذا الاعراب هو علمها وخاصتها الأولى ، أو قل ـ بعبارة أدق ـ انه تلخيص لكل مميزاتها النحوية •

كل ما مر قصد به توجيه النظر الى أن العربية المعاصرة قد خضعت لشيء من التغير على مستويات الأصوات والصرف والنحو • أما على مستوى الالفاظ ومعانيها ، فهذا شيء واضح يستطيع أن يدركه أى مثقف عادى ، وهو أمر أسهل وأبسط من أن نشغل أنفسنا به هنا ، لذا آثرنا تركه •

وبعد ، فهذه ليست دراسة كاملة لمظاهر التطور فى العربية المعاصرة ، وانما هى بمثابة دعوة الى طلاب العربية والقائمين على أمرها ، ليشاركونا فى النظر فى لغتنا القومية ، فلا نقف منها مكتوفى الأيدى ، وهى فى طريقها مسرعة غير مكترثة بنا ، وربما ـ ان نحن عجزنا عن مواكبتها بالنظر فى قضاياها ـ انعزلنا عنها وعجزنا عن التأثير فيها وحرمنا التأثر بها •

أجناس الأدب

ومستويات اللغة

بقلم الدكتور
محمد غنيمي هلال

للأجناس الأدبيـــة ، من حيث مواقفها العـــامة ، أثر فى العبـــارات والتراكيب ، حتى تتلاءم وطبيعة الجنس الأدبى المصوغه فيه ·

ونقتصر هنا على الحديث فى الأجناس الأدبية الكبرى التى تتمثل فيها هذه الخصائص التعبيرية اللغوية أوضح ما تكون ، وهى الخطابة والشـــعر الغنائى والمسرحية ·

وطبيعى أننا انما نقصد العبارات والتراكيب فى خصائصها الفنيـــه ، وهى الخصائص التى تثرى اللغه وتعقد مدلولاتها ، سواء فى الألفاظ أو فى انتظامها فى الجمل · وبهذا الاثراء تتسع العبارات والأصوات الدلالية المحددة لتأدية ما لا حصر له من المعانى التى تبعث عليها الرغبة أو تدفع اليهـا الحاجة فى علاقات الناس بعضـــهم ببعض أو فى علاقتهم بالأشـــياء · فالكلمات فى الأصل قد لحظ فيها أهل كل لغــه من اللغات جانبا علميا له طابعـــه الذاتى حين يلحظون فى كل لفظ من الألفاظ ما يتصل باستجابته لهـــذا الطـــابع الذاتى ، فهم يدلون بها على مســـلك من المسالك تجاه الأشـــياء أو الواقع من حيث توافقهم مع هذا الواقع أو نفورهم منه · ثم تنحو الكلمة فى استجابتها لهذا المسلك المدلول عليه منحى التعميم، بالانتقال من الدلالة على الحاجة الفرديه الذاتية فى الأصل ـ بمقتضى مبعثها ـ الى الحاجة المشتركة ، فيصير المظهر الملحوظ فى اللفظ خاصة جوهرية للشىء والمدلول عليه فى ذاته · وبهذا الانتقال تتجه الدلالات للالفاظ الى طابع موضوعى عام تستقل فيه عن اطابع الذاتى الأصيل ، ومن ثم تكتسب مرونة فى غناها بمدلولات جديدة متفرعة عن الأصل الوضعى ، وقد تكون علاقة المدلولات الجديدة بالقديمه مظهرا آخر من المظاهر يتعلق بدرجة مدنية أهل اللغة وتفاعلهم مع محيطهم وبيئتهم الطبيعيـــة ، بل قد تكون تلك العـــلاقة هى التضاد بين المعنى الجديد والقديم · ولتقارب أصوات الألفاظ أو اتحادها أثر كبير فى تفرع هذه المدلولات كذلك وتعقدها من حيث علاقات الألفاظ بعضـــها ببعض · فاذا انتقلنا من ذلك الى دلالات الألفاظ فى القرائن بانتقالها من معناها الأصلى الى معنى طارىء موقوت لهدف ما ، تكاثرت تلك المدلولات كذلك على حسب موضع الكلمه فى مختلف التراكيب ، ثم على حسب تآزر أصـــوات حروفها فى موقعها · وهكـــذا تكون كل كلمة فى ذاتها وفى موضعها من التراكيب مجالا لحشد من المعانى والصور ، ووسيلة لعقـــد ضروب من الصلات النفسية والاجتماعيه ، استطاع الانسان بها ان يطوع قليلا من الاصوات المتناهية لما لا يتناهى من المعانى والمشاعر ، حتى لا تزال ولن تزال التأثيرات النفسية والجمالية ـ شأنها فى ذلك شأن الادراكات العلمية ـ ميادين تجديدات واثارات على توالى العصور بتغيير وسائل الأداء اللغوى أو تعميقها ، وان كانت مادتها أصلا ترجع الى ألفاظ محصوره العدد وصور تراكيب محدودة فى قوانينها · وتلك أعجوبة اللغة · على أن تفرع المدلولات اللغوية وطاقاتها التأثيرية لا يقتصر على الألفاظ فى معانيها الأصلية والمتصـــلة بالأصلية ثم المجازية فى التراكيب ، والصـــوتية المشتركه فحسب ، بل يشمل كذلك ملاءمتها للعمل الادبى بوصفه كلا ، وفى هذا الكل يتمثـــل الجنس الأدبى فى قالبه الفنى ومقتضياته ·

وبين أجناس الادب الذاتية التى تتمثل اساسا فى الشعر الغنائى بصوره المختلفة ، وأجناس الادب الموضوعية من مسرحية أو قصة وما يلتحق بهما ، يقوم جنس « الخطابة » كما كان فى القديم وكما تدعو اليه أحيانا ضرورات العصر الحديث • وقل من يبحث الآن فى مقتضيات أسلوبه وتعبيراته ، أو يأتى فيها بجديد اذا بحث ، لأن العهد بها وبأمثلتها قديم، وكان قرين ميلاد البلاغة القديمة منذ أرسطو ، بل كثيرا ما نسمع ـ ونحن بسبيل عبارة غير مرضى عنها فنيا ـ أن تلك « عبارة خطابية » • وما ذلك الا صدى للتفرقة الراسخة بين أسلوب الخطابة فى خصائصه العهيدة من ناحية وما تتطلبه أساليب الأجناس الادبية الأخرى فى عصورنا الحديثة سواء منها الذاتية والموضوعية • وينبغى أن نعرض لجوهر هذه التفرقة من وجهة النظر الجمالية الخالصة •

فاخص خصائص الجنس الخطابى أنه خارجى فى علاقته بنفس الخطيب ، وأنه نفعى مباشر • فأما السمة الأولى فمظهرها حرص الخطيب على التوجه الى جمهوره ، وتجاوزه نطاق ذاته حتما ـ الا فى حدود ما يستغله من الحديث عن صفات شخصيته بقصد التأثير فى الجمهور بقدر ما استقر فى ذهن جمهوره عنها ـ وهو مع ذلك غير موضوعى فى وسائله ، اذ من الواضح أنه يبدأ وقد انحاز الى راى أو جانب ، سواء كشف عنه منذ البدء أم مهد للكشف عنه بتهيئة مشاعر جمهوره أولا • فلا تستلزم الخطابة ـ من حيث هى ـ أن تكون ذاتية تكشف عن الجانب النفسى للخطيب ، ومع ذلك لايصدق عليها أنها موضوعية محايدة تجاه ما تعرض له من مسائل ، ثم أن الخطابة ، برغم مايجب توافره فى عباراتها من سمات فنية ، تظل ذات غاية محددة يقصد اليها الخطيب ، من سياسيه أو اجتماعية أو شخصيه • وهذه الغاية مباشرة سافرة ، هى محور خواطر الخطيب ، وعماد استدلاله •

وسواء كانت الخطابة احتفائية أم استشاريه أم قضائية ـ ولا عهد لأدبنا بالنوعين الاخيرين فى معناهما الأرسطى الا فى العصر الحديث ـ لاتستلزم دائما الاستدلال المنطقى الصلب ، بل قد يكون البرهان المسوق فى صورة منطقية رصينه من دواعى فشل الخطيب • ذلك أنه بصدد التوجه الى عقليه الجماعات ، وهى العقلية التى تستثار اكثر مما تتحرك للتفكير فى الحقائق ، فيؤثر فيها الايهام اكثر مما تقودها الحقائق فى ذاتها • فاذا أحسن الخطيب فى افادته من الاستشهاد بأقوال الثقات لدى الجماهير ، واجاد فى عرض ما استشهد به ، كان هذا الاستشهاد أقوى لدى الجماعات من شهادة الشهود العدول ومن الاقيسه العقليه ، بل أقوى من ايراد توكيدات أولئك الشهود مجردة • ولهذا كثيرا ما يقترن استشهاد الخطيب بالاقوال المشهوره بصيغ توهم سلفا بالتسليم بالمسالة موضوع الاقناع الخطابى ، كالاستفهام التقريرى ، والانكارى ، والتعجب ، والعبارات المشتملة على لام الجحود وما اليها •• وهى عبارات يتوجه بها الخطيب مباشرة الى الحضور • ومن خلال التصريح يتهيأ له الايهام الخطابى ، وهو توليد الاقناع الشعورى بصورة الحقيقة عن طريق الصياغة اللفظية • ومن وسائل هذا الايهام الذى يقوم مقام الاقناع المنطقى لجوء الخطيب الى التكرار اللفظى للالحاح على المعنى ، بسلطان النطق فحسب • ويدعم هذا التكرار الفصل فى موطن الوصل ، اذ أنه يوهم الجمهور أن الشخصيه التى تتحدث ، أو يتحدث عنها الخطيب ، قد قامت بجهود كثيرة ، على حين لم تقم فعلا الا بأمر واحد• كأن يقول الخطيب مثلا ـ وهو بسبيل بذل وساطته فى شفاعه لدى أحد الناس فى أمر عام ـ : « أتيت اليه ، حدثته ، رجوته، توسلت اليه ، فلم تثمر جهودى شيئا ••• » • ومن وسائل هذا الايهام الخطابى وجه سماه ارسطو فى بلاغته : « المحاجه بالزمن » ، ونضرب له المثل الذى ضربه أرسطو فى الافادة من ملابسات الزمن بين الماضى والحاضر : أن هارموديوس كان قد اعترض على اقامه تمثال لافيكراتس ـ جزاء نه على بلائه فى خدمة الوطن ـ فأجاب افيكراتس على الاعتراض بقوله : « لو أنى طلبت اليك التمثال قبل ان أقوم بهذه الأعمال ، جزاء لى عليها ، لكنت قد لبيت طلبى . أوترفضه الآن بعد ان بلوت هذا البلاء ؟ لاتعد بالجزاء على خدمتك قبل القيام بها لتخلف الوعد بعد أن تؤدى لك الخدمة » (ارسطو : الخطابه ١٣٩٧ ب ٢٣ـ٢٨) •

وواضح أن هذا الزام خطابى ، كان هارموديوس وعد افيكراتس باقامة التمثال له من قبل ، وهو لم يعد ، ولكنها براعة المدافع عن نفسه فى افادته من الانتقال بفرضه بين الحاضر والماضى • ومن وسائل الايهام الخطابى كذلك مايمكن أن نطلق عليه توحيد المتقارب من الصفات بالمغالطة فى استعمال الالفاظ ، وكثيرا ما يستخدم السوفسطائيون هذا الوجه البلاغى الخطابى القديم « وذلك كتصوير الرجل الحذر فى صورة الرابط الجأش •• والساذج فى صورة الفاضل ، والبليد فى صورة الهادئ •• ويندرج فى هذا أن يختار الخطيب من الصفات انسبها للمدح ، كأن يجعل من الغضوب صريحا ، ومن الصلف وقورا رصينا •• ومن المتهور شجاعا . ومن المتلاف كريما » •

•

وللخطابة وظيفة جماعية • وقد تشبه الخطابة فى هذا شبها سطحيا بعض الاجناس الادبية الاخرى،

كالمسرحية مثلا ، ولكن ليس هذا سوى شبه سطحى ، لأن الخطيب يجب أن يبدأ من الشعور المتاح له فى الجماعة وأن يجاريه ، وأن ينزل على مستواه ليفيد منه أو يوجهه مباشرة فى عبارات لاتعتمد الا على قوة شحنتها فى الصياغة • ولهذا كانت الوجوه البلاغية ألزم للخطيب من غيره •

ويتطلب فى الجملة الخطابية أن تكون بحيث يمكن أن ينطق بها فى مدى النفس الواحد لأنها صيغت لتقال ، وهو أمر يقرب مابينها وبين الجمله المسرحيه ، ولكن هذه الصلة بين الجملة الخطابية والمسرحية صلة سطحية أيضا • فالجملة الخطابية يبررها استمدادها من شعور الجماعة ، وامتدادها فيه ، ولا يستدعى ذلك أن تمت بصلة للغة المألوفة المدنية ، والجمهور فيها ، ماثل أمام الخطيب كل لحظة ، على حين أن كل ذلك لايصح أن يوجد أو يلحظ فى الجمل المسرحية •

وما تتطلبه الجملة الخطابية من القاء الجهر الصاخب احيانا ، ومن الاشارات التى تنم عن هذه الاهابة بالآخرين ، يفصل - جوهريا - بين تلك الجملة والجملة المسرحية •

ثم ان العبارات المطروقة ، والمعانى المتداوله تضر بالاصالة فى الشعر وفى المسرحيه فى الأعم الأغلب من الحالات ، على أنها تفيد كثيرا فى اثارة الشعور الجماعى فى الخطابة ، وبخاصة لدى العامة ، لأنهم يستريحون اليها ، ويلتقون عندها ، فهى بمثابة تعبير تركيبى عن عملية شعور جمعية مركزة تجعل من الابتذال نفسه وسيله سائغة لتوكيد ما يوهم بالتسليم بالمضمون • ولذلك قد يلجأ الخطيب الى مقدمة تؤكد نيات السامعين الطيبة ، أو تهيئهم لقبول خطابه بما يعهدون فيه من خلق ، أو بأنه يقول دائما ما يهمهم • وهذه المقدمة مألوفة فى مضمونها ، وقد تكون كذلك فى عباراتها • ويلحظ أرسطو أن مثل هذه المقدمة لا صلة لها بموضوع الخطابة نفسه من حيث معانيه المحددة ، ولهذا تتفق وعقلية الدهماء • أما اذا كان السامعون أرقى منزلة فلا حاجة لمثلها •

وهكذا ظلت الخطابة تلجأ الى وسائل الايهام الخارجة عن نطاق النفس لتهدف الى التأثير فى نفوس السامعين بمنطقهم العملى الذى لايستلزم ضرورة المنطق كما لا يستلزم الفن الرفيع ، ما دام هدفها الأول الاستجابة لعقلية الحضور • وقد تؤدى الخطابة وظيفة اجتماعيه ضرورية متى سلم القصد وتطلبته مواقف الخطباء ، ولكن وسائلهم الخطابية المحضة تظل بمعزل عن الأدب وأجناسه ، سواء منها الذاتيه والاجتماعيه ، بعد أن خلص الأدب فى مفهومه الحديث من الذاتية السافرة الغاية ، ومن النفعية المباشرة ، وبرأ من مجرد الرجوع الى الوجوه البلاغية ، وصخب الألفاظ الموهمة ، والتكرار الذى يجعل كثيرا من التراكيب فى مواضعها أشبه بالأعشاب الضارة الطفيلية فى حقل الأفكار ، قد تستثير ولكن بالتخييل لا بالخيال • ومن ثم اذا وجدت رواسب لأسلوب الخطابة القديم فى نتاج الشعر أو المسرحية صارت مبعث نفور ونشاز فى سياق العمل الفنى ، وكثيرا ما تتردد فى النقد عبارات : «اللهجة الخطابية» و « العبارات المحفلية » يقصد بها النيل من الخلق الادبى حينما تشوبه تلك العبارات •

وهذه النزعة التى طهرت الشعر من الطابع الخطابى لم توجد الا فى النقد الحديث ، ولم تلحظ الا فى الأدب المعاصر • فقد كانت القصيدة العربية القديمة محفلية خطابية النزعة فى وجهتها العامة ، تعد للالقاء أو الانشاد ، حتى العاطفية منها • ولم يلاحظ الشعراء تخليص قصائدهم من الطابع الخطابى نشدانا لسمو فنى الا ما جاء عفوا •

ولم يسلم شعر الرومانتيكيين الأوربيين أنفسهم من بعض شوائب العبارات الخطابية ، فى حملاتهم الغضوب الثائرة • ذلك أن التفرقة الدقيقة بين الشعر فى مفهومه الحديث والخطابة لم تتضح الا لدى الرمزيين الأوربيين ومن وليهم ، وبدات هذه التفرقة تظهر نظريا فى نقد العقاد ثم اتضحت تمام الوضوح - نظريا على الأقل - فى نقدنا المعاصر • ولم تكن على هذه الدرجة من الوضوح فى شعر الجيل السابق أو شعر المهجر • وها هو ذا نسيب أرسلان اللبنانى يحذر الأغنياء من سوء عقبى اشتداد البؤس بسبب طغيان سلطان المال ، ويصوغ تحذيره بما هو أدخل فى باب النظم منه فى باب الشعر ، لما فيه من لهجة خطابية ، فى قصيدة له عنوانها : « زفير الفقير » مطلعها :

أفى الحق أن يشقى الفقير بعيشه
وذو المال فى شر الغواية يسرف ؟

الى أن يقول :

عليكم بكشف الضر عنهم ، فانما
أخو الضر يمشى ضاريا وهو يهجف
فلا ترهقوهم بالشقاوة والطوى
فيبدر منهم بادر لايكفكف
فان لم ينالوا بالهوادة حقهم
ينالوه يوما والصوارم ترعف
لكم عبرة فى الغرب من كل فتنة
تهز الجبال الراسيات وترسف

فالعبارات خطابية رتيبة ، تتوالى فيها الاوامر الصريحه ، وتفيض بالفروض العقلية ، وتتجه الى فكر الآخرين ، واستثارة شعورهم بالتخويف ،

والتعليل ، لابنبل القصد ، وتسفر عن الغاية واضحة، بل هى أقرب الى ابراز هذه الغاية منها الى الكشف عن شعور انسانى ، اذ يحث الشاعر على كشف الضر عن الفقراء بتخويف الاغنياء من سوء العاقبة على ذات أنفسهم ، فالاحسان هنا ضرب من المداجاة والخدعة، نشدانا للاثرة الطبقية ، أو حرصا عليها ، كى تظل الفروق الطبقية متأصلة بهدهدة الأغنياء مشـــــاعر الفقراء ، وقد يكون أنبل منه ايحاء كاتب مسرحى عربى بأنه ينبغى ألا يبالغ فى محاربه الظلم ، لأن له جذواه الاجتماعية حين يستفحل فينفجر ثورة !

وفى مثل هذا الموقف يبلغ شاعر آخر مدى أبعد من ذلك فى الجودة وفى التصوير ، اذ ينأى بتعبيراته عن المجال الخطابى ، وهو الشاعر « نسيب عريضة» ـ اذ يقول من قصيدة معروفة له :

ظلام الليل قد جنا	وبوق الهـــم قد رنا
فنم يا طفل لا يهنا	غنى بات شـــبعانا
ألا يا هم يكفينـــا	لقـــد جفت مآقينـــا
لو أن الهم يغذونا	أكلنـــا بعض بلوانا

فعلى الرغم من تحديد الرؤية الشعريه تحديدا يقصر بها عن الايحاء ، يزداد الموقف عمقا بالقياس الى الأبيات الخطابية السابقة . ذلك ان هذه الأبيات تبرأ من العبارات المحفليه التى يتجه فيها الشاعر الى الآخرين ،اذ آنه على نقيض ذلك ينطوى على نفسه ، يهدهد طفله ويعبىء شعوره بما يفيض به وجدانه من حقد طبقى على الأغنياء فى شبه مناجاة يبث فيها ذات نفسه ، وكانه يطلب ثاره من الغنى ، لأنه لم يذق أرق الجوع ، ولم يبال بمن أرقوا بسببه . ولا نريد آن نستشهد من الأبيـــات الا ببراءتهـــا من الخطابة ،وان كانت بها هنـــات ليس هنـــا مجال تفصيلها . فأول ماتنطلب من لغة الشعر فى مفهومه الحديث هو خلوصه من الشوائب الخطابيه .

●

ثم ان الشعر الغنائى ذاتى من حيث مصـــدره ، ولذلك كانت نظرة الشـــاعر الى جمهوره ثانوية بالقياس الى اخلاصه فى تصوير أطواء نفسه ، وان لم تنقطع صلته به عن طريق التراسل فى المشاعر . ولكن الصلة بين الشاعر والجمهور كانت أقوى فى العهـــد الرومانتيكى الأوربى ، ويقابله فى أدبنـــا شعراء الديوان والمهاجرين الى آمريكا . ثم تولدت الرمزية فنفذت فى مفهوم الشعر الغنائى ، وسيطرت عليه ، ولن تزال ، حتى فى النزعة الواقعية للشـــعر حين ترتبط التجربة الكلية بواقع الشاعر ، فى رؤية واضحة . فبعـــد أن أقر الرومانتيكيون ســـلطان الشعر الغنائى فى تجارب نفسية عاطفية ذات وحدة عضوية ، خاضوا به فى صلات النفس بامور المجتمع فى مضمون واضح سافر يمس الرومانتيكى فيه واقعه ليهرب فى أحلامه الخيرة ما طاب له ، على حين نحا الرمزيون بالشعر الغنـــائى منحى نفسيا محضـــا يتساءلون فيه عن المجهول ، تســـاؤلا يريدون أن يتعرفوا فيه على أشد أسرار النفس استعصاء ، ولا غايه منه سوى هذه المعرفه النفسيه . وفى هذا الادراك انقطعت صله الشعر بالعمل الاجتماعى ، وبالدعوات الثورية المباشرة ، فأصبح هم الشـــاعر الأول هو التعمق فى أطواء الذات لتتكشف عن معرفه ، قدتدفع الى توليد مشاعر يكون لها آثرها فى تحريك الارادة أو فى الرغبة ، أو فى الكشـــف عن حاجة ، ولكن من وراء الرؤية الشعريه النفسية التى لايقصد بها سوى الاستطلاع واســـتجلاء الحالات النفسيه فحسب ، وليس معنى ذلك ـ طبعا ـ أن الشعر الرمزى يقصد فيه الى الصياغة لذاتها او للبراعة فى الحلى اللفظيه ، أو لمجرد التسلية أو الرياضـــه الفكريه . فغاياته نفسيه انسانية بالانطواء والتعميق وان لم تتعـــد نطاق اطار التجربة والكشف عن أبعادها . ويستدعى الوقوف عليها جهدا فنيا من القارىء ليشترك مع الشاعر فى الفهم والوقوف على أسرار اللغة ، قد يدق أحيانا كثيرة ، مما دعا جماعه الشعر الواقعى التى تقصد الى رؤية شعرية محددة الى اتهـــام أولئك الرمزيين الخلص بأن الشعر لديهم انما هو «أفيون» الصفوه !! ويظل الشعر الحديث فى اتجاهه السائد بعيدا عن ان يقترح حلولا عمليه لنظام العالم ، ولكنه يحرص على الدلاله على قلق الانسان وتوليد ذاته تجاه عالم يجهله ، عالم مضطرب يشعر فيه بالاغتراب والاستلاب ، فلم يعد الشاعر يحلم مطمئنا الى حلمه يستنكر به واقعه ساخطا على هذا الواقع ، لكنـــه أصبح يقضى على أحلامه بما يعتوره من شعور بانه بين شقى رحى مجتمع فى عالم آلى ، قد تهيأ بدونه . فهو انسان لايغيب فى حلم يقظة كما عهدنا عنـــد الرومانتيكيين ، ولكنه يستيقظ مروعا من حلم . قد أفاق من غيبة السحر التى انتشى بها أسلافه ، فأراد أن يستوحى امكانيات اللغه وسحرها لتصوير شعوره مخلصا لذات نفسه فى تحديد ما لا يحدد ، ووصف الرؤى العابره الهاربة فى مظاهر الحيـــاة اليومية الموقوته ، دون استنتاج للتجربه ، ودون توجيه خارجى ، اذ يترك الأفكار تحيـــا فى أجوائها النفسية الطليقه . هذا ولا يعنينـــا الاسترسال فى شرح الموقف العام للشاعر الحديث ، بقدر ما نريد من اثر هذه النظرة الفنية فى التعابير والصوره ، فى ضوء هـــذه النظرة التى تمثل الاتجاه الغالب على شـــعرنا المعاصر والشعر العـــالمى كذلك ، وتتفق والوسائل الفنية للاطار العام للتجربه حتى عند ذوى النزعة الواقعية فى الشعر ، اذ ان هذه الواقعيه تترفع أن تجنح الى الواقع مباشرة بل تبعا .

فالشعر الحديث لايتلاءم والألفاظ التجريديه ، على حين يحرص الشاعر أن يرد المشاهد والمحسات

حالات نفسية • ومن أجل هذا لاينبغى تردادالعبارات أو الالفـــاظ المطروقه دون أن يكون لها فى قرائنها ما يجدد دلالاتها وينبو بها عن الابتذال ، وليس ذلك من أجل الجزالة المعهودة فى الاسلوب القديم ، بل لتكون للكلمات قدرتها الكامله بوصفها وسيطا لحمل المعنى ، وشاهدا ، ومسبارا نفسيا • وقد يكون من نافلة القول أن نشير هنا الى ضرورة توافق أصوات الشعر وموسيقاه مع الصـــور والمعانى والموقف ، بحيث تتمثل للقارىء ، ولو كانت قراءته صـامته • والذى ننبه اليه ان تفوق الشاعر انما يتضح أولا فى اختيار الألفاظ ، وتواليها على الصور والموقف ، بحيث تغمر الموقف فى التجربة بضـوء خافت دون تصريح ودون انبهام •

•

ولنضرب مثالين من الشـــعر فى أولهما تتحدد الرؤيه كما فى الطابع القديم ، وهو يتمثل فى أبيات نسيب أرســـلان السابقه (ويمكن أن نشير كذلك على سبيل التمثيل له بقصيدة « أخى » الشـــهيرة لميخائيل نعيمه) والمثال الثانى تهوم فيه الرؤيه على نحو ما هو سائد فى الرمزيه الحديثة ، كما يبدو فى موقف الشاعر خليل حاوى ، فى قصيدة « السجين » من ديوانه : « نهر الرماد » • فالسجين هو الشاعر نفسه ، وهو سجين المدنية بآفاتها التى جعلته فى صورة ميت لايستطيع أن يتعرف نفسه بعـــد أن اطبقت عليها جدران رتابه العيش • والشاعر فيها يحس بوطأة هذا السجن ، وهذا الاحساس نفسه معـــاناة ، فهو بدء الوعى الرهيب فى طريق تلمس الحياة الجديدة بميلاد جديد ، ولكنها حياة يرهبها الشاعر بقدر ما يرجوها ، فهى عبء وتمزق وتبعه ، وأبعاد وجود خصب • وتلك قضية عامه من قضايا الشعر العالمى المعاصر ، سادت فيه بسبب النزعة التعبيرية •

وتتوالى الاستفهامات التى تشف عن لهف الحيرة، ووله الشـــعور المشـــبوب ، ثم الكلمات الموحية فى قراءتها ، وهى التى تحيل الرؤية المـــادية حالات نفسية ، مثل « كابوس الجدار » و « الكوى العمياء » و « الصبح العميق » • ثم تسود المفارقة العامه بين الرجاء والحذر ، والخوف والسأم ، مع الفاظ تدل على العدم والفراغ ، ونفى الوجود ، ومع الاضمار الذى يجعل من الآخرين الذين عليهم تبعـــة موت الحياة « فثرانا » بعثرت أرجلهم أشلاء روحه ، ثم يخاف من بعثه أن يتعرض لضحكاتهم ، « ضحكات الصغار » •• ونكتفى ببعض أبيات القصيدة محيلين عليها فى الأصل :

رد باب السجن فى وجه النهار
كان قبل اليوم يغرى العفو
او يغرى القرار

• • • • •

قبل أن تمتصنى عتمة سجنى ••
قبل أن تنحل اشلاء السجين

• • • • •

هل أخليها ، اخليها وامضى
خاوى الأعضاء ، وجها لايبين
شبحا تجلده الريح
وضوء الشمس يخزيه
وضحكات الصغار
ينتخفى من جدار لجدار ؟

فصور التجربة من واقع الحياة العابرة ، ولكنها تقيد ما هو عابر ، لتجعل منه نســيجا جديدا . يبين عن موقف نفسى مستعص فى ذاته ليصـفى به الشاعر حسابه فيما بينه وبين نفسه ، وهو موقف يستلزم أن يشارك فيه القارىء ليخلق لنفسه نظير هذا الشعور الانسانى ، ثم ليتأثر به انسانيا ماشاء• فجمال الشعر فى ايحائه ووســـائل ايحائه ، وهو لايستدعى الغاية الخلقيـة المباشرة ، بل من حيث سموه بالروح بالتجاوب مع الرؤيه الشعريه الصادقه فى جوهرها ، سواء عرضت لتصوير القبح تصويرا فنيا أم تغنت بالحسن الذى يعوز • فوراء مثـــل هذا الجمال صورة الحقيقة او الخير ، من حيث ان كلا منهما اتساق فى ألحان الكون ، يؤذى الانتقاص منه الشعور الرهيف كما يؤذى النشاز الموسيقى فى « سمفونية » النظام العالمى • وهذا الســمو الفنى ينفذ اليه الشاعر ، ويستولى على القارىء بوسائل الايحاء اللغوية فى الكلمات التصويرية ، والأصوات المعبرة ، وموسيقى العبارات ، واشعاعات المدلولات فى تراكيبها ، حتى «ليصير النحو،النحو الجاف نفسه شيئا كالسحر ، تستدعى به الأرواح مثل الرقى ، وتنبعث الكلمات وقد اكتست لحما وعظما ، وكذلك الأسماء تخطر فى جلالها الذاتى ، والصفة تضفى على تلك الكلمات غلالات والوانا شفيفة ، والفعل ، وهو مبعث الحركة ، يدفع بالجملة لتنطلق » . على ان الغموض الذى أشرنا اليه لاينبغى بحال أن يكون مصدره التركيب ، بل الظـــلال المنبثة فى الرؤيه الشـــعريه الجليلة ، خلف نقابها ، وخلف غابات الرموز من صور الطبيعة والناس ، تستحيل معطيات نفسية • فالشاعر لايبدو غامضا الا على الرغم منه ، كما يقـــول فاليرى ، لايغـــاله فى متاهات النفس ، ولتعمقه فى أبعاد الحياة والوجود من خلال النفس • واختيار الموقف كاختيار الكلمات ذو أهميـــة كبيرة فى هذا المجال • فهناك كلمـــات مطفأة لاجدوى فى محاولات اشعاعها ، كالتكنية بالرغيف عن القوت ، وبالقذيفة عن القـــوة ، فمثل هـــذه تندرج فى باب الاستعارات القديمة • وقد تشع الكلمات على حين

هى ليست باســـتعارات ولا تشبيهات • كما ان الكلمات المشعه التى هى فى ذاتها بمثابه المســبار النفسى ، قد لاتصادف ـ اذا أسيء اختيار الموقف ـ غورا تغوص فيه ، فترتد خاسئة • فمقدرة الشاعر فى صياغته مرتبطة ـ ضرورة ـ بآفاقه الكونيـــة والنفسية التى يرتادها • وحول هذه المعانى تدور كل المعايير الفنية لتقويم الشعر فى مفهومه الحديث ، فاذا وضع الشاعر لنفسه غاية خلقية منذ البدء نال ذلك من رؤيته الجمالية ووسائل تصويرها الوجدانية على حسب مالدى الشاعر منها •

وكما ينال من الشعر الغنائى أن تتسرب اليه لغة الخطابة كما رأينا ، ينال كذلك من اللغة المسرحية أن تتسرب اليها « غنائيـــة » الشـــعر ، أو اللهجة الخطابية • ذلك أن المسرحية عمل اجتماعى يدور موقفه على أشخاص يتبادلون صلات فى أمر من الأمور يتخذ كل منهم تجاهه مسلكا ، يجلو عن ناحية من نواحيه • فهم متآزرون جميعا على توضيح جوانب الموقف العام فى المسرحية برغم اختلاف مسالكهم • وهذا الاختلاف يتمثل فى الصراع الحيوى الذى يبدو عامل تفريق وتجميع معا فى الموقف المسرحى • فأشخاص المسرحية « يفعلون » ـ على حد تعبير أرسطو • وكلمة « دراما » وهى التى ترادف التمثيلية فى الأصل ، كان معناها فى اليونانية « الفعل » أو « الحدث » ، وقد ارتبطت فنيا بالابعاد النفسية والصراع فى صورة من صوره ، على تقـــدم المسرحيـــات والفن المسرحى فى مدى العصور •

وعلى الرغم من أن المسرحيات نشأت شعرا ، وتراثها فى الشعرية ممتد عريق ، قد تنبه ارسطو الى أن لغة الشعر المسرحى ينبغى أن تكون مدنية ، يعنى بذلك أن تكون ملائمة لموقف الشخصيه ، خالية من التكلف • ويعيب أرسطو على بعض معاصريه أنهم يجعلـــون شخصياتهم المسرحية يتكلمون بلهجة الخطبـــاء • وحيث ان اللغة فى المسرحية عمل ، على الشخصيات ، اذن ، أن تسلك فى حديثها ولهجتها بحيث لاتلقى بالا الى جمهورها ، كأنها فى مجرى الحياة تتصرف وتتحدث • فلا تتوجه الى الجمهور ، لاصراحة ولا ضمنا ، كأن الجمهور غائب ، أو كأن بينها وبينه حجابا ، هو مايسمونه فنيا : « الجدار الوهمى » وهو ما يقدر أنه يفصـــل الممثلين عن الجمهور • والخطر على لغة المسرحية أن تصبح خطابية بتوجهها للجمهور ، أو بطغيان الوجوه البلاغية عليها ، او وجود الخصائص الخطابيه فيها ، من التكرار والاستصراخ واستخلاص العبرة وما اليها • ومن المآخذ التى لم توجد الا نادرا فى مسرحيات شوقى الشعرية ، أنه كان يلجأ أحيانا للغة يبدو فيها الطابع الخطابى ، كموقف رثاء أكتافيوس لصـــديقه أنطونيوس فى « مصرع كليوباترا » • واذا كان الطابع الخطابى قليلا فى مسرحيات شوقى فان « الغنائية » قد طغت على لغة شوقى المسرحية • وهذه الغنائيه تقف بالحدث ، وقد تبدو فى صـــورة حدث عارض يضر بالوحدة الفنية ، ثم انها تنال من أخص خصائص اللغـــة المسرحية ، نقصد « الحركه » • فاللغة المسرحيـــة حركية (= ديناميه) ترتبط فى حركتها بمجرى الحدث ، وتشـــترك بها فى تحديد العـــلاقات الاجتماعية ووجهتها الدائبة المسير نحو المصـــير المشترك • فالحوار المسرحى عمل ، لا صور تمثل مشاعر كما فى الشعر الغنائى • ونعيش بهذا الحوار فى عالمنا المدنى ، فلا غرابة فى اللغة ، ولا تعقيد فى التركيب ، ولا خطابـــه فى اللهجة ، ولا غنائيـــة فى الصور •

***

وقد غلب النثر على المسرحيات فى العصر الحديث • والجملة فى النثر المسرحى قد صيغت أصلا لتقال ، لا لتقرأ كما فى القصه ، ولا لتحكى كمـــا فى الملحمة مثلا • والجملة المسرحية من هذه الناحيه تشبه ـ شبها سطحيا ـ الجملة الخطابيه كما قلنا ، ولكن الجملة المسرحيه تنطقها الشخصية لتواجه بها موقفها الحيوى من ذات نفســـها وموقفها من الشخصيات الأخرى معا • والجملة المسرحيه لافضول فيها ، ولا تكرار ، فيجب الا يبررها فى مجرى الحوار المسرحى سوى فكرة الشخصية التى تنطقها ، وطبيعتها ، كما يجب أن يلحظ صداها فى الشخصيات المسرحيه المتوجه بها اليها ، بحيث تتميز بها الشخصية ، ولا تتشابه مع الآخرين ، وعلى الكاتب المسرحى أن يراعى أن لغته مع ذلك أدبيه ، كى يختار الجمل والألفاظ التى تتكون منها الجمل ، والمعنى الذى تتآزر الألفاظ على تصويره ، فى دقة واحكام ، دون تكلف او فيهقة تنبو بهما الجملة عن المألوف ، أو تخرج عن الاحتمال فى صدورها عن مثل تلك الشخصية • فلغه الفن ـ برغم أنها مدنية كما قلنا ـ ليست نقـــلا للواقع • وليست الواقعية اهمالا لدقة الاسلوب وعمق دلالاته فى قرائن ما يساق من عبارات • وقد توهم كثير ممن يتصدون للنقد عنـــدنا أن الواقعيـــة لاتعنى بالعبارة أو أنها تستلزم الابتـــذال فى الصياغه ، مجاراة للواقع •

ولا نقر التنافى بين الواقعيه واحكام الأداء اللغـوى ونستشهد مرة أخرى بقول « زولا » رأس الواقعيـــة الاوربية : « يأثم المرء كل الاثم حين يكتب فى أسلوب سيىء . وليس سوى ذلك من جريمة فى الادب تتم عليها حواسى . ولا ادرى اين يضع المرء الاخلاق حين ينزلها منزلا آخر • الجملة المحكمه الصياغة فى ذاتها عمل طيب » •

ومن هذا الجانب تبدو الجمل المسرحية لدى كبار الكتاب الواقعيين ذات ايقاع وأبعاد شعورية يتجلى

فيها طابع شعرى واضح ، برغم أنها مصوغة نثرا . ويلحظ بحق ت . س . اليوت أنه برغم نفى الواقعيه للشعر من المسرح نرى ابسن وتشيخوف – وهما من آباء الواقعية – يضيقان بالنثر وحدوده، فللغتهما طابع شعرى .

ومنذ تشيخوف وبيراندلو ، وعلى الأخص منذ التعبيريين ، ثم كتاب مسرح العبث ، أصبح للغة وظيفة درامية ، اذ تلعب هى نفسها دورا فى الكشف عن عزلة الوعى ، مما يمثل جانبا جوهريا من ازمة المدنية الحديثة ومن شعور الانسان بالاستلاب فى عالم أفسده وفسد به . فالحوار عند التعبيريين غالبا ما يكون فى الحقيقة بمثابة حديث فردى (مونولوج) اذ ليست المحاورة سوى تعلةظاهرة لتحريك مايجيش به اللا شعور الحبيس المختنق . ويخيل على مسرحيات يوجين أونيل ، مثلا مسرحية « القرد الكثيف الشعر » و « الامبراطور جونس » . وفى مسرحيات العبث تتوالى الجمل لاهثه ، ضامرة الأجزاء ، مقطعه الأوصال ، تطفو على سطح وعى مبهور ، فتصور أبعادا بذاتها هى التى يدور عليها ذلك المسرح : ان اللغة أصبحت آنيه انطوى فيها الانسان على وعيه الفردى ، ففقد شطره الاجتماعى ، وهو جوهر انسانيته . فالشخصيات فى تلك المسرحيات فارغة جوفاء قد استلبت من ذات نفسها كما يبدو فى لغتها . واللغة لكى تؤدى هذه الدلالات العميقه بذاتها لابد أن يطوعها كبار العباقرة . فتصوير التفاهه ليس معناه تفاهة التصوير ، وسطحية الوعى غير الوعى بالسطحية . ولهذا كانت لغه اولئك الكتاب – حين يصورون المشاعر العابثة والشعارات الانسانية الجوفاء ، وضلال الوعى المنعزل المحموم معا – لغة منتقاة خلاقه لها بعمق دلالاتها طاقات قد تفوق التصوير الشعرى نفسه . وفى هذه المجالات لانعلم من يجارى فى المقدرة الفنية (صمويل بيكيت) فى مسرحياته . ويضيف هذا الكاتب الى لغته المسرحية خاصه أخرى هى ايقاع يعتمد فيه على مدة النطق لكل جملة ، وعلى مايتخلل الجمل من سكتات هى فى نفسها جزء من الايقاع العام للعبارات ، كما يعتد الموسيقى بمدى الصمت بين الانغام على انه فى ذات نفسه جزء من اللحن . وبهذا تكتسب لغة مسرحياته طابعا ايقاعيا شاعريا فى أصواتها وصمتها ، وهو ايقاع يطابق بين لغة الحديث ووظيفته النفسية ، حين يصير الصمت كلاما بايحائه ، على حين يصير الكلام بمثابة صمت فى مجرى الحوار ، اذ يصبح نافذة مغلقة على ذات النفس ، لا اداة تراسل مع الآخرين كعهدنا بالكلام .

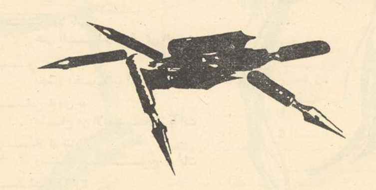
خذ مثلا مسرحيته : « نهاية اللعبة » يقصد لعبه الحياة . فشخصيات المسرحية نهب لقلق ميتافيزيقى فى موقف يفترض المؤلف أنه متاصل فى كل متفرج سلفا ، فهى تتحرك فى شبه كابوس ، وقد سلبت كل وسيلة للتفاهم بعضها مع بعض على أمر من الامور حتى على سوء التفاهم نفسه . وفى المسرحية « هام » السيد القعيد الضرير ، يتحرك على مقعد ، لايستطيع القيام من قعود ، و« كلوف » الخادم المتصلب الساقين لايستطيع القعود من قيام ، والاب والأم فى صندوقى قمامة ، قد قطعت سيقانهما ، وبهما بقية حياه لن تلبث أن تنتهى فى مجرى المسرحيه . والذى يهمنا هنا جلاء الخصائص اللغويه التى ربما تتضح بموجز ما قلنا فى موقف المسرحية ووظيفة اللغة فيها ، على انها تتضح كل الوضوح بالرجوع الى الاصل . وحسبنا أن نذكر شاهدا هنا بعض عبارات « هام » – ولنتامل فيما تتطلبه هذه الجمل من اختلاف حدة الصوت ومدته ، ونبراته ، وما يتخللها من مدد السكتات – حين يقول « هام » : « أبى ؟ (مدة) أمى ؟ (مدة) كلبى ؟ .. (مدة) آية أحلام ! (مدة) كم أشتهى أن يعانوا بقدر ما تستطيع هذه الموجودات أن تعانى . ولكن هل هناك قيمة لصنوف المعاناة ؟ قد يكون ! (مدة) كلا ! كل شىء مطلق (فى اعتداد) . كلما كبر المرء امتلأ ، وكلما امتلأ فرغ . (يتهانف) يا كلوف .. (مدة) لا ! أناوحيد (مدة) آية أحلام ! احلام بصيغة الجمع ! تلك الغابات (مدة) كفى .. آن أن ينتهى هذا كذلك بالنجاه .. (مدة) وبرغم ذلك أتردد ، أتردد أن .. انهيه .. نعم ، هو كذلك .. آن أن ينتهى كل هذا ، على انى ما زلت أتردد فى (يتثاءب) انهائه (تثاؤب) عجبا ! .. ماذا بى ؟ .. » . فالجمل المبتورة الممزقة الأنة ، المختلفه الطابع بالنطق وامكانيات النطق وحركة الألفاظ ، مردها الى عبقرية فنيه ، تستنفد طاقات اللغة لأغراضها التصويرية ، فى جنس أدبى موضوعى فى الأصل ، أصبحت اللغة نفسها فيهذات دور خاص وذات عمق شعرى نفسى . وليس هذا بميسور الا بمراس طويل للغة وامكانيات أساليبها الذاتية الاجتماعية . وهذا مجال يطول شرح دقائقه ، ويتسع لكثير من الموازنات والمقارنات .

❁

وبرغم هذا الدور اللغوى الشعرى الطابع لبعض المسرحيات الحديثة ، يظل الفرق بين الشعر الغنائى فى مفهومه الحديث ، والشعر المسرحى ، واضحا ، حتى فى هذه الاتجاهات الحديثه التى يختلط فيها الشعر بالنثر فى مجرى المسرحيه . فالشعر المسرحى حركة وعمل يتقدم مع الحدث ، على حين يبقى الشعر الغنائى غوصا واستبطانا وحركه نحو الاعماق . ولنتامل فى طابع مابثه بريشت من شعر فى مسرحياته لنستجلى تلك الخاصة الجوهريه للشعر فى المسرحيات سواء قديمها وحديثها ، متخذين مثلا أبياتا من مسرحية « سيدة سيتزوان الفاضلة »

تقولها « شين تى » فى اخلاصها الاحمق للطيـــمار المفلس الذى يستغلها ، تصف حيرتها فى شـــعورها نحوه بالحب له والنفور منه ، وهو شعور يجمع بين طيب الطوية والأثرة والعناء وتسلط الشر ورهبة البؤس ، وهو شعور مدعاة تفريق وتقريب بينهما على أساس من واقع الصراع الحيوى الذى تخوضه « شين تى » وحبيبها المستأثر ، يتجلى ذلك كله فى قولها (شعر فى الأصل) : « رأيته ليلا ، خداه فى نومه منتفخان ، يثيران الاشـــمئزاز ، وفى الصباح امسكت بصدرته ، وقد مزقها الجـدار . وحينما رأيت لؤم ضـــحكته ارتعت ، ولكنى رأيت خروق حذائه فأحببته كثيرا » · فالأبيات جزء من الحركة العامه النفسية المتسقة مع الحدث والأشخاص ·

وانما تحدثنا عن الخطابة ومستوى ماتتطلبه لغتها لنرى مستوى تلك الخصائص الخطابية بالقياس الى لغة الأجناس الأدبية الخالصة ، فى ضوء تطور مفهوم الأدب ورسالته · ومن ثنايا ما شرحنا من خصائص المستويات تراءت خصائص لغة الأدب فى مفهومه الفنى الرفيع ، أنه فى مختلف مستوياته بين اغنائيه فى الشعر والموضوعية فى المسرحيات ، يثير الشـــعور الصادق فى ذاته اما بالتعمق فى البعد النفسى باستنفاد طاقات الصياغة واشعاعات اللغه الايحائيه ، فى الشعر الغنائى ، واما بامتداد الابعاد النفسية والاجتماعية من خلال موقف انسـانى تقوم الصـــلات فيه مقام الاستدلالات الشعورية التحليلية ، لموقف هو اجتماعى بطبيعته ، كما فى المسرحيات · ولغة هذه المسرحيات محددة بالمسلك المدنى للشخصيات فى حوارها · وهو حوار اجتماعى مدنى ، ولكنـــه ليس مباشرا بتوجهه للجمهور كالخطابه · ولهذا كان لابد أن يتوافر للفن الرفيع صـــفة الترفع عن التصريح · يكون ذلك فى الشعر الغنائى بالبعد عن تسمية المشـــاعر ، فعلى الشاعر أن يعبر عما يشير اليها ويوحى به دون تعيين له · وأما فى المسرحيات ـ ونظيرها القصـــه ـ فان الشخصيات ولغة الشخصيات ليست فى مجرى الحدث العام سوى وسيلة من وسائل جلاء الموقف وتحليله ، فهى بمثابة رموز كلية لقضية معقدة · والموقف فيها موضوعى بطبيعته . ونتيجة لصفة الموضوعية الخاصة فى المسرحية أو القصة ، ولصفة «المعادلة الموضوعية» فى البعد عن التصريح فى الشـــعر الغنائى ، توافرت للادب صفة الصدق فيما بين الكاتب وبين نفسه ، اذ يتراسل مع جمهوره بسمات وايحاءات ورموز أو ما يعادل الرموز من شخصيات ، لها قوتها الضمنيه بصلتها بالواقع وطاقات اللغة وطبيعه الكون ، دون تدخل سافر · ولهذا كانت لغة الأدب وظيفتها اثارة الشعور قبل اثارة الفكرة ، ولكن لابد من أن تتراءى الفكرة من وراء الشعور ، والفكرة الادبية التى تتراءى من وراء هذا الشعور لها صـــله بحقائق نفسية واجتماعية أعمق من تلك التى تثيرها لغة العلم والحقائق المجردة ، لان اللغة فى مجال الادب تغنى بدلالاتهـــا الايحائيـــه ، وهى الدلالات التى تستعصى على اللغة التجريديه الوضعية · ومن ثم كان للغة الادبية صلة بالفكر وصلة بالارادة عن طريق الشعور الذى هو بمثابة المحرك الأول للارادة بسبب ما له من التـــأثير النفسى ، وهو تأثير قد يكون للمشاعر فيه سلطان المبادىء أو العقـــائد · واذن فللمستويات الأدبيه صفات مشـــتركة توحد ما بين الأجناس الأدبية برغم اختلاف تلك المستويات اختلافا جوهريا بدونه تخفق تلك الأجناس فى أداء رسالتها الانسانية التى تشترك فيها جميعا بتـــوافر الأداة اللغوية الخاصة بكل منها ·



المستحيل

قصيدة

للشاعر : عبد الوهاب البياتي



ياتي مع الفجر ولا ياتي
حبي الذي اغرق في الصمت

يحوم حول السور مستجديا
تنهشه مخالب الموت

حتى اذا ما اليأس اودى به
صاح من الأعماق : يا انت

سفينة الأقدار لم تنتظر
وسندباد الريح لم يات

من اين اقبلت ؟ وآبارنا
مسمومة . من اين اقبلت ؟



لعلنى كنت على موعد
من قبل أن أولد ، أو كنت

الحب أعمى ، وأنا ها هنا
أكتب فوق الماء ما قلت

ربيعنا اقبل من رحلة ال
ضياع والأحزان والمقت

تسبح فى النور فراشاته
فلتفتحى الأبواب يا اخت

حبيبتى من قبل أن تولدى
أحببت عينك ...

فهل انت ؟

ملاحظات



بقلم : د . شكري محمد عياد

مع ان النقد قد تحدث كثيرا عن الشعر الجديد ، وقليلا عن الرواية الجديدة ، فهو على الارجح لم يقف مرة واحدة ليتحدث عن « النقد الجديد » وكلمتا « النقد الجديد » تدلان اصطلاحا على مدرسة نقدية اشتد عودها فى العقدين الماضيين فى امريكا وانجلترا ، وقد نتناولها بالتعريف فى مناسبة أخرى ، ولكننا لانقصد فى هذا المقام المعنى الاصطلاحى « للنقد الجديد » عند اولئك القوم وانما نقصد النقد الجديد فى ادبنا نحن . ان النقد عندنا لم ينظر اى نظرة ناقدة الى نفسه فى السنوات العشر الأخيرة ليتبين الى اين يسير . وهذا شىء غريب حقا . فكيف يوجه النقد الأدب الانشائى، اذا لم تكن فى يديه الوسيلة لتوجيه نفسه ؟ ولابد ان نخرج المجادلات المذهبية أو « المعارك النقدية » كما تسمى ، من هذا الموضوع . فانما القصد هنا الى الدراسة الموضوعية للنقد الذى يكتب ، دراسة تكشف عن اتجاهاته وتحللها ، قبل أن تتصدى لها بالحكم ، وهو مايفعله النقد ازاء الرواية والقصة والشعر ، ولكنه لايفعله ازاء نفسه .

وثمة ظاهرتان لاخفاء بهما :

الظاهرة الاولى هى كثرة ما يكتب من النقد فى السنوات الاخيرة، بالقياس الى ماكان يكتب قبلها. ان خط الكتابات النقدية ، من الناحية الكمية ، خط صاعد . وقد تحدث فى هذا الخط هضبات أو منخفضات موضعية ، ولكنه يعود الى الصعود سريعا .

والظاهرة الثانية هى ان لغة هذا النقد تتغير تغيرا سريعا أيضا . وتدخل فيها كلمات جديدة ، ودلالات جديدة ، وقد تتنافر الدلالات ، بحيث يكتشف ناقدان ، بعد ان دخلا فترة مافى حوار ، أنهما «لايتكلمان لغة واحدة» وأنا هنا أستعير تعبير ناقد شاب .

وهاتان الظاهرتان لاتنفرد بهما ثقافتنا. فالأدب لم يصبح احترافا فى عصر من العصور كما اصبح فى عصرنا . ان « تقسيم العمل » أقام كليات

ومعاهد كثيرة لتدريس الآداب القومية ، واوجد فى الصحف طائفة من المحررين اختصاصهم تتبع الانتاج الأدبى ، ومع أن معظم هذا الانتاج الأدبى لايزال يكتب بأيدى اناس لم يتخذوا الأدب مهنة ، فان الآخرين الذين اتخذوه كذلك لابد أن يثبتوا وجودهم بكتابة نقد كثير حول هذا الأدب ، وربما طغى عليه فى مجالات النشر .

وربما كانت ثمة أسباب اخرى فى حضـــارة العصر تزيد رواج النقد . والغريب ان الناشرين يلاحظون أن اقبال القراء انفسهم على كتب النقد بوجه عام،اكثر من اقبالهم على كتب الأدب الخالص بوجه عام. وقد سمى كاتب امريكى (١) هذا العصر « بعصر النقد » . ومع انه يسلم بامتياز بعض هذا النقد ، فانه يربط بين كثرته وبين الظاهرة الثانية، ظاهرة اضطراب بعض المفاهيم أو غموضـــــها أو تناقضها .

وقد لاحظ هذه الظاهرة عدد غير قليـــل من اساتذة النقد . الا أن آفة النقاد حين ينظرون فى عملهم هى أن يضعوا حوله مزيدا من النقد . ونحن نعـــلم أن من الفصول الأولى فى كتاب النـــاقد الانجليزى الكبير ا.١. رتشاردز فصـــلا عنوانه « لغة النقد » يشـــــير فيه الى بعض المصطلحات الأساسية فى النقد مثل « البنـــاء و الشــكل و التـــوازن و التكوين و العمق و الحـــركة و النسيج » الخ . مشككا فى معانيها جميعا ، وان اردف ذلك بقوله ان اللغة (بوجه عام) قد نجحت حتى عهد قريب فى أن تخفى عنا معظم الأشـياء التى نتكلم عنها (٢). ولكشف هذه الاشياء وضع رتشاردز كتابه الذى يعد من أعظم كتب النقد فى العصر الحاضر ، ان لم يكن أعظمها جميعا .

وللناقد الامريكى الدر أولسون فصل بعنـوان « محاورة عن الرمزية » (٣) يشـير فى أوله الى فوضى المصطلحات النقدية فى عصرنا، ولكنه ينتهى الى أن يقدم شرحه هو لمصـــطلح من اهم هـــذه المصطلحات ، وهو « الرمزية » .

وقد حاولنا فى هذا المقال ان نتجنب ذلك ، وأن نقدم شيئا فى سبيل دراسة لغوية لنقدنا المعاصر

(١) Quandall Jarrell: Poetry and the Age (The Age of Criticism pp. 63-86) Vintage Books 1955. 2nd. ed. p.21.

(٢) I.A. Richards: Principles of Literary Criticism, وانظر الترجمة العربية للدكتور محمد مصطفى بدوى

(٣) Cranc : Critics and Criticism (The University of Chicago Press 1952) pp. 567-504.

ولكن أين يمكن أن تقع مثـــل هذه المحـــاولة من الدراسات اللغوية ؟

لقد عنى علم اللغة العام بالأصوات اللغـــوية ، واشكال المفردات والجمل، ونمو اللغات وتطورها ، والعلاقات بينها ، والعلاقة بين اللغة والمجتمع ، ومستويات التعبير اللغوى ، ودرس فقه كل لغة خصائص تراكيبها واستعمالات ألفاظها . ولـكن مبحث « الدلالة » أى العلاقة بين الالفاظ والمعانى لايزال من المباحث الناقصة فيما يقرر علماء اللغة أنفسهم . هذه هى الصعوبة الأولى .

والصعوبة الثانية تتعلق بالمادة المدروسة، ومدى الفترة الزمنية التى تقع فيها هذه المـادة . ومن المسلم به انه كلما كثرت العينة المأخـــوذة للدرس واتسع مداها ، كان ذلك أقرب الى صحة النتائج ، بشرط أن تكون العينة ممثلة للمادة المدروسة وأن تصنف تصنيفا واضحا .

اما عن الصـــــعوبة الأولى فسنستعين بتحليل اوجونى ورتشاردز لعلاقة اللغة بالمعنى . وبما ان كتابهمـــا « معنى المعنى » لم يترجم العربيـــة الى العربية (١٤) فقد يكون من المفيد ان نلخص نتائج هذا التحليل قبل البدء فى بحثنا .

يميز الباحثان فى استعمال اللغة عناصر ثلاثة : الدلالة وهى التفكير ،والمدلول وهو الشىء موضوع التفكير ، والرموز وهى الكلمات التى تنقل الدلالة الى مســتمع أو قارىء . وعلى خـــلاف كثير من الفلاسفة الذين يقـــررون أنه « لاتفكير بدون الكلمات » ، يلاحظان ان العلاقة بين الدلالة وبين الرموز هى علاقة ارادية الى حد كبير . فالمتكلم أو الكاتب ينتقى كلماته ، ومعنى ذلك أن ثمة عددا من الكلمات يكون حاضرا أمامه لاداء الدلالة التى يريد اداءها. وهذه الكلمات قد تكون متشابهة فى أصل المعنى ، الا أن بينها اختلافات تعبر عن موقف رضى او سخط، حماسة أو هدوء ، الخ. ويلاحظ اوجونى ورتشاردز ان المتكلم أو الكاتب فى اختيار رموز يلاحظ خمسة أشياء :

الأول موافقة الرمز للدلالة
والثانى مناسبته لموقف المتكلم من السامع
والثالث مناسبته لموقف المتكلم من المدلول
والرابع اداؤه للفرض الذى يريد المتكلم حمل السامع عليه
والخامس مدى سهولة تقرير الرمز على المتكلم .

ويوضح الباحثان أن ثراء الرموز يرجع غالبا الى

(٤) G.K. Ggder and I.A. Richards «The Meaning of Meaning», (London. Routledge & Kegar Paul 1st. ed. 1923.)

التوسع فى الاستعارة . والاستعارة تتضمن التجريد ، فنقل كلمة من دلالة الى دلالة ، يقوم على ملاحظة اشتراك بين الدلالتين ، واثبات الاشتراك وطرح الاختلاف. وهذه العملية قد توقع فى الخطأ والارتباك ، ولكن الخطأ والارتباك هما الثمن الذى ندفعه احيانا من اجل أن نحصل على قوة التجريد.

واما عن الصعوبة الثانية فقد حصرنا المادة فى ثلاث مقالات فى نقد الشعر ، لثلاثة أجيال من النقاد :

المقالة الاولى ، للدكتور طه حسين ،فى نقد ديوان « وراء الغمام » للدكتور ابراهيم ناجى (« حديث الاربعاء » ، ج ٣)

والمقالة الثانية : للدكتور عبد القادر القط، فى نقد ديوان « اغانى افريقيا » لمحمد الفيتورى . (« فى الأدب المصرى المعاصر »)

والمقالة الثالثة : لصبرى حافظ ، فى نقد ديوان « الأرض والعيال » لعبد الرحمن الأبنودى (مجلة « المجلة » العدد ١٠٠ ، ابريل ١٩٦٥)

وبهذا التحديد للمادة المدروسة لانطمع فى اكثر من أن تكون هذه الدراسة الصغيرة استكشافا لمدخل جديد الى معرفة النقد المعاصر ، ثم الى تقويمه .

١ ـ طه حسين عن « وراء الغمام »

نلاحظ المستويات الآتيه من الدلالات :

أ ـ دلالات عن الديوان المنقود نفسه .

ب ـ دلالات لتوضيح الدلالات الأولى أو اثباتها .

حـ ـ دلالات لتوضيح هذه الدلالات الثانية .

ومع مايبدو من الاغراب فى هذا التقسيم ، فاننا نراه مفيدا فى التمييز بين : (ا) الدلالات المستخدمة لوصف الشعر خاصة ، و (ب) أنواع الثقافات التى ارتبطت بنقد الشعر ارتباطا مباشرا و (حـ) أنواع الثقافات التى ارتبطت بنقد الشعر على سبيل المقارنة أو التنظير .

(ا) فالدلالات عن الديوان نفسه قسمان : قسم مباشر ، وقسم استعارى . فمن القسم المباشر : الكلام عن المعانى ، وانها تصل احيانا الى «الروعة» وان كانت تنتهى الى « الابتذال » . والكلام عن الالفاظ وانها «جيدة» ، عظيمة الحظ من «المتانة» و « الرصانة » ، تستهوى الاذن بهذه « اللذة الموسيقية » التى تصل الى الآذان دون العقول .

والكلام على الأساليب وأنها ايضا « جيدة » و «عظيمة الحظ من الصفاء» ، خالية من «العوج» و « الالتواء » فى كثير من الاحيان .

وان كان ثمة بعض الخطأ فى الالفاظ والمعانى وبعض العوج فى الأساليب .

ومن هذا القسم المباشر ايضا الحكم على الشاعر بأنه « شاعر مجيد تألفه النفس » ، ولكنه ليس نابغة ولا عظيم الحظ من الامتياز . وهو من هؤلاء الشعراء الذين يحسن أن يقرءوا فى رفق ، لأنهم قد فطروا على رقة لاتحتمل العنف وشدة الضغط .

ومن القسم غير المباشر تشبيه جمال هذا الشعر بجمال الوردة الرقيقة النضرة، نستمتع بها دون ان نشط عليها بالتقليب والتعذيب ، ووصف الشاعر مرة اخرى بأنه « قوى الجناح ولكن الى حد . لايستطيع ان يتجاوز الرياض المألوفة ولا أن يرتفع فى الجو ارتفاعا بعيد المدى ، وانما قصاراه ان ينتقل فى هذه الرياض التى تنبت فى المدينة أو من حولها ، والتى لاتكاد تبعد عنها كثيرا . وهو اذا ألم بحديقة من الحدائق أو جنة من الجنات لايحب أن يقع على أشجارها الضخمة الشامخة فى السماء وانما يحب أن يقع على أشجارها المعتدلة الهينة ، ويتخير من هذه الأشجار أغصانها الرطبة اللدنة التى تثير فى النفس حنانا اليها ، لا اكبارا لها ولا اشفاقا منها » .

(ب) ويثبت الناقد أحكامه السابقة عندما يتناول بشىء من التفصيل قصيدة «قلب راقصة» فيلاحظ على موضوعها الابتذال، مشيرا الى أن هذه البدعة التى سنها الكسندر دوماس فى أواسط القرن التاسع عشر قد اصبحت الآن شيئا مملولا. ولكن معظم هذا الجانب من النقد يعتمد على الدلالات النحوية واللغوية والعروضية ، حيث يشير الناقد الى اخطاء من هذه الأنواع ، كما يشير الى « التكلف » فى المعانى ، و « التناقض » فى اللفظ . ويعترض على افراط الشاعر فى تجسيم المعانى ، محتجا بأن هذا التجسيم لايستقيم للعقل فكيف يعظم الحنان حتى يتجسم ويصبح شخصا ؟ « فى هذا المعنى الغريب نظم الشاعر قصيدة لا أريد أن اعرض لها لأنى ارى هذا المعنى نفسه يفسدها افسادا . فالحنان يعظم حتى يملأ القلب ويغمر النفس ، ويؤثر فى حياة الانسان ، فأما أن يتجسم فيصبح شخصا ، فهذا كلام قد يفهمه الشعراء ، ولكن فهمه عسير على النقاد . »

(حـ) ويشبه الناقد شعر ناجى بموسيقى الغرفة : « شعره كهذه الموسيقى التى يفسدها الفضاء الطلق وتضيع فى الميادين الواسعة، وتجود كل الجودة وتحسن كل الحسن حين تغلق الابواب وترخى الاستار ، ويخلو النجى الى النجى ، ويفرغ الصفى للصفى ، ويتمتع الحبيب بقرب الحبيب »

واذا تركنا هذه الدلالات ونظرنا الى المعانى الاربعة المطيفة بها فاننا نلاحظ نبرة استاذية لاتزهو على القارىء ولكنها تأسره ، اذ أن علامتها الأولى هى التبسط فى شرح المشكلات اللغوية التى يقف عندها الناقد . وأهم من ذلك أن الدلالات التى شرحناها فيما سبق تتلبس فى معظم الأحيان بمواقف الناقد من الديوان المنقود . ولكى نوضح هذا المعنى نقول أن الدلالات العلمية المحضة لاشأن لها بموقف المتكلم أو الكاتب ، انما الشأن فيها أن

تكون الدلالة مطابقة للشيء ، والرمز مطابقا للدلالة واذا كانت ثمة كلمات مثل « المتانة » و «الرصانة» قد اصبحت رموزا غير واضحة الدلاله بالنسبة للسامع او القارىء على الأقل ، ومن ثم فهي تؤدي اليهما موقفا وجدانيا للناقد أكثر مما تعبر عن دلالة او فكرة ، فان هناك كلمات أخرى «كالجودة» و « الروعة » تعبر تعبيرا صريحا عن موقف وجداني .

ولكننا نلاحظ اننا لانستطيع ان نستخلص الموقف الوجداني للناقد من فقرة واحدة . بل اننا لو وقفنا عند فقرة واحدة لوقعنا في الخطأ في فهم هذا الموقف . وكأن الناقد يوزع موقفه على أجزاء المقال . فهو هنا أميل الى الرضا ، وهنا أميل الى الانكار ، وهنا يتعمد التوسط بينهما .

ولعل ما يريد الناقد ان يبلغه الى القارىء او يحمله على اعتقاده ، ليس شيئا يتعلق بالديوان نفسه ، بقدر ماهو شيء يتعلق بلغة الشاعر المعاصر على العموم . فالناقد يريد – بالحاجه على النقد اللغوي – أن يستقر في اعتقاد قارئه ان الشاعر يظل شاعرا صغيرا مبتدئا اذا هو تدلى في احيان كثيرة الى الخطأ في اللغة او النحو أو العروض ، أو فاتته مناسبة الالفاظ للمعاني .

والناقد لايجد صعوبة في القاء أحكامه . واذا كان قد ساق احدى جمله بأسلوب التشكيك ، فليس هذا لاستعصاء الرموز عليه بل ليوحي بنوع من العطف على الشاعر : « ولا جديد في الالفاظ والصور التي ادى بها هذه المعاني ، بل دفع فيها الشاعر الى شيء من التكلف أو من الخبط او الى شيء لا ادري ماهو ، ولكنه لايحسن من الشعراء » .

٢ – عبد القادر القط عن « اغاني افريقيا »

الدلالات التي نجدها في هذا النقد هي من نوعين فقط :

(ا) دلالات عن الديوان والشاعر ، وكلها مباشرة اي ان الناقد لايلجأ الى تشبيه الشاعر بطائر أو نحوه كما رأينا في النموذج الاول .

(ب) ودلالات توضح الدلالات السابقة وتدعمها.

(ا) وفي الدلالات التي تتناول الشعر والشاعر مباشرة ، تصادفنا ثلاثة أنواع من الرموز :

١ – رموز فنية أو جمالية . ومن هذه الرموز مامر بنا في النموذج السابق : كالصور ، والأساليب ، والمعاني . وهذه الدلالات توصف غالبا بصفات تحددها . وبعض هذه الصفات ايضا شبيه بما مر بنا في النموذج الاول . فتصوير الفيتوري « يتسم بكثير من الوان التجسيم البارعة في غير شطط ولا تكلف » . والصور كئيبة قاتمة ، أو مشرقة جميلة . ولكنها يمكن أن تكون ايضا « هادئة معبرة » . كما يمكن أن تكون « صورا رمزية » .

ويظهر من هذا أن الناقد يستعيض عن التشبيهات بالأوصاف المحددة .

ثم ان هناك رموزا فنية جديدة. فهناك الحديث عن « تقاليد » الشعر القديمة ، و « قيمه » الجديدة . وهناك كلام عن « الموضوع » وصلته « بالعمل الفني » . وهناك نوع من المقابلة بين « الادب الذاتي » و « الادب الواقعي » .

وهذه الطائفة الجديدة من الرموز الفنية تسلمنا الى النوعين التاليين :

٢ – رموز اجتماعية . وأهمها رمز « التطور » ومعلوم أن رمز « التقاليد » نفسه ذو دلالة الاجتماعية. على ان الرموز الاجتماعية المباشرة (اي « التجريد » بين الدلالات الفنية والدلالات الاجتماعية . على ان الرموز الاجتماعية المباشرة(اي دون تجريد) تدخل بسهولة من خلال «الموضوع» فموضوع الفيتوري يتناول مشكلة اجتماعيه ، ومن هنا تدخل رموز « التخلف » و « الحضارة » و « الوضع التاريخي » و « ظروف البيئة » الخ .

٣ – رموز نفسيه . وهذه ايضا وثيقة الاتصال بالنوع الأول . وكأن للرموز الفنية جانبين : جانبا يتصل بالرموز الاجتماعية ويتعامل معها ، وجانبا يتصل بالرموز النفسية ويتعامل معها. ومن هذا النوع الأخير : الانطباع الذاتي ، التجربة العاطفة ، الخيال ، الادراك ، الاستجابه ، الموقف الشعوري .

والناقد يحلل ديوان الفيتوري مبينا بهذه الرموز المختلفة جانبي « الموضوع الاجتماعي » و « التجربة الذاتية » فيه ، واثرهما في قيمته الفنية .

وفي ثنايا هذا التحليل يستند الى « الدلالات الموضحة » التي نشير اليها فيما يلي :

(ب) هذه الدلالات الموضحة هي غالبا قضايا عامة في طبيعة العمل الفني وعناصره. كقول الناقد مثلا : « ان الموضوع في الأدب الواقعي يعد من صميم العمل الفني ، بل هو في الحقيقة عنصره الاول الذي تستمد منه سائر العناصر الاخرى سماتها وقيمتها . ولاشك أن للموضوع شأنه الكبير في كل مذاهب الأدب ، ولكننا نلاحظ أن الادب الذاتي مثلا يمكن أن يستغني احيانا ببعض المظاهر الجمالية وبما فيه من حرارة العاطفة وسمو الخيال عن الادراك الواعي لطبيعة المشكلة التي يعرضها . وهو وان لم ينفذ الى جوهر تلك المشكلة يتسم بكثير من الصدق الذي ينبع من أحساس الأديب بتجربته الفردية احساسا قويا »

وفي الجانب الآخر ، النفسي ، يقرر : « ان الشعر الانساني الرائع لابد له من أن يرتبط بنفس الشاعر ويتصل بتجربة خاصة تنقل الى القارىء الجو الذي عاش فيه الشاعر تلك التجربة ، فلا تكون القصيدة مجرد احاسيس عامة لاتخلق الفة

بين منشىء الشعر ومتلقيه » .

ويصعب أن نستشف من أى رمز من الرموز اللغويه البسيطة أو المركبة موقفا للناقد من القارىء . وبعبارة أخرى نقول ان الناقد لايشعرنا بانه حين اختار لفظة ما او ركب جملة ما قد صدر بذلك عن اتجاه معين نحو القارىء ، انما الظاهر انه كان مستغرقا تماما فى موضوعه .

ويكاد الناقد يتجرد تماما من الموقف الانفعالى ازاء هذا الشعر . ولابد من التنبيه هنا الى ان ملاحظاتنا تنصب على النقد المكتوب فقط ، فمن المعلوم أن الناقد يتقبل الأثر الادبى اولا بوجدانه ، ككل قارىء ولكنه ينتقل بعد ذلك الى مرحلة التحليل ، وهنا يمكن ان يكون عمله علميا بحتا . فلا ينصب الا على مطابقة الدلالة للمدلول ، ومطابقة الرمز للدلالة ، والدلالات هنا هى العناصر التى جعلت للاثر قيمته الخاصة ، والرموز هى الكلمات والجمل التى تؤدى هذه الدلالات أداء دقيقا .

وكذلك يشعرك الناقد بمحاولة ما لحملك على اعتقاد معين ، ولا نحس سهولة ولا صعوبة فى اختيار الرموز ، فهو فى ذلك كله محايد ، علمى .

٣ – صبرى حافظ عن « الأرض والعيال »

الدلالات فى هذا النموذج ، كما فى النموذج السابق ، تنقسم قسمين :

(ا) دلالات عن الديوان المنقود وصاحبه

(ب) دلالات تسند الدلالات السابقة .

اى أن جانبا كبيرا من النقد ينصب على قضايا اعم من الديوان المنقود نفسه : قضايا تتناول الشعر الفصيح والعامى ، وعلاقة الثانى بالزجل من ناحية ، وبالشعر الجديد من ناحية أخرى .

ولكن يلاحظ ان الناقد يستخدم الدلالات المباشرة وغير المباشرة فى كل من هذين القسمين وبدلا من اسلوب التشبيه الذى رأيناه فى النموذج الأول ، نرى الناقد يعمد فى هذا النموذج الى اسلوب الاستعارة . بل ان الدلالات الاستعارية فى القسمين تغلب على الدلالات المباشرة .

(ا) الرموز التى يستخدمها الناقد فى الدلالة على الديوان تكاد تكون كلها رموزا فنية . ولكن القليل منها هو الفنى الأصيل ، كالكلام على الصور ، وظلال الصور ، والبناء الفنى للصورة ، والرومانتيكية ، والدرامية ، والصراع . والى جانب ذلك مصطلحات يمكن أن نقول انها فنية أيضا ، ولكن الناقد آثرها على رموز اخرى أبسط ، دون سبب واضح لذلك ، كاستعمال كلمة « الطلسمية » ، بدلا من « الالغاز » فى هذه الجملة : « أما الخاصية الثانية المتعلقة ببناء الصورة فى شعر الابنودى فهى محاولة تجهيل الصورة المعلومة من خلال تكوينها من جزئيات يمكن ادراكها ولكن غير معقول تصورها . وهو يفعل ذلك دون الوقوع فى الطلسمية » . ولكن معظم هذه الرموز الفنية مستعار من ميادين أخرى من الفلسفة : الرؤية ، التناقض (الجدلى) ، الوجدان الاجتماعى . من الطبيعة : التكثيف . من الميكانيكا : الزخم . والى جانب ذلك رموز مركبة يصوغها الشاعر صياغة اشبه بصياغة المصطلح . فالابنودى يكشف الليل من خلال النقاط « الجزئيات الميكروسكوبية الراسمة لادق أبعاده » . وهو « شديد الاعتزاز بمقدرته على فهم هذا الواقع الظلامى وكشف القناع عن ابعاده » الخ .

ويلى ذلك ، أخيرا ، التشبيهات والاستعارات غير الاصطلاحية :

« الليل الذى يسقط كايقاع جنائزى حزين وسط قصائد الديوان » .

« يحاول عبر احداقهم أن يحتضن العالم » الخ .

(ب) والرموز العامة (أى التى يستخدمها الناقد فى القضايا العامة) تميل كثيرا الى التعبير بالوصف . مثل « التصوير الشكلى » ، « الرؤية الحضارية » ، (اطار اللعبة الجليدى) الخ . .

ويمكننا ان نلاحظ من هذا النشاط فى استعمال الرموز الاستعارية وابتكارها أحيانا ان الناقد مستغرق فى هذه اللعبة العقلية التى تكاد تستنفد لا طاقته الفكرية فحسب ، بل طاقته الانفعالية ايضا . فالرموز التى يستعملها لاتعبر عن موقف انفعالى من القارىء ، او من الديوان موضوع النقد بقدر ما تعبر عن موقف انفعالى من الافكار التى أثارها عنده هذا الديوان ، ولذلك تبدو بعض الرموز غامضة ، وبعضها حشوا . ان الناقد يدفع ثمن التجريد وثمن الحماسة معا .

خلاصة

يظهر من تأمل هذه النماذج الثلاثة أن لغة النقد اختلفت فى النموذج الثانى عنها فى النموذج الأول من النواحى الآتية :

١ – اقترابها من الأسلوب العلمى

٢ – ترك المشكلات اللغوية والنحوية

٣ – التركيز على النقد الفنى ، وتقرير قضايا فنية عامة فى ثنايا النقد التطبيقى .

٤ – اتصال النقد بعلم الاجتماع من ناحية ، وبعلم النفس من ناحية أخرى .

أما النموذج الثالث فقد استمر فى نفس الطريق الذى سلكه النموذج الثانى ، ولكنه :

١ – عاد الى استعمال التشبيه والاستعارة كما فى النموذج الاول ، بل تجاوز مقدار مافى النموذج الأول من ذلك . واستخدم الاستعارة فى توليد الدلالات بكثرة تهدد بالغموض والنطنطة اللفظية .

٢ – بالرغم من أن الناقد لايعبر عن انفعاله بالديوان المنقود تعبيرا مباشرا كما فى النموذج الأول ، فان ثمة لونا انفعاليا يبدو حتى فى صياغة المصطلحات ●

اتجاهات المستشرقين

فى دراسة الحياة اللغوية فى العالم العربى الحديث

بقلم الدكتور
محمود فهمى حجازى

أولا : تطور الاتجاهات والدراسات

لعلّ من المفيد أن نفرق فى مطلع هذا المقال بين البحث العلمى فى اللغة وبين تدريس اللغة ، فالبحث العلمى يهدف اولا وقبل كل شىء الى دراسة الواقع اللغوى اى الى رصد ظواهر اللغة الصوتية منها والصرفية والتركيبية والدلالية . والبحث اللغوى الحديث نشأ فى أوائل القرن التاسع عشر وتطورت مناهجه وتبلورت مع تقدم الدراسات . وكان الاشتغال بالعربية قبل القرن التاسع عشر فى أوربا محصورا داخل دوائر رجال الدين ولهذا أسباب تاريخية . ففى القرن الثانى عشر ظهرت فى أسبانيا المسيحية فى اثناء موجة القضاء على عروبة الاندلس واسلامه فكرة ترجمة القرآن الى اللاتينية وذلك تمهيدا لدراسة الاسلام لتشكيك معتنقيه فى صحته . كما الف بعض المبشرين عددا من المعاجم الصغيرة العربية اللاتينية . وفوق هذا فقد كان بعض رجال الكنيسة يحلمون بفكرة ضم الكنائس الشرقية وتوحيدها فى اطار الكاثوليكية ، ولذا اصدر المجمع المسكونى سنة ١٣١١ توصية بدراسة العربية والعبرية واليونانية والآرامية بجامعات روما واكسفورد وباريس وبولونيا . وفى سنة ١٦١٣ عرفت أوربا أول قسم للغات الشرقية وكان هذا بجامعة ليدن ، الا ان الدراسة به لم تنفصل انفصالا تاما عن الدراسات اللاهوتية ، وظلت روح المبشرين مسيطرة على اللغات الشرقية ودراساتها والترجمة منها فى القرن السابع عشر . وفى القرن التالى بدا الاهتمام بالعربية لفائدتها فى ايضاح بعض ما غمض فى النص العبرى للعهد القديم ، وكانت الفكرة السائدة آنذاك أن العربية لهجة عبرية . وكل هذا لم يخرج بدراسات ذات قيمة فى اللغة العربية ، فقد كان الهدف تعلم اللغة للتبشير او لترجمة القرآن او لفهم عبرية العهد القديم ، ولم يكن أحد فى الجامعات الأوربية يرمى الى البحث اللغوى فى العربية ولهجاتها .

وحدثت الانطلاقة الكبرى فى البحث اللغوى فى القرن التاسع عشر ، وكانت مدرسة اللغات الشرقية الحية التى اسست فى باريس ١٧٩٥ قبلة المتخصصين فى اللغة العربية . كانت دراسة اللغة بها قائمة برأسها لا تهدف الى خدمة اللاهوت . وادى استقلال الدراسات العربية الى بث روح جديدة فيها ، فألف سيلفستر دى ساسى Sacy سنة ١٨١٠ كتابه فى « النحو العربى » ، واتجه تلاميذه بعزيمة ونشاط الى المخطوطات العربية وحققوا منها عددا كبيرا ، كما انصرف بعضهم الى اعداد المعاجم ، نذكر منهم فرايتاج وفلوجل ، وفى نفس الوقت كان المنهج المقارن فى البحث اللغوى يتبلور ويتقدم تقدما رائعا . ومعروف أن اكتشاف اللغة السنسكريتية ومقارنتها باللاتينية واليونانية قد ادى الى قيام المدرسة المقارنة فى الدراسات اللغوية . قارن اللغويون بعد ذلك كل اللغات واللهجات التى تضمها المجموعة الهندية الأوربية هذه التى تضم معظم لغات أوربا وايران والهند ، وحققوا بهذه المقارنات نتائج وضعت دراسة اللغة لأول مرة فى التاريخ فى مصاف العلوم الدقيقة كما خرجوا بنتائج يقينية عن العلاقات التاريخية بين اللغات . وأوضح المنهج المقارن حقيقة هامة وهى ان اللغة لا تختلف فى جوهرها عن اللهجة وان كل اللهجات واللغات تقف فى مجال المقارنة على قدم المساواة ، فعلم اللغة لا يعرف امتيازا او فضلا للغة على اخرى او للهجة على اخرى او للغة على لهجة ،

واللغة لا تختلف عن اللهجة الا من ناحية مستوى الاستخدام لا أكثر ولا اقل . وعرف المتخصصون الأوربيون فى اللغات الشرقية ما عند أقرانهم من الباحثين فى اللغات الهندية الأوربية من نتائج . وأعجبو بالمنهج المقارن ايما اعجاب وادركوا الحاجة العلمية الى رسم صورة تاريخية متكاملة للغات السامية فى صورها المختلفة المدونة والمنطوقة . وادرك الباحثون فى اللغات السامية اهمية دراسة اللهجات العربية الحديثة جنبا الى جنب مع دراسة العربية الفصحى ونقوشها القديمة وبحث اللغات السامية الأخرى ، وكل هذه الصور اللغوية دخلت ميدان المقارنة لترسم القسمات العامة لتطور اللغات السامية ولعلاقة هذه اللغات الواحدة بالأخرى ، وهذا ما نجده يبلغ ذروته فى السفر القيم الذى الفه المستشرق الألمانى « بروكلمان » Brockelmann بعنوان « الأساس فى النحو المقارن للغات السامية » ط ١٩٠٨ — ١٩١٣ . وصفوة القول ان ظهور المنهج المقارن فى البحث اللغوى ادى الى بداية الاهتمام باللهجات العربية .

ومع حركة المد الاستعمارى ظهرت الحاجة والرغبة فى بعض الدول الأوربية الى اعداد نفر من ابنائها اعدادا لغويا حتى يستطيعوا التعامل مع المستعمرات بلغاتها وبلهجاتها ، وأدت المصالح التجارية لبعض الدول الأوربية مع العالم العربى الى الاهتمام باللهجات العربية الحديثة . وكان مظهر هذا الاهتمام تعيين مدرسين عرب فى الجامعات الأوربية لتدريس اللهجات العربية وللتاليف فيها ، فكان الياس بقطر (١٧٨٤ — ١٨٢١) أول مدرس شغل كرسى العربية العامية بمدرسة اللغات الشرقية بباريس وبدأ عمله سنة ١٨٢٠ ، وكان محمد عياد الطنطاوى يدرس العامية المصرية فى كلية اللغات الشرقية بجامعة بطرسبرج التى اسست سنة ١٨٥٥ . وقام احمد فارس الشدياق (١٨٠٥ — ١٨٨٧) بتعليم العامية فى الجامعات البريطانية ، والف فى ذلك « اصول اللغة العربية المحكية » ط ١٨٥٦ . واشتغل ميخائيل صباغ نفس العمل فى ستراسبورج وصنف « الرسالة التامة فى كلام العامة والمناهج فى احوال الكلام الدارج » ط ١٨٨٦ .

نلاحظ لذلك فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر اتجاهين للتأليف فى اللهجات العربية ، الاتجاه الأول علمى الهدف والثانى تعليمى . نجد امثلة الاتجاه الأول فى مؤلفات المستشرق السويدى المكفيست ت ١٩٠٤ مثل « اضافات صغيرة الى معجم العامية العربية » والمستشرق السويدى الآخر لاندبرج فى « دراسات فى اللهجات العربية الجنوبية » ط ١٩٠١ وفى دراساته عن لهجات البدو وحضرموت ودثينة . ونجد هذه الروح العلمية عند رودوكاناكس فى « اللهجة العامية فى ظفار » ط ١٩٠٨ ، وعند راينهارت فى « اللهجة العربية فى عمان وزنجبار » ط ١٨٩٤ فى « اللهجة العربية فى المستشرقين بالتراث الشعبى الى جمع الأمثال او الحكايات الشعبية ودراسة لغتها مثلما نجد فى مؤلفات استروب مثل « اقاصيص دمشق » ط ١٨٩٧ حيث سجل النصوص ودرس خصائصها الصرفية والنحوية .

●

أما الاتجاه التعليمى فنلاحظه فى مجموعة من الكتب اعدت لتعليم الأوربيين التحدث بلهجة ما ونجد هذا مثلا فى كتاب مارى برنار فى « لهجة السنغال العربية » ورينييه فى « لهجة موريتانيا العربية » . وفان اس فى « العربية المنطوقة فى العراق » . وهذه الكتب التعليمية تعوزها الدقة وليست ذات قيمة فتندرج ضمن الأبحاث العلمية فى اللغة .

وفى الوقت الذى ازدهر فيه المنهج التاريخى فى البحث اللغوى والفت كتب كثيرة لتعليم اللهجات العربية ظهر كتاب فى « نحو العامية المصرية » بقلم شبيتا بك . وكان المؤلف يشغل آنذاك مدير الكتبخانة الخديوية بالقاهرة ، أثارت مقدمة هذا الكتاب فى مصر نقاشا طويلا حول العامية والفصحى . ذكر شبيتا فى مقدمته ان الاختلاف الكبير بين اللغة المنطوقة واللغة المدونة يقف حجر عثرة فى سبيل نشر التعليم ، ورأى فى الكتابة بالعامية تيسيرا على المتعلمين واقترح هجر الكتابة بالحروف العربية لصعوبة استخدامها . وأثار هذا الاقتراح جدلا ونقاشا عارضه البعض وايده البعض الآخر . ثم قدم مصر مع الاستعمار البريطانى مهندس الرى وليام ولكوكس ونادى فى محاضرة عامة سنة ١٨٩٣ بأن تخلف المصريين فى الاختراع يرجع الى أنهم يريدون الكتابة بلغة ويتحدثون بأخرى ، وطالب بالتأليف بالعامية دون الفصحى . ثم ألف ولكوكس بعد ذلك بأكثر من ثلاثين عاما كتابا بعنوان « لغة سوريا ومصر وشمال افريقيا ومالطه هى البونيه لا العربية » وقد ادعى ولكوكس دون دراسة للبونية وللغات السامية الأخرى أن اللهجات العربية الحديثة امتداد للبونية ، وهذه البونية كانت فى رأى ولكوكس لغة الحديث فى المنطقة العربية حول البحر المتوسط قبل الاسلام .

●

فى مقدمة شبيتا ومحاضرة ولكوكس وكتابه دعوة الى هجر الفصحى والكتابة بالعامية . وادى هذا الى أن ربطت بعض الدوائر فى العالم العربى بين المستشرقين أجمعين وبين الدعوة الى اتخاذ العامية لغة كتابه ، بل واعتقد البعض أن دراسة اللهجات هدم للدين وخدمة للاستعمار ، بل ومايزال البعض يخلط بين البحث العلمى فى اللهجات وبين

الدعوة الى الكتابة بالعامية وهجر الفصحى . والواقع أن علم اللهجات ككل علم من العلوم هدفه دراسة الواقع كما هو لا كما ينبغى ان يكون ، الباحث اللغوى يدرس واقع اللغة كما يدرس الجيولوجى واقع الصخور وطبقات الارض . وكما أن الجيولوجى لا يغير الصخور فاللغوى لا يغير اللغة بل يدرسها لمعرفة عناصرها الصوتية والصرفية والتركيبية والمعجمية . فالدعوة الى احلال العامية محل الفصحى لا تمت الى البحث اللغوى بصلة كما ان ولكوكس الذى اقترن اسمه بذلك ليس من علماء اللغة . ولعل فى الفقرة التالية من مقال لجان كانتينو ما يوضح موقف دارسى اللهجات الأوربيين من قضية الصراع بين العامية والفصحى ، يقول كانتينو : « ان الاختلاف اللغوى شر والوحدة اللغوية خير عظيم وانى فى حالة العرب خاصة لأفهم كل الفهم وارى من الحق ان يشعر العرب المتباعدة اقطارهم بحاجتهم الى لغة واحدة هى رمز وحدتهم الروحية وأن هذه اللغة الواحدة لا يمكن ان تكون سوى الفصحى ... حينما يوجد اثر قديم من الأبنية عديم نفع وقليل جمال وهو على قارعة طريق ينتفع الناس بسلوكه ولا يستطيعون أن يستعيضوا عنه بغيره نجد من الحق الشرعى ان نفادى بهذا البناء وأن نهدمه ونزيله عن طريق الناس ، ذلك ان حاجات المدنية تتقدم على الانتفاع بعلم نظرى صرف ، غير ان علم الآثار يتطلب ــ بحق ــ ان يعنى بتخطيط هذا الأثر القديم وان تصور منه المواضع الضرورية تصويرا شمسيا قبل أن يمحى من الوجود . ان هذه الحالة لتنطبق على اللهجات العربية التى تريد أن تنقض وتنقرض ، ولا ريب أن من المفيد انقراضها . اذ لا يرمى علم اللهجات الى المحافظة على هذه اللهجات أصلا ولا الى تجديد حياتها وانما يهمه ان توصف وتعرف قبل فقدها » . وصاحب هذا القول هو المستشرق الفرنسى كانتينو الذى درس وحده أكثر من عشر لهجات عربية فى عمق وأصالة ودقة .

واليوم لا نرى اهتماما بالحياة اللغوية للعربية الفصحى فى العصر الحاضر ولا بلهجاتها الحديثة فى دوائر المبشرين ورجال الدين او فى اقسام العهد القديم او أقسام التاريخ الاسلامى . بل نجد دراسة العربية الفصحى الحديثة واللهجات العربية الحديثة يدخل فى نطاق الأقسام الخاصة بالعربية وحدها او بالعربية مع اللغات السامية . وكل الأبحاث العلمية فى العربية الحديثة انما خرجت من أقسام تهدف اولا وقبل كل شىء الى البحث اللغوى . ومعروف أن البحث اللغوى يخرج عن نطاق تعليم اللغة ويخرج عن مجال السياسة اللغوية .

ثانيا : مناهج المستشرقين المعاصرين فى علم اللهجات العربية الحديثة :

تمتد اللهجات العربية الحديثه فى مناطق ضخمة من افريقيا وآسيا خارج نطاق الدول التى نصفها عادة باسم الدول العربية ، ففى أفريقية توجد مناطق عربية اللغة فى موريتانيا (شنقيط) وساحل الذهب وفى واداى وجنوب بحيرة تشاد وشرقها ، وكذلك على امتداد الساحل الشرقى لافريقيه فى زنجبار والصومال ، وهناك جزيرة لغوية عربية فى وسط آسيا فى جمهورية ازبكستان السوفيتية ، كما ان لغة الحديث فى مالطة عربية ، ومعرفة التوزيع الجغرافى للهجات العربية الحديثة وتحديد حدود كل لهجة وتبين الجزر اللغوية العربية داخل المناطق غير العربية والجزر اللغوية غير العربية داخل المناطق العربية ، كل هذا يدخل فى ميدان الجغرافيا اللغوية وتعرض نتائجه فى صورة « أطلس لغوى » . وقد تطور منهج اعداد الأطالس اللغوية فى أوربا فى دراسات اللغويين هناك لواقعهم اللغوى واستفاد منها المستشرقون وتوسلوا بها فى عرض ظواهر اللهجات العربية عرضا جغرافيا ، ولم يظهر فى العالم العربى الى الآن اى اطلس لغوى . وهناك مجموعة محدودة من اطالس اللهجات العربية اعدها مستشرقون منها « الأطلس اللغوى لسوريا وفلسطين » الذى أعده اللغوى الألمانى برجشتراسر Bergsträsser استاذ اللغات السامية السابق بجامعتى ميونيخ والقاهرة ، وقد طبع الأطلس سنة ١٩٢٤ . ومنها أيضا « أطلس اللهجات العربية فى حوران » للغوى الفرنسى كانتينو وطبع سنة ١٩٤٠ ، يضاف الى هذا وذاك مجموعة المقالات التى كتبها كانتينو من ١٩٣٦ الى ١٩٤١ عن التوزيع الجغرافى للهجات العربية فى الجزائر * والأطلس اللغوى هو العرض الجغرافى للظواهر اللغوية ففى خريطة مانرى نطق الجيم وتوزيعه ، فنرى المناطق التى تنطق فيها الجيم معطشة ذات حدود جغرافية واضحة تفصلها عن مناطق نطقها جيما قاهرية وهلم جرا . ونرى فى خريطة ثانية المناطق التى تنطق الراء فيها بالتفخيم دائما والمناطق التى تنطق فيها الراء بالترقيق دائما ، كما نرى مناطق نطقها تارة بالتفخيم واخرى بالترقيق . فاذا تصورنا عملا كهذا يتناول النظام الصوتى بكل عناصره والنظام الصرفى بعناصره المميزة وكذلك بناء الجملة والمعجم الحى لكان لدينا اطلس لغوى كامل يحدد لنا توزيع الظواهر اللغوية على نحو دقيق ويبرز الجزر اللغوية .

اذا تناولنا اى بحث اوربى فى لهجة عربية حديثه وجدنا ان الباحث يبدأ عمله بتسجيل مجموعة من النصوص يأخذها شفاها عن المتحدثين باللهجة

(*) اعد الزميل الدكتور فهمى أبو الفضل أطلسا لغويا لاقليم الشرقية طبع فى ألمانيا سنة ١٦٩١ .

قيد الدراسة ، ويسجلها بالكتابة الصوتية تسجيلا دقيقا . وعلى أساس هذه النصوص يبدأ الباحث تحليله لخصائص اللهجة واعداده لمعجمها . تسجيل النصوص اذن هو الأساس الذى تقوم عليه دراسة اللهجات . ومن أحسن دراسات اللهجات العربية عند المستشرقين كتاب اللغوى الفرنسى فيليب مارسيه عن لهجة جيجلى فى الجزائر . وقد اقام هذه الدراسة بعد أن جمع قدرا من النصوص ودونها بالكتابة الصوتية ثم اقام عليها دراساته ونشر هذه النصوص فى مجلد مستقل . بدأ مارسيه دراسته للهجه بالجانب الصوتى . وهو يعرض فى القسم الخاص بالأصوات من بحثه للأصوات الساكنة فى تلك اللهجة ويذكر الصور النطقية المختلفة لكل صوت من هذه الأصوات ثم ينتقل بعد هذا الى دراسة الحركات يدرس نطقها ومدى تأثير الأصوات الساكنة المجاورة لها فى تلوين ذلك ، ثم يدرس مكان الحركة فى الكلمة وينتقل بعد دراسة كل جانب بنظرة وصفية افقيه الى بحثه على نحو تاريخى راسى بأن يقارن اللهجة قيد الدراسة بالعربية الفصحى وباللهجات الأخرى . افرد مارسيه بعد هذا فصلا للاطباق تحدث فيه ايضا عن تأثير بعض الأصوات المطبقة فى جعل الأصوات غير المطبقة مطبقة ، ثم خصص فصلا مطولا عن بناء المقاطع ، وخرج من هذا الى دراسة ظواهر السياق الصوتى وتأثير الأصوات بعضها فى بعض على التماس وعلى البعد ، ثم انهى دراسته للأصوات بفصل عن النبر . وبهذا ينتهى القسم الأول الخاص بالأصوات . والملاحظ فى هذه الدراسة الوصفية الممتازة أنها زاخرة بتفصيلات جمعت ودرست بطريقة واضحة ومنهج سديد .

القسم الثانى من اى دراسة كاملة للهجة من اللهجات ، هو القسم الخاص ببناء الكلمة وهو يسجل هنا ابنية الأفعال فالأسماء راصدا معالم كل بناء واستخدامه ومعناه ، وهو يربط هنا ربطا بارعا بين مقتضيات الوصف اللغوى وامكانيات البحث التاريخى المقارن .

والملاحظ فى ابحاث الأوربيين ومن شايعهم فى منهج البحث اللغوى انهم يهتمون اهتماما كبيرا بالاستعانة بالمنهج التاريخى المقارن فى دراساتهم للهجات . فهم لا يكتفون بمجرد وصف الظواهر اللغوية الموجودة فى اللهجة موضوع الدراسة بل يحاولون ربط هذه الظواهر بما يماثلها فى اللغات واللهجات السامية الأخرى . بينما تنتزع « مدرسة البنية » Structuratism فى البحث اللغوى الى تجريد النظام الصوتى والصرفى عن اللغات السابقة عليه اى الى دراسته كما هو دون مقارنات ودون التوسل بالمنهج التاريخى . يتضح هذا مثلا من مقارنة بحث هاينتس جروتسفيلد عن لهجة دمشق ببحث هارل عن اللهجة المصرية . اولهما المانى درس مناهج البحث اللغوى المختلفة وهويدرس فى بحثه لهجة دمشق بطريقة وصفية اولا اذ يقرر ما هو موجود بها من ظواهر صوتية وصرفية ثم يخرج بعد ذلك الى المقارنات التاريخية . اما هارل فهو امريكى يؤمن بالمنهج الوصفى وهو من انصار « مدرسة البنية » ، ولذا فقد اكتفى بوصف دقيق لما لاحظه بالبحث فى لهجة القاهرة . فأى بحث فى لهجة عربية يكتب فى قارة اوربا لابد ان يكون مدعما بدراسة للغات السامية وبمقارنات تاريخية ، ولكن المدرسة الانجلو ـ امريكية ترى فى علم اللغة العام اساسا كافيا لدراسة لهجة من اللهجات .

اهتم المستشرقون ببعض المناطق العربية دون غيرها فى ابحاثهم عن اللهجات ، فقد نالت منطقة شمال افريقيا ومنطقة الشام ـ بالمعنى الجغرافى الكبير ـ ومنطقة الجنوب العربى معظم اهتمامهم . اما لهجات الجزيرة العربية مهد العرب ولهجات مصر والعراق وليبيا والسودان فلم تنل بعد حظها من عناية الباحثين والأمل معقود على اللغويين العرب فى دراسة هذه المناطق . قلت ان اللغويين الفرنسيين قاموا بتسجيل نصوص من شمال افريقيا ثم بدراسة هذه النصوص وتحليلها تحليلا لغويا ، وفوق هذا وذاك فقد الفوا عددا من المعاجم اللهجية تتناول المعجم الحى فى هذه اللهجات ، كما اتجهوا اخيرا الى تأليف معجم عربى فرنسى على اساس لهجات فلسطين والشام . وقد ظهر فى الولايات المتحدة أخيرا برنامج لتأليف معاجم لهجية تتناول لهجات سوريا ومراكش والعراق ويشرف على تنفيذ هذا هارل منذ سنة ١٩٦٠ . ولكن يبدو أن هذه المعاجم ستكون عملية الطابع ، لا تستوعب ولا تقارن .

ثالثا : المستشرقون المعاصرون والعربية الفصحى الحديثة :

ما تزال العربية الفصحى المبكرة واللهجات الحديثة تحتل مكان الصدارة فى دراسات اللغة العربية فى أوربا ، ومعنى هذا أن العربية الفصحى الحديثة لم تحظ باهتمام كبير من جانب اللغويين ، ولنضرب لذلك مثلا بسيطا ، فقد كتبت ابحاث كثيرة عن جهود الخليل وسيبويه فى الأصوات العربية كما درست الأنظمة الصوتية لعدد كبير من اللهجات العربية الحديثة ، ولكن نطق العرب المعاصرين للعربية الفصحى ومدى تأثره باللهجات المحلية ومدى اختلافه فى الأجيال المختلفة ومدى اتفاقه او اختلافه عن وصف النحاة القدماء لنطق الأصوات العربية ، كل هذه موضوعات ما تزال فى حاجة للبحث . وقد ظهر اخيرا بحث صغير وطريف لأحد اللغويين الأمريكيين هو ريتشارد هارل بعنوان: « عربية الاذاعة المصرية » . حاول هارل فى بحثه

هذا ان يدرس النطق الاذاعي للعربية الفصحى فى مصر على أساس ما هو كائن لا على أساس ما ينبغي ان يكون ، فسجل مجموعة من نشرات الأخبار ودرس كيفية نطق المذيع للأصوات ومدى تأثره بالعامية المصرية وجوانب اختلاف نطقه عن نطق العربية كما وصفه النحاة . كما حاول الباحث في دراسته ايضا ان يعرض لبعض الخصائص الصرفية فى عربية الاذاعة المصرية . وهذا البحث فريد فى بابه طريف فى موضوعه .

معظم اهتمام المستشرقين بالعربية الفصحى الحديثة منصرف الى المعاجم ، ومن اهم المعاجم التى ظهرت فى اوربا وكانت العربية طرفا فيها : المعجم العربى الروسى للمستشرق برانوف Baranov والمعجم العربى الألمانى للمستشرق هانز ڤير Wehr وقد ترجم هذا الأخير الى اللغة الانجليزية وظهرت الترجمة باسم كووان Cowan . وتقوم كل هذه المعاجم على اساس علمى سليم ، فقد قام كل مؤلف بحصر مجموعة من النصوص العربية الحديثة تمثل المجالات العامة للثقافة والسياسة والعلم ، ثم سجلت كل كلمة فى بطاقة خاصة بها،وسجلت معهاالتراكيب والتعبيرات المختلفة التى ترد فيها الكلمة مع مدلولاتها المختلفة . وعلى هذا الأساس قامت هذه المعاجم ، ولعل ما يؤخذ عليها انها استعانت ببعض المعاجم المدرسية والتافهة التى تورد احيانا ترجمات خاطئة او الفاظا لا تعيش الا فى بطون المعاجم . والملاحظ ان هذه القواميس تستهدف تيسير فهم النصوص العربية للقارىء الأجنبى .

ومنذ اعوام وبعد صدور عدد من القواميس المدرسية المترعة بالأخطاء ، فى الترجمة والصياغة العربية ، فكر المستشرق الشاب جوتس شريجله Schrigle ان يؤلف لأبناء العربية من قراء الألمانية معجما المانيا عربيا ضخما على مستوى مائة وعشرين الف مادة . يقع فى حوالى الف وخمسمائه صفحة . وكان صاحب فكرة هذا القاموس يؤمن بأن اى قاموس ثنائى اللغة يؤلف للفتين سيتين لابد ان يقوم على اساس تعاون بين مؤلفين : احدهما من بيئة هذه اللغة والآخر من تلك وكلاهما متخصص فى لغته وفى لغة الآخر . وعلى هذا الأساس تعاون معه فى التأليف اللغويان المصريان د . فهمى ابو الفضل ود. محمود حجازى وتم فى ظل هذا التعاون انجاز قسم كبير من القاموس . والملاحظ على منهج هذا القاموس ان يعتمد اساسا على النصوص ولا يأخذ من المعاجم الا ما تقره النصوص ويعترف بصحته وشيوعه المؤلفان . فالألفاظ التى لم تعد تستخدم اليوم فى العربية الفصحى لا مكان لها فى القاموس . وقبل أن نختم القول فى معاجم المستشرقين لابد ان نشير الى المعجم الألمانى العربى الصغير الذى ظهر فى ليبزج باشراف كراهل Krahl ، وهو عمل لا بأس به رغم صفره وقلة مفرداته .

●

وفى ميدان دراسة الخصائص الصرفية والنحوية للعربية الفصحى فى العصر الحديث نجد مجموعة متواضعة من المقالات العلمية بقلم هانز ڤير Wehr فى ١٩٣٤ و ١٩٤٣ وبقلم غيره من الباحثين . ومنذ اعوام ظهرت رسالة حصل بها مقدمها المستشرق الفرنسى مونتى Monteil على درجة الدكتوراه ، وعنوانها « العربية الحديثة » . وقد عرض فى هذه الرسالة للعوامل المؤثرة فى حياة اللغة العربية فى العصر الحديث ثم عرض لأهم خصائصها الصوتية وقضاياها الصرفية وخصائصها التركيبية وعالج ايضا موضوع الدلالة ومشكلة الكتابة وقضية الازدواجية .ولعل من المفيد هنا أن نعرض لآراء الباحث عن مستقبل اللغة الفصحى : يرى مونتى ان الظروف التى عاشتها الأمة العربية فى الماضى القريب ومارسبه الاستعمار من آثار وما تركته حركات التحرر من انطباعات ، كل هذا جعل المجتمع العربى يميل الى الانفصال عن الماضى وهذا مما يهز ايمان المجتمع بالعربية الفصحى ، ويرى ان مستقبل الفصحى مرتبط بحل القضايا التالية :

١ ـ اصلاح الكتابة .

٢ ـ التوحيد الصوتى (نطق الجيم والثاء والذال والظاء) .

٣ ـ تقليل الازدواجية بتقارب الأسلوبين .

٤ ـ الاحتفاظ بتعلم لغة اجنبية مع اتقان العربية ومحاربة العزلة والفصل بين الأمرين .

٥ ـ استخدام كل الامكانيات الاشتقاقية .

٦ ـ مد نطاق استخدام المصطلحات العلمية .

٧ ـ تبسيط بناء الجملة وتفضيل العبارة القصيرة .

٨ ـ الكتابة بأسلوب سهل وواضح ودقيق .

ويرى ان قضية المصطلحات العلمية هى اكثر هذه الأمور تعقيدا وصعوبة .

وهكذا بدات دراسات العربية لخدمة التبشير وتطورت فى القرن التاسع عشر لتخدم البحث العلمى فى اللغة وازدهرت فى القرن العشرين فى صورة ابحاث عن اللهجات واطالس لغوية ودراسات عن الفصحى ومعاجم تدخل العربية طرفا فيها . وما اسعدنا يوم ان نتقدم علميا ويتحدث العالم عن دراساتنا فى فقه اللغة الفرنسية او الانجليزية او الصينية .

أهم المصادر التي اشرت اليها في صلب البحث :

Fück : Die arabischen Studien in Europa Leipzig 1955.

Spitta : Grammatik des arabischen Vulgär- dialektes von Aegypten Leipzig 1880

Cantineau : Etudes de Linguistique arabe, Paris 1960.

Harrell : Egyptian Radio Arabic Harvard 1964.

Grotzfeld : Laut-und Formenlehre des Da- maszenischen Arabisch Wiesbaden 1964.

Marçais : Le Parler arabe de Djidjelli, Paris s.d.

Monteil : L'Arabe moderne Paris 1962.

Willcoks : Syria, Egypt, North Africa and Malta speak Punic not Arabic, London 1926.







من الواضح أن المقصود بهذا البحث أن نتحدث عن اللغة العربية فى الدول غير العربية بآسيا وافريقية ، أما الدول العربية هنا وهناك فليست داخلة فى اطار هذا الحديث ، والكلام عن اللغة العربية بالدول غير العربية بآسيا وافريقية يقضينا أن نقوم بدراسة عن اللغات المحلية بهذه المناطق ، ومن المؤكد ان اللغات بتلك البقاع تأثرت بالأوضاع الجغرافية والحياة الاجتماعية . فما هى صورة الحياة جغرافيا واجتماعيا بآسيا وافريقية ؟ وماذا كان أثرها على اللغات بوجه خاص ؟

اللغات واللهجات فى دول آسيا :

لنأخذ مثلا من آسيا ، تتكون اندونيسيا من حوالى ثلاثة آلاف جزيرة ، وعلى مر التاريخ كانت هذه الجزر تلتقى سياسيا وتفترق ، وقد تكونت عدة ممالك باندونيسيا ، ولكن لم توجد دولة واحدة قبل العصر الحديث تضم هذه الآلاف من الجزر ، وحتى عندما انضمت بعض هذه الجزر تحت سلطة « سرى وحايا = Siri Widjaja » مثلا او « ما جابيت = Madjapahit » فان هذا لم يكن يعنى الا خضوعها الى سلطان واحد ، أما حياتها الاجتماعية ، أما الأديان واللغات فكانت تتعدد دون التقاء ، ولم تكن هناك صلات بحرية منتظمة بين هذه الجزر بعضها والبعض الآخر ، وعلى هذا كان الرجل يولد ويعيش ويموت فى جزيرته دون أن يعبر البحر الى سواها من الجزر ، وتدل الاحصائيات على أن حوالى ٩٠٪ من السكان لم يبرحوا الجزر التى ولدوا بها الى غيرها من الجزر ، وان أكثر الذين رحلوا اقاموا حيث ارتحلوا عاملين او موظفين واندمجوا واندمج اولادهم من بعدهم فى حياتهم الجديدة .

•

وليست البحار وحدها هى التى تعزل مجموعة من السكان فى جزيرة عن مجموعة من السكان فى جزيرة عن مجموعة أخرى فى جزيرة ثانية ، بل هناك عامل آخر او عوامل أخرى بتلك البلاد أدت الى نفس النتيجة ، وقسمت سكان الجزيرة الواحدة الى عدة جماعات مختلفة الدين واللغة والعادات ، هناك الجبال الشاهقة والغابات الكثيفة ، والبحيرات الواسعة ، التى تقوم أشبه بحواجز طبيعية بين مجموعة من السكان ومجموعة أخرى ، ولاعطاء مثل لذلك نذكر أن جبلا شاهقا يقوم بجاوة الوسطى ، وعند سفحه من جانب تقع مدينة اسمها « صولو » وعند سفحه من الجانب المقابل تقع مدينة اسمها « مديون » ، والجبل من جهة صولو اسمه « توانج مانجو » ومن جهة مديون اسمه « سارانج » ، وقد مرّت آلاف السنين وسكان صولو يصعدون « توانج مانجو » الى ما يقرب من القمة ، وسكان مديون يصعدون « سارانج » الى ما يقرب من القمة دون أن يعرف هؤلاء أو اولئك انه جبل واحد ، وان غابة كثيفة لا يزيد عرضها عن

حوالى عشرة أميال تقف حاجزا بين القمتين ، وقد ترتب على ذلك ان عاش على هذا الجانب من الجبل جماعات يختلفون فى الدين واللغة والعادات عن الذين يعيشون على الجانب الآخر .

وهكذا وجدت باندونيسيا لغات كثيرة العدد يرى بعض الباحثين انها ثلاثمائة او تزيد ، واهمها اللغة الجاوية Bahasa Djawa ولغة السند Bahasa Sunda ولغة اتشه Bahasa Atjih

وهذه الحالة نفسها توجد فى الفيليبين حيث يتكون هذا القطر من حوالى الف جزيرة على النحو الذى وصفناه ، وحيث توجد به حوالى خمس وسبعين لغة من اهمها اللغات الآتية : تاغالوج ـ توشوج ـ مرانو ـ ماغندا فاو ـ بيسيا ـ سيؤونو ـ بيكو لانو ـ الوغانو .

واذا تركنا الأقطار المتكونة من جزر الى الأقطار المتحدة الأرض كالهند ، وجدنا الجبال والغابات والأنهار والحياة القبلية تؤدى الى نفس الغاية ، وتخلق عددا ضخما من اللغات حيث توجد لكل قبيلة لغة لا يعرفها سواها من القبائل ، وعلى هذا بلغت اللغات فى الهند نحو ٢٤٠ لغة و ٣٠٠ لهجة كما يقول غوستاف لوبون (حضارة الهند ص ٤٧٧) بالاضافة الى اللغة الفارسية التى كانت لغة رسمية للقصور ، والبهلوية وهى لغة المجوس .

●

وهناك لغة اخرى تكونت فى القرن الخامس عشر الميلادى وهى اللغة الهندوستانية واصلها آرى ، ثم دخلت عليها كلمات كثيرة من اللغات العربية والفارسية والهندية والتركية وتسمى الآن اللغة الأردية نسبة الى (الأور دو) وهو المعسكر اذ كانت هذه هى لغة معسكرات المغول اولا ، وقد انتشرت هذه اللغة فى جميع ارجاء الهند واصبحت لغة رسمية بجوار اللغة الانجليزية التى فرضها المستعمر ، ولما تم تقسيم الهند الى دولتى الهند والباكستان اعتبرت هذه اللغة لغة اسلامية فى نظر كثير من الولايات الهندية لكثرة ما بها من الكلمات العربية ولكثرة ما كتب بها من الفكر الاسلامى ، وعلى هذا احتضنتها الباكستان واتخذتها لغة لها ، ولكن بعض الولايات الهندية اعترفت بها كذلك واتخذتها لغةثانوية لها مثل بومباى واندر ومدراس، اما عن اللغات فى الهند بعد التقسيم فقد اتخذ الدستور الهندى اللغة الهندية لغة رسمية للبلاد ، وهى لغة قامت على انقاض السنسكريتية ، ولما كانت هذه اللغة غير قادرة على تحمل العبء الثقافى والاجتماعى فقد رئى الاستمرار فى استعمال اللغة الانجليزية حتى تصل اللغة الهندية الى المكان الكافى ، والى جانب اللغة الهندية اعترف الدستور بثلاث عشرة لغة فى مختلف ولايات الهند (محيى الدين الألوانى : الأدب الهندى المعاصر ص ٥٩) .

اما ايران وافغانستان فلهما شأن خطير بالنسبة للغة العربية ، اذ كانت اللغة العربية قد قهرت اللغة الفارسية واللغات المحلية الأخرى وحلت محلها كما فعلت مع الآرامية فىالعراق وسوريا وفلسطين ومع اليونانية فى سوريا وفلسطين ومصر ومع القبطية فى مصر ، وظهرت نخبة ممتازة من العلماء فى بلاد الفرس فى مختلف فروع الثقافات العربية والاسلامية ، ولكن اللغة العربية لم تستطع ان تحافظ على مكانتها فى فارس وافغانستان وانحسرت فى فترة من فترات الضعف السياسى العربى ولكن بعد ان تركت من الكلمات العربية نسبة عالية تصل الى ٦٠٪ من الكلمات الاصطلاحية فى الدراسات الاسلامية وحوالى ٣٠٪ فيما عدا ذلك من كلمات .

اللغات واللهجات فى افريقية :

واذا انتقلنا من آسيا الى افريقية وجدنا الحال كذلك ، وجدنا فى الحبشة ـ بالاضافة الى اللغة الأمهرية ـ لغات عدة مثل : سيدامو ـ كونتا ـ جميرا ـ دراسا ـ جمجم ـ جيلى ـ ايتو ـ قاللا ـ سلتى ـ بتاجرا ـ سلالى وغيرها .

ووجدنا فى مالى حوالى ثلاثين لغة من اهمها : بامارا ـ فلاتا ـ ميانجا ـ كيورا برا ـ بوبو ـ كادو .

ووجدنا فى جنوب السودان لغات تتعدد بتعدد قبائله ومن أشهرها : الدنيكا ـ النوير ـ الشلوك ـ انواك ـ مرلى ـ بلندا ـ مورو ـ زندى ـ لاتوكا ـ باريا ـ اشولى ـ جورشول ـ برون .

ووجدنا فى نيجريا حوالى ٢٤٨ لغة اهمها الهوسا والفولانى والكانورى والتيف والنوبى واليوربا والايبو .

ووجدنا فى الصومال عددا من اللغات مثل : اوريا ـ ابو ـ هر .

وبالاجمال فان بين يدى احصائية رسمية تقرر ان دول افريقية المستقلة ٣٦ دولة ، منها ست دول عربية اما الثلاثون الباقية فليس من بينها دولة لها لغة موحدة ، وانما عديد من اللغات واللهجات هنا وهناك ، وليس الا اثيوبيا تعتمد على الأمهرية احدى اللغات بها فى المعاملات الرسمية اما بقية الدول فتعيش بها لهجات محلية كثيرة ، وتتخذ فى اغلب الحالات من لغة المستعمر لغتها فى الشئون الرسمية .

بقى ان نقرر عن هذه اللغات ان اكثرها لغات بدائية وبعضها لهجات انحرفت عن لغات اخرى ،

واكثر هذه اللغات لا تكتب ، وليست لها حضارات او ثقــافات ذات بال ، وليست الا وسيلة للعيش والتفاهم بين افراد القبيلة ، اما التفاهم بين قبيلة وقبيلة فلم يكن يتم الا عن طريق واحد من محترفى الترجمة الذين كانوا يلجأ لهم عند ضرورة الاتصال .

الاسلام واللغة العربية :

وظهر الاسلام ، واتخذ طريقه الى هــذه البقاع ، وكان يحمل فى اطاره اتجاهين كبيرين ، الاتجــاه الأول تجميع اتباعه وتكتيلهم فى قوة واحدة وامة واحدة « انمـا المؤمنون اخوة » ، والاتجاه الثــانى ثقافاته الواسعة المتشعبة التى تحتــاج الى تدوين وتصنيف ، والاتجاه الأول احتــاج الى لغة يلتقى الناس عندها او مايسميه الاوربيون Lingua Franca اى لغــة مشتركة ، ولم تكن ســوى العربية التى جاءت مع الدين الذى استلزم هذا الاتجاه ، والاتجاه الثانى وهو تدوين الثقافات الاسلامية استلزم اللغة العربية ايضا ، فبها نزل القرآن الكريم وبها كانت احاديث الرسول وجاءت بها الشروح والتشريعات .

وسار الاســلام تتعمق جذوره وتمتد فروعه ، وســارت معه اللغة العــربية تزدهر وتنتشر ، فاستطاعت احيانا ان تقضى على بعض اللغات كمــا قلنا آنفا وتحل محلها ، واحيانا استطاعت ان تجذب لها القادة والباحثين والمفكرين ، وان بقيت اللهجات المحلية تستعمل عند الجماهير ، فظهر فى الهنــد وافغانستان وفى افريقية مؤلفون باللغة العــربية ، وكانت اكثر مؤلفاتهم فى الدراسات الاســلامية ، ولكن بعضها كان فى التــاريخ والتصوف ، ولعل الامام محمد بلو الزعيم الافريقى يصلح مثالا للمؤلف الذى عمر المكتبة بكتبه العربية التى ــ كمــا يقول مؤرخوه ــ تزيد عن مائة كتاب منها :

انفاق اليسور فى تاريخ بلاد التكرور ، وكتاب نور الأولياء ، وكتاب علوم المعــاملة وكتاب مرآة الطــلاب ، وكتــاب كف الطالبين عن تكفير عوام المسلمين ، وكتاب الجهاد وغيرها من الكتب .

صراع بين الاستعمار والاسلام :

وبينما كانت اللغة العربية تسير مع الاسلام جنبا الى جنب فى آسيا وافريقية ، يقضى هــذا على العقائد البدائية وتقضى تلك على اللهجــات المحلية قليلة الجــدوى ، بينما كان ذلك يتم فى القــرن الثالث عشر والقرون التالية له ، اذ ظهر فى القرن السادس عشر عدو لدود للاســلام وللغة جميعا ، ذلك هو الاستعمار البرتغالى والاسبانى والهولندى والانجليزى . وقد اقتحم هــذا الاستعمار المقيت سواحل افريقية ، كما اقتحم الهند وجنوب شرقى آسيا ، وكان هدف الاستعمار اقتصاديا وسياسيا قبل كل شىء ، ولكنه لبس مسوح الرهبان واتخذ التبشير اداة لتحقيق اغراضــه ، فاخــذ ينشر المسيحية ليوقف الزحف الاسلامى ، واخذ ينشر لغته ليوقف اللغة العربية ، وحقق الاستعمار نجاحا ضئيلا فى الميدانين ، فلم يدخل المسيحية الا نفر قليل اكثرهم من طلاب المناصب وممن يخدعهم بريق المال ، ولم يتعلم لغة المستعمر الا القلة التى التحقت بالمدارس المعدودة لتكون وسيلة المستعمر لتحقيق أهدافه ، وادرك الاستعمار ان فشله محقق ، وان التبشير بالمسيحية لن يوقف الزحف الاسلامى وان تعليم لغته لن يحول دون انتشار اللغة العــربية ، فلجأ المستعمر الى حيلة اخرى كانت اكثر نجاحا واعمق اثرا ، تلك هى تشجيع العقــائد البدائية واللهجات المحلية ، وقد رأيت ســكان جزيرة بالى باندونيسيا يحيون فى حالة بدائية ، يعبدون الارواح ويوقدون المشاعل للآلهة التى تزورهم ، ويعيشون فى شبه عرى وكان الاستعمار يحميهم ، ويمنع اية رسالة دينية ان تطرق جزيرتهم ، كما اقام الاستعمار اشواك التنافس والشقاق فى الهنــد بين المسلمين والهنادكة حتى لا ينتشر الاسلام فى شبه القــارة الهندية ، وفى المغرب أصدر الفرنسيون « الظهير البربرى » الذى كان يرمى لغاية مزدوجة هى اخراج البربر من الكتلة العربية وابعادهم عن دائرة الاسلام ، وتحقيقا لذلك حرم هذا الظهير (القــانون) تعليم اللغة العربية على البربر وقرر انشــاء مدارس خاصة لأولادهم يقتصر تعليم اللغات فيهــا على الفرنسية والبربرية ، وجعل اللغة البربرية تكتب بحروف لاتينية ، كما قرر هذا الظهير عدم تطبيق الشريعة الاسلامية على البربر فى الأحوال الشخصية والمعــاملات .. وهكذا حارب الاستعمار الــدين الاسلامى بالمعتقدات البدائية وحارب اللغة العربية باللهجــات المحلية ، وحقق بهــذه الوسيلة بعض النجاح .

العرب وتعليم العربية لغير العرب :

واسهم العرب انفسهم ــ بقصد او بدون قصد ــ فى الوصول الى هذه الغاية ، لانهم لم يبتكروا طريقة مثلى لتعليم اللغة العربية لغير العرب ، فسار تعليمها فى طريق غيــر معبد ، وتصدرت الفية ابن مالك منهاج هذه الدراسة ، وقد وضــع ابن مالك الفيته لجمــع قواعد اللغة لا لتقديم اللغة نفسها ، وفرق كبير بين تعليم اللغة وتعليم قواعدها ، وقد رأيت فى عدة بلدان طلابا جلسوا لأول مرة لتعلم اللغة العربية ، وكان اول ما سمعوه منها قول ابن مالك :

كلامنا لفظ مفيد كاستقم
واسم وفعل ثم حرف الكلم

وتتوالى الدروس والشروح ، وتمــر الشهور والسنون دون ان يحــرز الطالب تقدما يذكر فى دراسة اللغة ، وربمــا عرف من قواعد اللغة مالا

يعرفه الطالب العربي ولكنه يظل بعيدا جدا عن الغاية فى القراءة والفهم والكلام والكتابة ، وقد ابتكر الانجليز عدة طرق لتعليم اللغة الانجليزية للغرباء ، ومن اشهرها طريقة West ، وابتكر الالمان تلك الطريقة السحرية التى يتبعها معهد جوته ، ولكن العرب لم يفعلوا شيئا ، ولعل الفرصة لم تضع نهائيا من ايديهم .

أهمية اللغة بين مقومات التجانس :

وانقضى الاستعمار والحال كما وصفنا ، لهجات تنشر هنا وهناك ، دون كتابة غالبا ودون ثقافة ذات بال ، واذا انمحت اللغة المشتركة انهارت الوحدة ، فاللغة اهم عامل من مقومات التجانس ، وهى من اهم العوامل لتكوين المجتمع ، وبدون وحدة اللغة لا تقوم قومية ولا تكمل الوحدة الوطنية وذلك من ابرز أهداف الاستعمار ولنقتبس هنا بعض مأثورات الفلاسفة عن اهمية اللغة :

يقول الفيلسوف Herder :

ـ « ان الطبيعة فرقت الشعوب بعضها عن بعض ليس بواسطة الغابات والجبال والبحار والصحارى فحسب ، بل فرقتها ايضا بواسطة اللغة » .

ـ « ان اللغة القومية بمنزلة الوعاء الذى تتشكل فيه أفكار الشعب وتنتقل بواسطته ، واللغة هى التى تخلق العقل او على الأقل تؤثر فى التفكير تأثيرا عميقا وتوجهه توجيها خاصا » .

ـ « ان قلب الشعب ينبض فى لغته ، وروحه تكمن فى لغة الآباء والأجداد » .

ويقول Max Nordan :

« ان الفرد يندمج فى المجتمع باللغة وباللغة وحدها ، وباللغة يصبح عضوا فى الشعب الذى يتكلمها ، وباللغة نتلقى تراث الأمة الفكرى والشعورى والأخلاقى والاجتماعى المنحدر من قرائح الكتاب والشعراء والمفكرين السابقين منهم والحاضرين ، وباللغة ندفع أفكارنا الى الأجيال القادمة » .

ويرى علماء الاجتماع ان اللغة الألمانية كانت من اهم العوامل التى حققت الوحدة الألمانية من الجماعات الكثيرة التى كان لكل منها استقلالها ، وتحققت كذلك باللغة الايطالية وحدة ايطاليا من الامارات الايطالية المستقلة ، وبسبب الاختلاف فى اللغة بالامبراطورية العثمانية انهارت هذه الامبراطورية التى لم يتم بينها تجانس بسبب تعدد اللغات .

ومن أجل هذا حاولت كل دولة بآسيا وافريقية أن تحدد لها لغة بعد الاستقلال لتؤكد وحدتها ، ففى اندونيسيا مثلا عقد اجتماع حافل سنة ١٩٤٥ لاختيار لغة للبلاد وفى هذا الاجتماع دعا بعض الحاضرين للغة الانجليزية باعتبارها لغة عالمية ، ودعا آخرون للغة الصينية نظرا لعمق الصلة بين الصين واندونيسيا ولمكانة الملايين الصينيين الذين يعيشون باندونيسيا ولثرائهم الكبير ، وأحس الحاضرون بأن اللغة العربية ينبغى ان يدافع عنها العرب ، فاستدعى شيخ عربى هو المرحوم عوض شحبل ، ولم يكن رحمه الله فى درجة ثقافية تتيح له ان يتحدث عن مزايا اللغة العربية ، وأخيرا استقر الراى على اختيار المالزية التى كانت لغة التجار فى المنطقة وطعمت بحوالى ١٥٪ من مجموعها من الكلمات العربية وسميت اللغة الاندونيسية .

وجرت هذه المحاولة بافريقية فنشطت اللغة السواحلية ولغة الهوسا بعدة اقطار ، ولم تستقر اللغات بافريقية حتى كتابة هذه السطور ، وفى الصومال اتجاه قوى لتبنى اللغة العربية ، وهناك فى الوقت نفسه اتجاه مضاد يرمى لاختيار احدى اللهجات الصومالية ووضع حروف لها لتصبح لغة تدوين ، وهذا الاتجاه ينشعب شعبتين تتجه احداهما الى غاية الشوط فى البعد عن اللغة العربية فتقترح الحروف اللاتينية للغة الجديدة وتتجه الشعبة الثانية الى اقتباس الحروف العربية لهذه اللغة .

اللغة العربية بعد هذا الصراع :

على أن اللغة العربية واصلت نشاطها فى دول آسيا وافريقية على الرغم من كل هذه الظروف وظلت لغة الديانة المسلمين لا يعدلون بها أية لغة أخرى ، وهنا وهناك نجد الأدباء والشعراء الذين يعبرون بها عن عواطفهم ارق تعبير واروعه . وقد حضرت مؤتمرا لعلماء المسلمين بأندونيسيا عقد فى مدينة بالمبانج عاصمة سومطرة الجنوبية ، وكثير من هؤلاء العلماء لا يجيدون اللغة الاندونيسية لأنها لغة جديدة ظهرت بعد ان تقدمت بهم السن ، ولكنهم جميعا يعرفون اللغة العربية ومنهم من يجيدها اجادة تامة ، وكل جماعة منهم تعرف بجوار اللغة العربية لغتها المحلية ، فكانت اللغة العربية فى هذا الاجتماع هى اللغة المشتركة « Lingua Franca » ، ألقى بها كثير من الأبحاث وجرى بها كثير من النقاش والحديث .

وفى هذا المجال نقتبس قطعة شعرية من شاعر صومالى هو الأستاذ عمر محمد عبد الرحمن النائب بالبرلمان ، وقد قالها وهو فى الطريق الى مصر قلب العروبة النابض فى احدى زياراته لها :

الحنين الى مصر

هفا الفؤاد الى مصر ، وجن بها
شوقا ، ففارقت احبابى وخلانى

فارقتهم سحرا لم يدر جمعهم
شيئا ولا عرفوا ما كان من شانى

يحدونى الأمل البسام فى سفرى
فبت أشدو بأشعارى والحانى

بسطح باخرة ناديتها عبثا :
سيرى حثيثا فبطء السير أعيانى

سارت تشق عباب البحر متعبة
تئن من حملها ترثى لأشجانى

وتعتلى منبر الأمواج صاخبة
كالحق يعلو على أنقاض طغيان

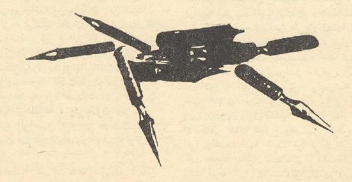
وفي غرب افريقية ادب رائع وشعر رصين يستحق الجمع والدراسة .

وبعد ..

وفي ختام هذا البحث أبرز نقطتين فى منتهى الأهمية :

اولا : اللغة العربية التى تربطنا بملايين المسلمين الذين يعرفونها بآسيا وافريقية هى اللغة الفصحى ، بل أنها التى تربطنا بملايين العرب فى مختلف الأقطار العربية ، وليس للغة العامية مجال فى غير النطاق المحلى الذى تنتشر فيه ، والدعوة للغة العامية قطع لأوصال الفكر والثقافة التى تربطنا بالملايين العرب والمسلمين والمستشرقين ، ومن العجيب أن دعاة العامية يحاربون اللغة الفصحى لما بها من تقعر والفاظ غريبة تحتاج للقاموس ولا تمثل العصر الذى نعيش فيه ، ونحب أن نقول لهم اننا ونحن ندعو للفصحى نحارب أيضا التقعر والألفاظ الغريبة ، وندعو للفصحى السهلة اليسيرة التى تشرح الفكرة بانسياب ويسر ، وتمثل العصر الذى نعيش فيه ، ونقرر اننا نعتقد أن اللغة — كما يقول G.H. Vallins — كائن حى وهى لذلك دائمة التغير ، فكلمات تختفى واخرى تنتشر ، وكلمات تظهر واخرى تندثر ، وتغير اللغة لا يظهر فقط فى الكلمات بل فى أشياء اخرى كالقواعد الاملائية وترتيب الكلمات فى جمل ، وإذن فعلى حساسية الكاتب واستجابته للعصر الذى يعيش فيه تتوقف جودة الأسلوب ، والهدف الأسمى فى الكتابة او الحديث هو ان يعبر الانسان عما يدور فى نفسه بأسلوب رقيق مبسط .

ثانيا : اننا ندعو الى ان تتجه العناية الكاملة لوضع تخطيط شامل لتعليم اللغة العربية لغير العرب ، ويلزم ان تجرى البحوث والتنظيمات لاختيار أيسر الطرق لتعليم الحروف العربية قراءة وكتابة ، ثم اعداد مجموعات من الكلمات العربية تقدم لغير العرب بنظام تربوى يناسب حاجاتهم العامة والخاصة ، مع تبيان وسائل استعمال هذه الكلمات، ثم تبسيط قواعد اللغة ، واعداد فكرة عن آداب اللغة العربية وبلاغتها ، وربط ذلك كله بالتراث الاسلامى ، ولست احب ان أخوض فى هذا الأمر أكثر من ذلك ، ولكنى أؤكد شدة الحاجة لهذا المنهاج ولاعداد كتب بمقتضاه نصدرها الى كل مكان ، وندرب المدرسين على استعمال هذه الطريقة ، وأغلب الظن أن الأخذ بهذا الاقتراح سيكون أكبر عون لنشر لغتنا العربية فى كثير من ربوع القارتين اللتين سيكون لهما اكبر نصيب فى كتابة مستقبل العالم .



تيسير اللغة العربية للأجانب

بقلم الدكتور
الطاهر أحمد مكى



مرّت العربيـة كلغة مطلوبة من غير بنيهـا بمراحل ثلاث ، تأثرت فى كل منها بالهدف من تعليمها وبالفلسفة التربوية السائدة فى عصرها ·

ويمكن أن نرد أقدم محاولة للمرحلة الأولى الى مدرسة المترجمين فى طليطلة ، وقد أقامها الفونسو العـالم Alfonso el Sabio (١٢٥٢ ــ ١٢٨٤) ، واحتضنهـا رايموندو المطران(١) ، وهدفهـا نقل التراث العربى من رياضيات وفلك وطب وكيميـاء وطبيعة وفلسفة ومنطق وسياسة الى اللغة اللاتينية ويقوم على العمل فيها أناس من أجناس مختلفة ، ولغات متباينة ، عرب واسبان ويهود ، وطريقـة الترجمة أن يملى المترجم النص العربى بالاسـبانية الدارجة ، ثم يقوم آخر بنقله منهـا الى اللاتينية ، وعلى هذا النحو ترجم جانب من مؤلفات ابن سينا ، وبعض آثار الغزالى ، وكتب أخرى فى الفلسـفة شهرت بهـا المدرسة ، فهرع الى طليطلة نفر من الأوربيين المتعطشين الى العلوم الاغريقية ، ولم تكن توجد الا فى العـربية ، يطلبونها لأنفسـهم ، ويدرسونها لحسابهم ، ولما كان حظهم من العربية متواضعا ، أو كانوا لا يعرفون منها شيئا ، فقـد استعانوا بعامة سكان المدينة ، **يترجمون** لهم حرفا بحرف مادة الكتاب الراغبين فيه الى الاسـبانية الدارجة، أو يعبرون لهم عن معناه فى لاتينيه ركيكة يقومون هم بصوغها فى طابعها اللاتينى النهـائى · وترجمات هؤلاء الغرباء لا تكاد تفهم ، لركالة لغتهـا اللاتينية ، والبعد الواضح بين المعانى التى تصمنتها والمعانى الأصلية للنص العربى ·

وما لبث أن انضم الى الاعجاب بالثقـافه العربية دافع دينى ، وكان الدين فى العصور الوسطى يغطى الجانب الأعظم من اهتمامات الناس ، يهـدف الى دراسة العربية لفهم الاسلام ، التماسا لحجج يقارع بها أهله ، ويجادل عن طريق فهمها علمـاءه ، او ينقض مبادئه ويحاول أن يوقف تيار مده ، وكانوا بين متعصب وقف بقصـده عند هـذا الحد فلم يتجاوزه ، مثل رايموندو مارتين السابق ، وبين من أدى به اتقانه العربية ، وتعايشه مع آدابها الى حب أهلهـا والحنو عليهم ، ويأتى رايمـوندو لل Raimundo Lull فى مقدمة هؤلاء ، فقد أقبل على الفكر الاسلامى بقلب مفتوح وعقـل متحرر ، وترك ذلك أثرا واضحا فيما خلف من تراث دينى كاثوليكى ، كان معجبا بتقوى المسلمين ، مأخوذا بفضـائلهم ، ودعا قومه الى أن يستهلوا كتبهم ورسائلهم باسـم المسيح ، كما يستهلها المسلمون باسم الرسـول ، والى فصل الرجال عن النساء فى الكنائس ، وازدرى الهيئات الرهبانية المنظمة ، والجماعات الدينيـة الرسمية ، وألف بعض كتبه بالعربيـة أولا ، ثم

---

(١) Raimundo Martin ، قس من طائفة الدومينكان ، عاش من ١٢٣٠ الى ١٢٨٦ ، واصبح مطرانا لطليطلة ، ورجل الدين الاول فى اسبانيا المسيحية ، عـرف بتشجيعه لدراسة العربية وترجمة آثارها ، وكان هو نفسه يجيدها · والف فيها معجما لاتينيا عربيا ، وربما كان الاول فى نوعه ، وقد نشره المستشرق الايطالى سكياباريلى Schiaparelli عام ١٨٧٢ ·

ترجمها بنفسه الى اللغة القطلونية ، وعندما اشرف على كلية « ميرمار » للرهبان ، جعل تعلم العربية فرضا على طلابها ·

ليس لدينا الآن معلومات كافية عن الطريقة التى كان يتعلم بها العربية الأجانب الوافدون الى أسبانيا ، أوالاسبان المنعزلون عن المسلمين هناك ، وان غلب على الظن أنها كانت تحمل طابع أواخر العصور الوسطى الاسلامية ، من استظهار القواعد ، والالمام بالمفردات ، كل على حدة ، والافادة من ذلك فى القراءة والترجمة ، أما الذين كانت تضطرهم ظروفهم الى التكلم مع المسلمين ، فكانوا يأخذون لغتهم من الحياة ، بالاندماج مع الناس ، والاحتكاك بالجماعات ، والدربة على القول ، ولدينا اشارات كافية على أن « لل » اشترى عبدا مثقفا فى احدى جولاته بالمشرق ، يعلمه العربية ويحادثه بها ·

المرحله الثانية ، صاحبت عصر التوسع الاوربى، سقطت الهند فى يد انجلترا ، واستولت هولندا على أندونيسيا ، وبلغ الصراع أشده بين تركيا وأوربا، وفى هذه المرحلة توارى الهدف من تعلم العربية كاداة نقل الثقافة ، وحل مكانه غرض سياسى يرمى الى التعرف على روح المسلمين ، لتفتيت روح المقاومه فيهم ، والالمام بعاداتهم لحكمهم من ايسر السبل ، ونبش نقاط الضعف فى تاريخهم لاثارة الخلاف ، وترجمة الكتب التى يحتاجون اليها فى ادارة البلاد المفتوحة ، ككتب المواريث والمعاملات والأحوال الشخصية ، وكثير منها كانت تجرى ترجمته بأوامر صريحه من وزارات المستعمرات ، وترك هذا الاتجاه بصماته واضحة فيما كانت تعالج كل دولة من شئون المسلمين ·· عكفت فرنسا وايطاليا على دراسه المذهب المالكى لانتشاره فى شمال افريقية ، وانجلترا على دراسة المذهب الحنفى لانه السائد فى الهند ، وهولندا على دراسة المذهب الشافعى لان جمهرة المسلمين فى أندونيسيا تسير على أحكامه ·

وبقى الهدف الدينى قائما الى جانب الاستعمار، واتخذ شكلا أوسع وأقوى مما كان عليه قبلا ، فمع الاستعمار اتسعت حركة التبشير ، وأصبحت أكثر شراسة وطمعا ، وكان الفارق بينهم ، أن السياسى كل غايته أن يستطيع قراءة العربية ، وان المثقف العامل له كل بغيته أن يستطيع الترجمة ، اما رجل الدين المبشر فكان عليه أن يتكلم ، وأن يجيد الكلام بلغة العامه ، لأن اللسان طريقه الوحيد الى التأثير، فعنى رجال الدين بالكلام ، وأقاموا لهم اديرة عدة ، فى جوانب مختلفه من العالم الاسلامى ، حيث تتكلم العربيه ، هناك يستطيعون أن يتعلموا العربية ،

وأن يمرنوا جيدا على الحديث بها ، فى لهجاتها المختلفة ·

وفى هذه المرحلة حدث القليل من التطور فى طرق تدريس اللغة ، لكن اجادتها بلغت قدرا عاليا ، بفضل انتشار الطباعة ، ورخص الكتب ـ نسبيا ـ والانفاق على تدريسها بسخاء ، وأغداق المرتبات على عارفيها ، وتأليف المعاجم، والحاجة الى التدقيق فى ترجمة ما ينقل من العربية الى اللغات الأخرى ، لاقبال الناس الشديد على الطب العربى ·

ولم يكد الاستعمار يثبت أقدامه فى دنياه الجديدة حتى أثارت تقاليد هذا العالم وأهله وتاريخه وآدابه فضول جامعات أوربا وعلمائها ، فكان أن نشروا تراثه على هدى من مناهجهم الجديدة ، ودرسوا حضارته بروح محايدة فى أحايين كثيرة، ولكنه حياد لا يحول دون الخطأ لجهل غير مقصود فى القياس أو الاستنتاج ، وانضم اليهم طائفه أخرى من المستكشفين والمغامرين والرحالة ، أغرموا بهذا الشرق العجيب المثير الساحر ، والعرب جل أهله ، وبلادهم أقرب مناطقه ، فتعلموا العربية لغة يتفاهمون بها مع سكانه ، فلم يكن عامة الناس فى هذه البلاد ، هاتيك الأيام ، يحسنون غير لغتهم الوطنيه شيئا (٢) ·

الا أن الذين جددوا فى بلادهم كل شىء ، فاخترعوا المثير فى عوالم المادة ، وأبدعوا الرائع فى دنيا الفن ، وذللوا ما كان قبل عسيرا أو مستحيلا ، ونشروا المطوى من المخطوطات العربية ، وحققوا ما أصابه التشويه منها ، تركوا تدريس اللغة العربيه كما تلقوه ، لم يتقدموا به خطوة ولا أضافوا اليه جديدا · وعلى الجانب الآخر كان العالم العربى فقيرا متهالكا ، فى بدايه يقظته ، على عينه وقلبه وعقله بقايا وسن الرقدة الأخيرة !

فلما كانت الحرب العالمية الثانية ، ومعها دال سلطان الاستعمار السياسى عن العالم العربى ، الا قليلا ، واحتلت شعوبه من اهتمام الدول مكانا رحيبا ، للموقع الذى تحتله على ظهر البسيطة ، وللدور الذى تضطلع به فى مجال السياسة ، ولما تملك من ثروات مستغلة أو مخبأة لم تمسسها يد بعد ، ولتقدم وسائل المواصلات ، وزوال الحواجز المانعة والمعوقة ، وانتشار السياحة ، وتطورالحروب النفسية واتخاذها من الكلمة المكتوبة والمذاعة سلاحا

---

(٢) اصدق مثل لهذه المغامرةيتجلى فى Domingo Badia الاسبانى ، فقد درس العربية ، واجادها كاملها ، واتخذ لنفسه اسم على بك العباسى ، وجال العالم الاسلامى كله ، انظر مقالنا عنه فى : المجلة ، ص ١٥ الى ٢١ ، العدد ٣٩ ، مارس ١٩٦٠ ·

تغزو به وتهاجم وتحطم ، كل ذلك جعل من العربية واحدة من اللغات التى يزداد عليها الاقبال كل يوم اتساعا · واصبحت تطلب لأكثر من غاية : هدف سياسى لم يتغير منذ أن كانت السياسة ، وان أخذ دائما شكل العصر الذى يوجد فيه ، وهدف ثقافى هو فى خدمة السياسة كثيرا ويستقل عنها فى قليل من الأحيان · وهدف اقتصادى هو الجديد على عصرنا ، يتمثل فى عدد من الشركات الأجنبية الكبيرة تعمل على امتداد أرضنا ، تدرس العربية لموظفيها ، وتدرس العرب لحسابها ، تدرس العربية جاده لان ذلك يرتبط بالانتاج والارباح ، وتدرس العرب علميا فى حيدة لتستطيع فى ضوء ما ينتهى اليه الباحثون أن تتعامل معهم ، وأن تخطط لمعاركها بوعى · واختفى النشاط التبشيرى أو كاد ، لان مجاله سد الى الأبد فى العالم العربى ، وفى غير العربى يجرى بلغات أهله ، ولفهم الاسلام ومواجهة مبادئه ، يعتمد الفاتيكان على الكاثوليك من العرب، والعربيه لغتهم ، ومنهم فيها أدباء ومفكرون ·

لكن الرجل العصرى ، وقد نال من تطويع السكون ما أراد ، ومن تذليل الطبيعة ما جعله سيدا ، يريد أن يصنع الشيء نفسه فى المجالات الثقافية ، لم يعد ذلك العاكف على كتابه فى مكان قصى من الحياة ، يمضى معه أياما وشهورا ، يستظهر كلمات وسطورا وصفحات ، وتمضى الدنيا حوله ، لا يحس انها اختلست منه أجمل أيام عمره ، وأزهى سنى شبابه ، انه يريد أن يبلغ من تعلم اللغة الشيء الكثير فى الزمن القليل بالجهد اليسير ، ما دام يملك أن يدفع ، وفى ضوء هذه الفلسفة بذلت محاولات كثيرة ، من جانب الهيئات الأجنبية ، على امتداد اللغات الحية كلها ، لتذليل صعاب اللغات أمام الراغبين فى تعلمها ، وفيما يختص باللغة العربية فان المؤسسات الماليه الكبرى فى الولايات المتحدة ، مثل « ارامكو » و « مؤسسة فورد » تنفق بسخاء على دراسات متوالية تقوم بها الجامعات هناك ، والهيئات المتخصصة ، مثل : « مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة هارفارد » و « لجنة الدراسات الخاصة بالشرقين الأوسط والادنى » التابعة لمجلس أبحاث العلوم الاجتماعيه ، لتيسير سبل تعلم اللغة العربية ، وآخرها الحلقة الدراسية التى عقدت فى جامعة ميتشجان عام ١٩٦١ لدراسة القضايا المتعلقة بالمصطلحات النحوية العربيه ، ويسهم اليونسكو عادة بامكانياته المادية والفنيه فى مثل هذه الدراسات ، ولو أن أحدا فى العالم العربى لم يفكر فى استغلالها بعد ·

أما العالم العربى بجامعاته ومعاهده ، والجامعة العربية وهيئاتها الثقافية ، فلم تعط الأمر أية عناية ، ولم تقم بأية محاولة جادة لتيسير دراسة اللغه العربيه للاجانب ، على الرغم من أعداد الطلاب الوفيرة التى بدأت تتجه الى جامعات الجمهورية العربية ومعاهدها ، من أقطار مختلفة ، تتكلم لغات متباينة ، وعلى الرغم من معاهدنا الثقافية الكثيرة ، المنتشرة فى بلاد عديدة لا تتكلم اللغة العربية ، وتجعل من تدريس العربية بعض رسالتها ، وعلى الرغم من الشقاء المذل الذى يعانيه الطلاب الوافدون وهم يواجهون ، وربما لاول مرة ، لغة جديدة ، بلا كتاب معد ، ولا مدرس متخصص ، ولا معاجم ميسرة ·

من الواضح أن لنا هدفا من تعليم العربية يلتقى مع أغراض الهيئات الأجنبية أحيانا ويخالفها أحيانا، نحن نود أن يدرك الناس حضارتنا وواقعنا ، وأن تكون صلتهم بثقافتنا مباشرة ، لا تعبر اليهم عن طريق لغة أجنبية أخرى ، والا يقف جهد الدارس لها عند ماضى العرب الثقافى ، وانما يتجاوزه الى حاضرهم الماثل أيضا ، وأن يدرسها على نحو يدرك معه روح الأمه العربية ادراكا يؤدى الى شعور بالمودة والقربى ـ كالذى كان من رايموندو لل ـ واذا كان الاقتصاد والسياسة يقفان وراء أغلب الجهود الأجنبية المعاصرة ، فعلينا أن نفيد من هذه الجهود وأن نحولها لصالحنا ، فاجادة الأجانب للغة العربية هى الطريق الوحيد ، وليس ثمة طريق آخر ، لعالمية الأدب العربى ، فقبل أن يصبح أدبما عالميا ، لا بد أن يكون هناك من يحسن قراءته وتذوقه وفهمه وترجمته ، من غير بنيه ، وأعنى هنا الترجمه التى تأتى عن اقتناع ، لا التراجم الشبيهة بالرسمية ، فانها قد تختار نصوصا ، ليست هى الأفضل دائما ، من شعر أو قصص أو أبحاث ، ثم يعهد بها الى مصريين ينقلونها الى الانجليزيه أو الفرنسية · مثل هذه التراجم لا تقرأ ، وانما تأخذ مكانها بعد قليل أكواما من الورق فى المخازن ، لأن اجادة المصرى للغة الأجنبية لا تعنى أنه قادر على أن يكتب بها أدبا ، بل ليس كل انجليزى أو فرنسى بقادر على أن يكتب فى لغته أدبا ، ومن هنا فان العملى أن تنفق الأموال المرصودة لمثل هذه التراجم على كراسى تنشأ للغة العربيه فى جامعات العالم الكبرى ، اذ لم تكن ، فان كان بها كراسى عاضدناها بالمال والكتاب والاستاذ ، ووطدنا صلة القائمين عليها بأدبنا ، وسهلنا لطلابها بالمنح المجيء الى بلادنا ، لتعميق دراستهم للغة ، وربطهم بالأدب ، وعندما يكون لنا فى كل لغه طليعة من الشبان المثقفين المجيدين للغة العربية ، يومئذ ، سيأخذ الأدب العربى بمختلف طعومه طريقه الى

العـــالمية ، دون قرار من مؤتمر أو توصـــية من لجان(٣) .

ادراك الصعوبات التى تواجـــه الأجنبى فى تعلمه اللغة العربية هى الخطوة الأولى فى تطـــوير طرائق تدريسها ، والواقع أن كثيرين منـا بحكم التربية التى تعلموا على أساسها فى المـــدارس ، أو استجابة لرد فعل نفسى ضد القـــواعد ، يتصورون أن النحو هو اشق ما يواجه الطلاب الأجانب ، ومن تجربتى مدرسا للغة العربية فى كلية الآداب بجامعة مدريد لبعض الوقت ، وتعاميىن فى جامعة الجزويت بكولومبيا ، فان أسهل ما يواجه الطـــالب الأجنبى هو النحو ، اذا درس قواعـــده مجردة ، ذلك أن أحكامه المنطقة تجعل من اليسير على أى عقـــل استيعابها ، لكن مشكلة النحو تبدأ عندما يرتبـط باللغة نفسها ، أو بعبارة أصبح بالجانب التطبيقى منـــه .

ولدينا الآن حصيلة وافرة من كتب النحـــو فى كل اللغات ، منها الموجز المركز ، والمطنب الشامل، من يجعل النحو غرضا لذاته ، ومن لا يعطى منــه غير القليل ، وفى كل منها جانب من خير ، لو جمع فى كتاب واحد لأعطى خلاصة مفيدة ، لجهد عقـــول دراسة ، ومن هذا الخير حل مشكلة المجرد والمزيد، فقد اتفق على أن صيغ الأفعال — الثـــلاثى والمزيد منه — عشرة ، لكل صيغة رقم تعرف به ، دون حاجة الى ذكر ما لحق الكلمة من تغيير أو زيادة ، وكان أول من اهتدى الى هذه الطريقة وطبقها فيما أعرف المستشرق الاسبانى ميجيل آسين بلاثيوس(٤) استاذ اللغة العربية السابق فى جامعة مدريد ، ومهد لهـــا بمقدمة تجعل منها شيئا عاديا فى نظر الطـــالب الدارس لها ، يقول : كما يحدث فى الأفعال اللاتينية — أو الاسبانية — حيث تشتق من الصيغة الأصلية للفعل صيغا أخرى بزيادة تلحق الصـــيغة الأولى ، وتعطيها معنى مخالفا مثل Currere فهى أصـــل للافعال الاتية incurrere و concurrere و discurrere و transcurrere ... الخ ، كذلك ، يحدث فى العربية ، تلحق بعض الزوائد الصـــيغة الثلاثية فتعطيها معنى جديدا ، قد يختلف عن معنى الثلاثى الذى اشتقت منه واورد الصيغ على النحـــو التالى :

الصيغة	الوزن
الصيغة الأولى	فعل — بفتح العين أو ضمها
« الثانية	فعل — بتشديد العين
« الثالثة	فاعل
« الرابعة	أفعل بتسكين الفاء
« الخامسة	تفعل بتشديد العين
« السادسة	تفاعل
« السابعة	تفعل
« الثامنة	افتعل
« التاسعة	افعل بتشديد اللام
« العاشرة	استفعل

(٣) ان اثنين من الاسبان الشبان جاءا القاهرة على منحة ، هما الان ألمع عالمين بالعربية فى دنيا الاستشراق ، أما أولهما Pedro Martinez المدرس فى كلية الاداب بجامعة مدريد ، فقد نشر ترجمة لمختارات من الشعر العربى مع مقدمة دراسية، ثم مجموعة من القصص لطائفة من الكتاب المصريين ، والثانى هو Fedrico Corriente de Cordoba ويعمل مدرسا فى كليـــة الاداب فى تطوان بالمغـــرب ، ويقوم الان بترجمـــة عودة الروح لتوفيق الحكيم ، وقنديل أم هاشم ليحيى حقى ، والمعلقـات السبع من الشعر الجـاهلى ، وكلاهما شارك فى ترجمة مسرح الحكيم الى الاسبانية ، وأعمال أخرى لا تحضرنى الان .

(٤) Asin Palacios, Miguel: Crestomatia de arabe, p.31, Madrid 1959.

وسار على نهجه فى هذا العمل جلة من المستشرقين مثل : Tritton فى كتـــابه Teach Yourself Arabic والمستشرقة الايطالية Laura Veccia Vaglieri فى كتابها Grammatica elementare di Arabo وقد نشره معهد الدراسات الشرقية فى روما عام ١٩٥١

أصبح استخدام الأرقام لهذه الصيغ مقبولا من الطالب ، ويجرى عليه العمل كشيء مسلم به ومفهوم بداهة ، ويرمز بها فى المعاجم اختصارا ، بدلا من ايراد صيغة الفعل نفسها ، أو تكرارها كلما اختلف المعنى بحسب الزيادة التى لحقته • وقد يكون من المفيد لنا أن نضمنها كتبنا التى نعلم بها اللغة العربية للاجانب ولأبنائنا ، فان استخدام الأرقام للصيغ أوفر فى الوقت والجهد ، واستخدامها فى المعاجم العربية يختصر ثلث حجمها على الأقل • ومن هذه الصيغ على الترتيب السابق يجيء المضارع والأمر واسم الفاعل والمفعول والمصدر ، واذا استثنينا الصيغة الاولى فى اضطراب مصادرها ، فالبقية تجيء مصادرها على القياس دون خلل أو اضطراب • ولا يجد الأجنبى عسرا فى فهم أسماء الزمان والمكان والآله ، لأنها تجرى فى اشتقاقها على قانون لا يختلف ، وتجاوز عدد من الحالات الشاذة مندوحة حسنة ، لا يخسر معها الأجنبى مهما من اللغة ، ويربح كثيرا من التيسير والتسهيل •

لكن المشكلة العويصة التى يدور معها راس الأجنبى ، ويجد نفسه ازاءها غريقا فى طوفان من الصيغ والأشكال والقواعد فتأتى من جموع التكسير ، انها تجرى على غير قاعدة ثابتة ، وصيغه كثيرة العدد ، واستخدامه فى الشعر والنصوص كثير ، ويرد فى الادب وفى الحياة اليوميه بأكثر مما يرد أى جمع آخر ، ومن هنا يحسن أن نقوم بعملية استقراء للجموع الأوفر ورودا فى لغة الحياة اليوميه وأن نبوبها ، ونقيم لها الأسس التى تجرى عليها ، ونهمل ، فى المراحل الأولى على الأقل ، تدريس الصيغ الأخرى للاجنبى •

من العسير علينا أن نستعرض فى صفحات محددة النهج الذى نريده كاملا لتعليم النحو للاجانب ، فلا بأس أن نقف عند النقط الجوهرية ، وأن نترك التفصيلات لمكانها • والمنهاج كما أتصوره يجرى على مرحلتين ، الأولى للمبتدئين ، وتتطلب أن نأخذ الطالب برفق وعناية ، نمده بالأمل ، ونحثه على الجهد ، فاذا وجد نفسه خاتمة المطاف قد تعلم شيئا ، وأفاد جديدا ، شجعه ذلك على المزيد من القراءة ، والدأب على الدرس، والاستمرار فى نفس الطريق • وهى قبل ، حصيلة تجارب يمكن أن تعدل فى ضوء تجارب الآخرين اضافة وحذفا وتحويرا . واول ما نبدأ هو كيفية نطق الاصوات ومخارج الحروف ، وتركيب الكلمات ، ثم أداة التعريف على أن نقرنها بما أهمله القدماء وهو أداة التنكير ، وقد تعورف على دراستها فى العربية تحت اسم « التنوين » ، وفى الدروس الأولى يتلقى الطالب اللغة تلقينا ، أمثلة مسلمة ، ينطقها ويفهم معناها ويحفظها ، تاركا التعليل والتفسير لمرحلة تالية •

ومن هذه الخطوة الى أقسام الكلمة ، الاسم والفعل والحرف ، نمهد بها مباشرة الى الجمله بقسميها ، الفعلية والاسمية ، على قاعدة البدء بالكل والانتقال منه الى الأجزاء والتفاصيل ، وفهم الجملة أسهل من فهم الكلمة ، والكلمه أسهل من الحرف• ومع الجملة الفعلية تبدأ دراسة الفعل الثلاثى الصحيح ، المفتوح العين أولا ، فالمكسور منه ، ثم المضموم ، وأعنى بدراسة الأفعال هنا استخدامها فى الجمل ، وهى تكون جل أفعال اللغة ، فاذا أمضى الطلاب أيامهم الأولى يدرسونه ، وينبهون الى شواذه، أمكنهم أن يواجهوا خطواتهم الأولى بحصيلة هائله من الأفعال ، ثم مجيء المضارع من هذه الافعال مع المزاوجة بين شرح قاعدة التصريف وتلقين الضبط الداخلى للفعل ، واشتقاق اسم الفاعل والمفعول ، وقاعدتهما وهى لا تختلف ، وبالتدريب على اشتقاق هذين الاسمين يبدأ الطلاب المران على الجملة الاسمية ، ومع دراسة الجملة الفعلية يدرسون الأمر ، ونفى الماضى والمضارع ، والضمائر التى تلحق الفعل ، ومع الاسمية يدرسون جمع المذكر ، وجمع المؤنث ، والصور الجارية لجمع التكسير ، والضمائر المنفصلة وضمائر الملكية ، ثم المثنى أخيرا ، وعلى امتداد الفترة كلها يدرس الطلاب أسماء الاشارة ، للمفرد أولا ، ثم للجمع ، وللمثنى أخيرا ، وحروف الجر الشائعة الاستعمال، والأرقام والتذكير والتأنيث •

فى المرحلة الثانية ، يبدأ الطلاب ، وبالتدريج ، دراسة صيغ الثلاثى المزيد ، ماضيها ومضارعها . وما يشتق منها من أسماء الفاعل (ويتضمن صيغ المبالغة) وأسماء الزمان والمكان والآلة ، ومصادر الأفعال المزيدة وجلها قياسى ، أما مصادر الثلاثى نفسه فتلقن كأمثلة للطلاب طوال فترة الدراسة ، ثم تعطى لها بعض الضوابط فى آخر المرحلة • ويدرس الطلاب أيضا المبنى للمجهول ، والأفعال المعتلة ، وليس من الضرورى الضغط على كلمة علة هذه ، فيمكن أن يقال عنها أنها حروف ذات وضع خاص ، وجودها فى الكلمه يعطيها وضعا خاصا فى التصريف ، والتغييرات التى تطرأ على المضارع عندما يسبقه ناصب أو جازم ، ويقال عنها انها أداة وليس من الضرورى أن يعرف الطالب أهى حروف أم أسماء ، والشرط وجوابه ، والأسماء الموصولة والنسب ، والتغييرات التى تدخل على الجملة الاسمية عندما تسبقها ان وأشباهها ، دون تعرض للافعال الناسخة ، ويكتفى بدراسة هذه كأفعال عادية تماما •

أما التراكيب التى لا تعرض الا قليلا كصيغ التعجب والتصغير ، فيكتفى بالاشارة اليها فى آخر المرحلة ، على أن تدرس مع بعض القضايا النحوية الأخرى فى المراحل التاليه ٠

مع هذه القواعد فان الضبط الخارجى للكلمة ، وهو الذى يحدده الاعراب ، لن يكون عسيرا ، وتبقى مشكلة الضبط الداخلى ، وبخاصة عند التفرقة بين أنواع الفعل الثلاثى ، وعند صوغ المضارع منه ، وهو ما لا سبيل الى معرفته غير شكل الكلمات وقراءتها وتكرارها ٠

فاذا تركنا النحو فما يأتى بعده فى الأهمية هو اللغة نفسها ، أعنى مفرداتها ٠

والهدف منها أن نمكن الطالب من أن يتحدث بلغة عربية صحيحة غير متقعرة ، وأن يفهم الاذاعة. ويتذوق الأدب ، ويدرك مرمى القصة ، ويحسن استخدام المصادر القديمة اذا تقدم فى الدرس ، وأمعن فى التحصيل ، مستعينا بالمعاجم العربية الخالصة ، أو ذات الشروح الأجنبية ٠

ولتحقيق هذا الهدف يجمل بنا احصاء الكلمات الأكثر دورانا على الألسنة ، باستقرائها من الصحف والمجلات والاذاعة ، والنصوص الأدبية المعاصرة ، وكلمات الحياة العادية ، والأمر ليس بجديد ولا عسيرا ، فهناك بعض مؤلفات أجنبية كتبت فى هذا الأمر ، بعضها جمع مفردات من العالم العربى كله ، وبعضها قام على احصاء ما يدور فى حياة دوله واحدة ، وكلا الاتجاهين محاولة طيبة ، لكنها غير كاملة ، لنقص امكانيات القائمين بها ، على الصعيدين العلمى والمادى ٠

فى البدء علينا أن نعنى بتعليم الطالب اللغة المكتوبه ، لا اللغة الأدبية ، وهما معنيان يجتمعان أحيانا فى لغة واحدة ، ويختلفان أحيانا ، فاللغة المكتوبة هى لغة الحياة العادية ، غير العامية ، وتتميز اللغة الأدبية عنها فى غالب الأحيان ، لأن رجال الأدب فى كل الأقطار ، من شعراء وقصاص وكتاب ، يكونون طبقة لها تقاليدها وعوائدها ، وللغتهم خصائص متميزة ، تتطلب تهيئة وترويضا وتثقيفا عاليا ، وهى تغاير اللغة المكتوبة ، رغم تنوعها العديد فيما بينها ٠ وعلينا أن نعطى أهمية قصوى للكلمات ذات المعانى المحدودة ، الخاصة بالمفهومات المادية العملية ، ثم تأتى بعد ذلك الكلمات التى تدل على معان أكثر تجريدا ، على ألا نقدم للمبتدىء مفردات لا تجديه شيئا ، لأن الهدف فى المرحلة الاولى أن تكون لديه حصيلة من كلمات مفيدة ٠ والكلمات التى لا يتيسر وجودها فى نص أدبى ، ولا تستخدم فى الصحف أو الاذاعة ، وانما يقتصر مجالها على الحديث العام ، يمكن أن تضمن بطريقة طبيعية فى حوار أو نصوص للقراءة تدور حول بعض المشاكل المعاصرة ٠

هناك حاجات مشتركة بين جميع الناس ، ولهذه الحاجات مفردات تكاد تتساوى فى عدد الكلمات ، على امتداد العالم طوله وعرضه ، ومن دراسات قام بها قس فى احدى القرى الانجليزية تبين أن الكلمات التى يستخدمها فلاح أمى لا تتجاوز ٣٠٠ كلمة ، وهى الحد الأدنى لما يعرفه انسان فى مثل ظروفه ، ومن جانب آخر أجريت احصاءات لبعض الكتب الادبية ، فوجد أن العهد القديم يضم ٥٦٤٢ كلمة ، وأن العهد الجديد يضم ٤٨٠٠ كلمة ، وأن مفردات أدب شكسبير تبلغ ١٥ ألف كلمة ، وألفاظ ملتن تبلغ ٧ آلاف كلمة ٠ ومن هنا يمكن أن نستنتج أن امداد الطالب بحصيلة من المفردات تبلغ ثلاثة آلاف كلمة فى مؤلفين ، الأول يضم ألف كلمة ، والثانى ألفين ، يقضى الطالب بعد دراستهما مرحلة تعمق واجادة ، يكفى لان يبدأ مرحلة التخصص والعكوف على الادب القديم لمن يريد ٠

لم تجر عملية احصاء هذه المفردات فى العالم العربى بعد ، ولم يقم أحد بدراسة معاجم أدبائنا ، كم يستخدمون من الالفاظ وماذا يؤثرون ، والى أن يتم ذلك ، يمكن أن نستعين بالاحصاءات التى قام بها الاجانب ، ويمكن ان نعهد الى القائمين بالعمل فى اذاعاتنا الموجهة اعداد جذاذات الكلمات التى تمر بهم يوميا فى تراجمهم للاخبار والاحداث ، يكتبونها بالعربية ، الى جانب اللغة الأجنبية التى أذيعت بها ، وترتب هذه الجذاذات وتدرس على نحو منهجى ، ويختار من بينها الالفاظ الأكثر دورانا ، وقد تصلح فى الوقت نفسه لعمل معاجم لبعض اللغات التى لا توجد فيها معاجم للعربية ، كالاسبانيه والبرتغالية (٥) ٠

يراعى فى القطع الموضوعة والمختارة أن تكون مفيدة للطالب ، تمده الى جانب اللغة بجديد فى معارفه عن حياة الشعوب التى يدرس لغتها ، وأن تتجه هذه المعرفة الى الحضارة ما أمكن ، وأن تبتعد عن المعالجة المباشرة لقضايا السياسة ، وأن تلتزم جانب الصدق دون مغالاة ٠ وكتب تعليم اللغة

(٥) فى صيف ١٩٦٤ زرت القسم العربى فى محطة الاذاعة الفرنسية ، فوجدتهم يصنعون شيئا كهذا باشراف المستشرق الفرنسى شارل بلا ، الاستاذ فى جامعة باريس ، وفيما قيل لى ، فان لجنة مماثلة تقوم بنفس العمل فى محطة الاذاعة البريطانية ٠

العربية التى يوزعها خصومنا فى الخارج لا تهاجمنا مباشرة ، ولا تتعرض للسياســـة ، لكن الدارس يخرج بعد دراستها وفى ذهنه صورة كريهة للعـالم العربى تحتاج الى جهد سنين لانتزاعها من أعماقه. انها تعطى القاعدة العلمية وهى محايدة ، ثم تنتقل الى القراءة وهى موحية ، فلا تكون نصا أدبيـــا جميلا ، ولا قطعة شعرية نابضة بالانســانية ، ولا حقيقة تاريخية ثابتة ، وانما تتحدث عن امثـــال : « الاعرابى والنخلة » ، « بدوى يتيه فى الصحراء » ، « الراعى وغنمه » ، من كل ما يهــدف الى تحقير المتكلمين بالعربية ، وابرازهم فى صــورة المجردين من كل حضارة عصرية ·

وتشكل الكلمات كاملة ، وبصفة خاصـــة فى المراحل الاولى ، لأن الشكل — فى نظر الأجنبى — جزء من بنية الكلمة ، اهماله يجعل الكلمة تفقد أحد عناصرها ، فيعجز الطالب عن فهم المراد من اللفظ، فلا يدرى فى مثل « جمع » أهى اسم أم فعل ، واذا كانت فعلا أهو للمعلوم أم للمجهول ، ثم نتخفف من الحركات شيئا فشيئا ، الى أن يتعود الطالب القراءة دون غير الضرورى من الشكل فى المرحلة الأخيرة ، وليكن ذلك من الكتاب الرابع مثلا ، ويمكن التخفف بدءا من بعض الحركات بما لا يتعارض مع الغـاية منها ، فلا تكتب الفتحة مثلا وتكون مفهومة عنـــد اهمالها ، الا اذا كانت حركة للواو أو الياء فى مثل (صور — جيل) ، وتعتبر حروف العلة مدا ما لم تضبط بالشكل ، اما الشدة والمدة وهمزة القطع فاثباتها أمر جوهرى ، ولا ضـــير ، بل قد يكون ضروريا ، أن يكتب نطق الكلمة بحروف لاتينيه فى المرحلة الأولى ، وأن يوضع للحركات قاعدة يتفـق عليها ، وتصبح محتذاة عالميا ، وأن يتفق على رأى ، هل يكون النقل حرفيا ، فتكتب الكلمة دون اعتبار للنطق الحقيقى ، فيقال al-Dâr أم يكون النقــل صوتيا وصفيا ، وحينئذ تنقل الكلمات كما ينطـق بها ، فيقال ad-Dâr ·

عند الكتابة للاجانب يحسن ، فى المراحل الأولى، التخلص من الزخارف الخطية التى يلجأ اليهـــا البعض عند توالى حروف متشابهة ، لاعطاء الكلمـة شكلا أكثر جمـــالا وانسجاما فى عين القـــارئ ، فيصعدون بعض الحروف لغير ضرورة ، مما ترك أثرها فى حروف الطباعة ، فكلمة يتبينون مثلا يمكن أن تكتب على هذا النحو : يتبينون — يتبيــنون — يتبينون — يتبينون ، مما يوقع القارئ المبتدى فى اضطراب ، ويحسن ان تلتزم صورة الحرف العربى شكلا موحدا ، كانت فى وسط الكلمة ، كما سبق ، أو فى أولها ، على نحو ما تكتب عليه النون فى « نهر » و « نهر » أو آخرا كما تكتب الميـــم فى « قلم » و « قلم » ·

وفى الكتاب الأول، وربما الثانى أيضا ، من المفيد أن يؤدى الرسم دوره الى جانب اللفظ فى توضيـح المعنى ، وبخاصة فى الأسماء ، وان رسم قط الى جوار حروفه ، يجعلها أثبت فى الذهن ، وأدل عـلى المعنى ، وأوفر فى الشرح ·

من المؤسف أن تدريس اللغة العربيـة للاجانب يقوم على كتب مؤلفوها فى معظمهم من الأجانب ، وأغلبها عتيق النص والمنهج ، وهى ضـارة ومؤذية وجارحة لكرامة الانسان العربى وشعوره ، تتحدث عن قضايا عفا عليها الزمن ، وتستخدم أســلوبا مسجوعا ركيكا ، انطوى عصره وذهبت أيامه ، واذن فلا بد لنا من كتب نصنعها نحن ، كتب للقواعـــد بتدريباتها ، وللقراءة المبسطة ، وللادب المعـاصر ، وللادب العربى فى زاهر أيامه ، ولن يؤدى كتـاب واحد من هذه الكتب الأدبية رسالته ما لم يضـبط الضرورى من ألفاظه ، ويلحق بآخره معجم صـغير Glossaire تترجم فيه الألفاظ الصعبة وغيرالمتداولة الى اللغة التى يعد لطلابها ، انجليزية أو فرنسية ، على قواعد الفصحى ونهجها ·

وقد أثبتت التجارب أن الطلاب الأوربيين يقبلون على دراسة اللغة العربية بحماسة ثم ينصرفون عنها عندما يشعرون أن اللغة التى يبذلون الجهـــد فى دراستها ليست هى اللغة التى يتحدث بها النـاس فى أى بلد عربى يمكن أن يذهبوا اليه مســـتقبلا ، ولسد هذه الثغرة ، علينـــا أن ننشر عـــددا من المسرحيات المعاصرة لكبار كتابنا ، على النحو المتقدم، ففيها لغة الحياة ، وفيها الحوار الذى تأنس اليـه النفس وتألفه ، ويعين الأجنبى على أن يلتقـط من كتاب أدبى الكثير من التعابير الدارجـة ، الجارية على قواعد الفصحى ومنهجها ·

وأعتقد أن على الجامعة العربية ان تعطى هــذا الأمر بعض جهدها ، من اعداد اللجـــان ، وتأليف الكتب ، واقامه المعـــاهد ، وتنسيق الخطط بين دونها فى هذا المجال ، وحث المتخلف منهـــا على ان يأخذ بحظه من هذه الرســـالة الجادة ، وأن تعين دور النشر الكبرى التى تخصصت فى اصدار كتب اللغات ، بالخبراء والفنيين ، وأن تخطو الخطــوة التى شملت لغات كثيرة وما زالت العربية محرومة منها ، وهى التعليم عن طريق الاسطوانة والاذاعـة والأشرطة المسجلة ، وأن تحيط دوائر الاستشراق فى الخارج بما تنتهى اليه الدوائر العلمية فى العالم العربى من تطوير فى مناهج اللغة العربية ، يتصــل

باللغة أو الكتابة أو النشر ، كاختصار أشكال الحروف العربية ، واصدار المجمع اللغوى فى القاهرة كتاب « المعجم الوسيط » •

وأن تفكر على المدى البعيد ، فتقوم بتوحيد كثير من المترادفات التى تستخدم للمعانى الجديدة •• فى كل دولة من دولها لفظ والمعنى واحد ، فيتحتم على الطالب الأجنبى أن يحفظ لمقابل الكلمة الأجنبية الواحدة عددا من الكلمات العربية ، فكلمة Vice Président يعبر عنها بكلمات : نائب ، ووكيل ، وخليفة ، وكاهية ، ومساعد •

ذلك ، فى ظنى ، عمل أولى بالألوف من الجنيهات التى رصدت لترجمة أعمال شكسبير !

لكن هذه النيات الطيبة يمكن أن تنتهى كلها الى لا شىء اذا لم يسبقها الاهتمام بتكوين جيل من الأساتذة يتخصص فى تدريس اللغة العربية للاجانب، والتخلى عن فكرة أن كل من تكلم العربية قادر على تدريسها ، فمعرفة اللغة شىء ، وتدريسها للاخرين شىء آخر ، فاذا كان هؤلاء الآخرون اجانب يتكلمون لغة أخرى كانت الحاجة الى التخصص أشد ، والعناية بالاعداد أدعى ، وقيام مدرس تاريخ ـ مثلا ـ بتدريس اللغه العربية ، أو ارسال خريج فى مدرسة الألسن ليشغل كرسى اللغة العربية فى احدى الجامعات الاسبانية ، لمجرد أنه درس الاسبانية ، ضار باللغة وبنا وبسمعة الأدب العربى ، وبثقافتنا المعاصرة بوجه عام • وترك تعليم اللغة العربية فى رعاية الأساتذة الأجانب ، يجعل منها أمام الطلاب شيئا أشبه بالطلاسم ، وبعينى شهدت راهبا يدرس الأدب العربى ، فى احدى جامعات أوربا ، ولايعرف من العربية غير قراءة الرسم ، واستخدام المعاجم ، لا يحسن نطق كلمة ، ولا يتذوق تعبيرا جميلا •

ولا بد من اعداد المدرس العربى فى اللغة التى يستخدمها الطلاب الذين يدرس لهم ، وأن يكون على قدر من ثقافة يدرك معه وجوه الخلاف بين اللغات الهندية الأوربية واللغات السامية ـ مثلا ـ ويعى المفهومات المختلفة للتحليل النحوى بين هاتين المجموعتين ، والمصطلحات النحوية المتعلقة بالألفاظ وتركيب الجمل على نحو أخص ، وما يوجد فى العربية وليس له مقابل فى هذه اللغات أو العكس • وان أشق ما يواجه الأجنبى هو أن طريقة التفكير تختلف من لغة الى أخرى اختلافا بينا ، وأن تركيب اللغة فى العربية يختلف عنه فى اللغات الأوربية الحديثة ، وسوف يحس الطالب بسرور، وهو يواجه للمرة الأولى الأشكال الغريبة للرسم العربى ، اذا عرف أن خمسة حروف من الأبجدية العربية لها شكل واحد ، وانها تختلف فيما بينها بالنقط ، وهى ب ت ث ن ى ، وأن ثلاثة أخرى لها نفس الشكل ويفرق بينها بالنقط وهى ج ح خ ، وهكذا• وأن المثنى ، على دهشة الأجنبى منه ، ليس شيئا خاصا باللغة العربية ، فقد كان موجودا فى الهندية الاوربية قديما ، وما يزال موجودا بعد فى اللهجة السلوفينية فى يوغوسلافيا ، وفى صورابية اللوزاس (اقليم بين ألمانيا وتشيكوسلوفاكيا) ، والحق أن صورة المثنى بدأت تختفى فى لغة الحياة العادية من زمن طويل ، ولولا القرآن لاختفت من اللغة الأدبية أيضا •

وأن يعرف أن العربية تعبر عن الفكرة الرئيسية بالسواكن ، وعن تفرعاتها الثانوية بالحركات، ومن ثم فان التصريف يتم داخل الكلمة غالبا ، مما يسمح لها بصوغ عدد من المشتقات دون حاجة الى لواحق، فنحن نقول كتب ، كاتب ، كوتب ، كتاب ، كاتب، وهو ما لا يمكن بلوغه فى لغة أخرى دون التجاء الى اللواحق • وأن الصعوبات التى تواجه الطالب الأجنبى تتمثل فى تعلم المائة الكلمة الأولى ، وفى الانتقال من قراءة النصوص المضبوطة بالشكل الى النصوص المجردة منه ، وفى تخطى قراءة الجمل المتفرقة الى قراءة نص كامل ، وأن تكرار المفردات والجمل البسيطة يعين الطالب على اجادة النطق ، وارهاف السمع ، مختارا من الألفاظ أكثرها دورانا على الألسنة وشيوعا فى الحياة ، متجنبا المفردات القليلة الفائدة ، أو النادرة الاستعمال ، فاذا استطاع طالب بعد قليل من الزمن أن يقرأ عنوانا فى صحيفة او يلتقط جملة من اذاعة ، فسيكون ذلك دافعا له على الاستمرار فى الدرس ، والمضى فى الطريق الى نهايته •



جانب الأصوات في العربية الفصحى

بقلم الدكتور
السعيد محمد بدوي

كثيرا ما توصف اللغة الفصحى في البلاد العربية بأنها « اللغة المشتركة » و « لغة القرآن » . وقد يصل الأمر الى تحدى أصحاب اللغات الأخرى والتيه عليهم ، فتوصف بأنها « لغة الضاد » .

ولا نعترض على وصف هذه اللغة بأنها لغة القرآن او اللغة المشتركة اذا ما خصص عموم هذه الأوصاف وقصر على القواعد النحوية والصرفية التى تقوم عليها . أما اذا امتد ذلك ليشمل « صورتها الصوتية » ايضا — واهمية الصورة الصوتية فى اللغة أمر لايحتاج الى بيان — فذلك أمر لا نستطيع أن نسلم به على اطلاقه .

فأصوات العربية كما ينطق بها العرب فى الوقت الحاضر ليست كلها أصواتا مشتركة — اذ هى تختلف بدرجات عديدة من قطر لآخر — وليست كلها اصوات القرآن الكريم كما قراه النبى صلى الله عليه وسلم واصحابه بعده ، كما ان تسمية العربية « لغة الضاد » قد اصبحت فى الواقع غير ذات موضوع بعد أن طوى التاريخ تلك « الضاد » التى تنسب اليها واصبحت حلقة مفقودة فى الدراسات الصوتية فى اللغة العربية .

وما دمنا قد تحدثنا عن وجود « خلاف فى النطق » فلا بد لنا وقبل البرهنة على وجوده من أن نحدد مدلوله الاصطلاحى : فالخلاف بين نطق وآخر للغة من اللغات نوعان : الأول خلاف من شأنه الا يؤدى الى خطأ فى الفهم ، والثانى خلاف من شأنه أن يؤدى الى مثل ذلك الخطأ . فمثال النوع الأول نطق صوت « الجيم » فى البلاد العربية . فعلى الرغم من ان مثقفى مصر عموما ينطقونه « انفجاريا » (١) — اى خاليا من اى « تعطيش » — واهل العراق والكويت ونجد وغيرهم ينطقونه «مركبا » — اى معطشا قليلا — واهل فلسطين وسوريا ولبنان وغيرهم ينطقونه « رخوا » — اى خالص التعطيش ، فهذا الخلاف لا يؤدى عادة الى اى خطأ فى الفهم بين ابناء العربية ، اذ لا يترتب عليه احلال صوت من اصوات اللغة نفسها محل آخر . فليس فى العربية ثلاث جيمات ، ولكنها واحدة والخلاف ينحصر فقط فى طريقة النطق بها . وأبناء اللغة « يتنازلون » لا شعوريا عن مثل

---

(١) تقديم تعريفات دقيقة للمصطلحات الصوتية الواردة بالمقال — على قلتها — أمر لا تسمح به طبيعته ، والامل كبير فى أن يجد القارىء ، الذى تغيب عنه معانى تلك المصطلحات ، فى الاشارات الواردة فى شرحها ، وفى معلوماته العامة ، وما اختزنته ذاكرته من أصوات اللهجات العربية المختلفة . ما يساعده على متابعة الموضوع .

هذا الخلاف « العرضى » وان كانوا يستخدمونه فى تحديد المنطقة التى ينتسب اليها المتكلم .

ومثال النوع الثانى : نطق صوت « الذال » مرة « باخراج اللسان » ومرة أخرى بدون هذا الاخراج مما يترتب على الطريقة الثانية – وهى الشائعة فى النطق المصرى – احلال صوت من اصوات العربية وهو « الزاى » محل صوت آخر من اصواتها وهو « الذال » ، واشتباه كلمات كثيرة اشتباها يفتح الطريق امام وقوع الخطأ فى الفهم فى مثل « زكى » و « ذكى » ، زرع و « ذرع » .. الخ .

ويأتى النوع الثانى فى المقام الأول من الاهمية لانه يتدخل فى نظام اللغة الصوتى ويعوق واحدا من اهم أغراضها وهو « الفهم والافهام » . ومع ذلك فالنوع الاول لا يخلو من الأهمية خاصة اذا كان الأمر يتعلق بقراءة القرآن الكريم . فقراءته باحدى الصور التى ورد بها – وليس مجرد القراءة المفهمة – شرط اساسى لصحة القراءة واجازتها .

●

نعود اذن لتحقيق الدعوى التى قدمناها ، وهى وجود الخلاف بنوعيه فى النطق بالفصحى . وهو خلاف يوجد بين صورتها الصوتية القديمة (بما فى ذلك الصورة الصوتية للنص القرآنى) وجميع الصور الحديثة الموجودة فى البلاد العربية مجتمعة من ناحية ، وخلاف بين هذه الصور الموجودة فى البلاد العربية الآن من ناحية أخرى . وتحقيق الجانب الأول من هذه الدعوى ينحصر فى المقارنة بين أوصاف القدماء لأصوات العربية – فى نصوصها القرآنية وغيرها – (وأقدم الأوصاف التى بين ايدينا جاءت فى كتاب سيبويه) وبين أوصافها كما ينطق بها المجيدون – من قراء للقرآن وغيرهم فى الوقت الحاضر . ولا يعنينا فى هذا المقام قراءة غير المجيدين فالشقة بينها وبين الصورة القديمة ابعد من ذلك واكثر وضوحا .

واهم اختلاف صوتى بين الصورتين القديمة والحديثة ينحصر فى الأصوات التى يرمز اليها بالرموز «ط» ، « ض» ، «ق» . فسيبويه يصف « الطاء » بأنها صوت مفخم ، مجهور ، شديد ، مخرجه بين طرف اللسان وأصول الثنايا . وهذا الوصف لا ينطبق على الطاء كما نعرفها الآن فى اى من البلاد العربية (اللهم الا قلة ضئيلة فى جنوب الجزيرة العربية) – اذ هى فى الوقت الحاضر صوت « مهموس » لا « مجهور » – بل ينطبق على الصوت الذى نرمز اليه فى النطق المصرى الآن برمز «ض» . أما الصوت الذى رمز اليه القدماء برمز «ض» فقد وصفه سيبويه بأنه صوت مفخم ، مجهور ، رخو ، مخرجه بين حافة اللسان – من جانبه الأيمن أو الأيسر – أو بين حافتيه مع الأضراس الجانبية المقابلة . وهذا الوصف لا ينطبق ابدا على صوت « الضاد » كما ينطق بها الآن فى أى من البلاد العربية . فهى تنطق باحدى طريقتين : الأولى كما ينطق بها فى مصر ، وقد وصفناها فيما سبق . والثانية تنطق على أنها صوت مجهور ، رخو ، مخرجه بين طرف اللسان والأسنان الأمامية (أى مثل صوت « الظاء ») وهو نطق العراق والكويت واهل نجد وآخرين . اما صوت « الضاد » القديم كما رويت لنا صفاته فقد اختفى فى النطق العربى تماما ، ولا يمكن القطع بصفاته على وجه التحقيق » (٢) وليس غريبا ان تنتهى « الضاد » القديمة هذه النهاية . فقد روى لنا ابن الجزرى انه « ... ليس فى الحروف ما يعسر على اللسان مثله . فان السنة الناس فيه مختلفة ، وقل من يحسنه : فمنهم من يخرجه « ظاء » (اى كما ينطق به اهل نجد والعراق وغيرهم الآن) ومنهم من يخرجه بالدال (ولعل هذا النطق كان حلقة سابقة فى سلسلة التطور التى ادت الى الصورة التى ننطقه عليها فى مصر اليوم) (٣) ومنهم من يجعله لاما مفخمة . ومنهم من يشمه الزاى . وكل ذلك لا يجوز » (٤) .

وقد ادى ذلك التطور فى صوتى « الطاء » ، و « الضاد » الى نشوء وضعين قائمين الآن (ينبغى أن يلاحظ القارىء فيما يلى التفرقة المقصودة بين « الصوت » و « الرمز الكتابى » الذى يدل عليه) :

ففى مصر : لما فقد صوت « الضاد القديمة » من النطق أصبح رمز «ض» يدل على صوت « الطاء القديمة » وأصبح رمز «ط» يدل على صوت جديد لم يكن موجودا من قبل ، اى **ضاع صوت** بصفة نهائية وهو صوت « الضاد القديمة» ، **وتولد صوت** جديد هو صوت « الطاء الحديثة » ، **وانتقل صوت** من وظيفة الى أخرى وهو صوت « الطاء القديمة » ، اذ اصبح يقوم بوظيفة « الضاد القديمة » . ومع ان هذا التغير لا يؤدى الى حدوث التباس فى الفهم الآن نظرا لأن الصورة الجديدة والقديمة غير موجودتين معا فى نطقنا المصرى اذ حلت احداهما

---

(٢) يبدو أن ذلك الصوت كان يشبه ، ما يوصف فى الدراسات الصوتية بانه صوت (اللام الرخوة) ، وهذه توجد فى لغة ويلز فى مثل الصوت لاول من الاسم العلم Lloyed وان كان الاخير مهموسا بعكس صوت (الضاد) القديمة ، فهو مجهور .

(٣) مابين هذه الاقواس الكبيرة اضافات من عند الكاتب

(٤) النشر فى القراءات العشر ، الجزء الاول ، ص ٢١٩ – ٢٢٠ .

محل الأخرى تماما ، الا ان الأمر خطير حقا فيما يتعلق بالصورة القرآنية .

أما فى نجد والعراق وبلاد الخليج العربى :

فعلى الرغم من ان الصورة أقل تعقيدا من ذلك فانها تقود الى الخطأ واللبس فى الفهم . فقد تطور صوت « الضاد القديمة » وأصبح مطابقا لصوت « الظاء » . بينما بقى ذلك الأخير على حالة بدون أى تغيير ، مما أدى الى وقوع المحظور ، وهو وجود رمزين مختلفين ـ هما رمزا « ض » و « ظ » ـ للاشارة الى صوت واحد بدون تمييز . وقد حذر من مثل ذلك ابن الجزرى حين قال « ... فليحذر من قلبه (أى صوت « الضاد ») الى « الظاء » لا سيما فيما يشتبه بلفظه نحو ضل من تدعون» (٥) وهو هنا يشير الى مسألة اللبس فى المعنى ، اذ ينتج عن مثل تلك القراءة ان تصبح الجملة «ظل من تدعون» اى بقى من تدعون ، وشتان بين المعنيين .

أما صوت « القاف » فقد وصفه لنا سيبويه بأنه صوت مجهور ، شديد ، مخرجه من اللهاة (اى انه كان فى الواقع يشبه نطق اهل الشرقية لصوت «ق» فى الكلمة العامية قال) بينما هو الآن فى جميع البلاد العربية ـ فيما عدا قلة ضئيلة فى جنوب الجزيرة ـ صوت مهموس . ونتيجة هذا التطور نوع من الاختلاف لا يؤدى الى خطأ فى الفهم وان كانت آثاره غير حميدة فيما يتعلق بالأصوات القرآنية .

هذا هو مجمل الخلاف الصوتى بين الصورة الحديثة للفصحى وبين صورتها القديمة كما وصفها لنا سيبويه . وعلى الرغم من اختصار وصفه للأصوات العربية فأن دقته لا مجال للشك فيها . فهو يطور ذلك الوصف ويفرع عليه تفريعات تؤكد احاطته به وفهمه لمدلولاته . فهو يقول مثلا : « لولا الاطباق لصارت الطاء دالا » اى ان الفرق بين الطاء والدال كان هو التفخيم فقط ، وهذا يتفق مع وصفه للطاء بأنها صوت مجهور . بينما نرى الآن ان الطاء الحديثة لو فقدت الاطباق لصارت « تاء » لا « دالا » . كذلك نراه يعد « الطاء » و «القاف» بين « حروف القلقلة » ، وكلها اصوات مجهورة .

●

أما الجانب الآخر من جوانب الخلاف الصوتى فى الفصحى فهو الخلاف الموجود بين صورة واخرى من صورها السائدة فى البلاد العربية . وهو خلاف قد يؤدى الى وقوع الخطأ فى الفهم والافهام ويجعل القول بأن اصوات الفصحى مشتركة بين ابنائها امرا يحتاج الى نظر . فمثلا لو أراد متحدث فى اذاعة الرياض او العراق ان يقرأ العبارة التى تكتب هكذا « وقال سيادته : لقد حضرت ابرام هذه الاتفاقية » « فسيخرج لسانه » عند النطق بصوت « الضاد » بحيث لو كان المستمع اليه مصريا فسيسمع الجملة وكأنها قد كتبت : « وقال سيادته : لقد حظرت ابرام هذه الاتفاقية » . ولو انعكس الوضع وكان القارىء مصريا وقرأ « وقد أنشأت حديقة الحيوان بالجيزة قسما خاصا للعصافير الثمينة » دون أن « يخرج لسانه » ـ كما هو الشائع بين كثير من المثقفين ـ وسمعه آخر من الرياض مثلا فقد يظن أن الحديقة قد افردت قسما خاصا « للعصافير السمينة » ، ولا ندرى ما سيدور بخلده عندئذ .

هذا التطور الذى حدث فى الصورة الصوتية للقرآن الكريم ـ كما يقرؤه مجيدو القراءات عندنا الآن ـ والاختلافات الموجودة فى نطق الأقطار العربية لأصوات الفصحى هى فى حد ذاتها أمور خطيرة . ويزيد فى خطورتها أنها وقعت على الرغم من الحرص الشديد والعناية الفائقة التى أحاط بها علماء العربية السابقون تراثنا اللغوى . ومع ذلك فهناك ما هو اخطر من الذى حدث . وهو ما نراه حولنا من عدم التنبه لحدوثه ، وبالتالى تركه يستشرى ويستفحل . ويكفى دليلا على استصغار شأن الأخطاء الصوتية البحت بالقياس الى الأخطاء الاعرابية مثلا أنه قلما نرى أحدا يحاول تصويب الأولى ـ أو حتى يتنبه لوقوعها ـ على كثرتها فى الخطب والأحاديث بينما نرى مسارعة لا حد لها فى تصحيح النوع الثانى .

واهمال الجانب الصوتى فى تكويننا الثقافى العربى قصور يعود بجذوره التاريخية الى الفترة التى تسمى « بعصر تدوين العلوم » ويحتاج هنا الى وقفة تكشف عن اسبابه ان كان لنا أن نأمل فى اصلاحه قبل فوات الأوان .

فنحن نعرف أنه ما كادت اللهجات العربية المختلفة تدين بالولاء للهجة قريش وتنزلها منها منزلة « اللغة المشتركة » حتى واجهت هذه اللغة نفسها تحديا خطيرا هددها بالانقسام مرة اخرى وهاجمها فى أعز تراث تعتز به وهو القرآن الكريم . وقد تمثل هذا التهديد فى ظهور ما سمى «باللحن» وتفشيه بين كثير ممن كان يفترض فيهم الخلو منه .

واتفاق ظهور هذا الخطر مع بدء انتشار العربية خارج حدودها الأولى ـ اى شبه جزيرة العرب ـ جعل الأولين يسارعون بارجاعه الى سبب واحد هو مخالطة العرب غيرهم وفساد «سليقتهم» تأثرا

(٥) المرجع السابق ص ٢٢٠ .

بعجمة الشعوب الأخرى . وقد اغفلوا بذلك عاملا آخر له أهميته ، وهو التطور الطبيعى الذى يصيب كل اللغات وخاصة ما كان منها فى مثل الظروف التى كانت العربية تمر بها فى فترة ما قبل عصر التدوين (اى حينما لم يكن هناك مستويات موضوعية لبيان الصحة والخطأ فى الاستعمالات « اللغوية » ، اللهم الا النصوص نفسها ، وهذه لم يكن من السهل لكل احد القياس عليها) . وليس القصد هنا الغض من أهمية عامل « الاختلاط » فى ظهور اللحن ، بل القصد اشراك عامل « التطور الطبيعى » فى هذه الأهمية . ولو فرض وبقى العرب فى جزيرتهم واغلقوها على أنفسهم لما كان ذلك سببا فى نجاة لغتهم من التغير والتطور على اى حال .

وتحفل كتب اللغة والأدب بالقصص والنوادر الخاصة باللحن : بعضها الغاضب الحانق (كقصة الشعبى حين مر بقوم من الموالى يتذاكرون النحو فقال لهم « لئن أصلحتموه انكم لأول من أفسده ») وبعضها المرح الفكه (كقصة الأعرابى الذى دخل السوق فسمعهم يلحنون ، فقال : « يلحنون ويربحون ، ونحن لا نلحن ولا نربح !! »

وحوادث اللحن التى أتت على حكايتها الكتب القديمة يمكن ان ترد كلها الى أنواع أربعة هى : « اللحن الاعرابى » و « اللحن الاشتقاقى » و « اللحن الدلالى » و « اللحن الصوتى » أو اللكنة . ويتمثل النوع الأخير فى اسقاط واحد من أصوات العربية الفصحى واحلال صوت آخر غريب عنها محله ، أو استعمال أحد أصوات اللغة نفسها فى غير بيئته التى تقررها قواعد اللغة . وقد عرفه الجاحظ بأنه « ما يعترى أصحاب الكن من العجم ومن نشأ من العرب مع العجم » (٦) .

وموقف العلماء السابقين من هذه الأنواع من اللحن موقف يحتاج الى تفسير : فقد اهتموا « باللحن الاعرابى » و « الاشتقاقى » و « الدلالى » وتنبهوا لخطرها على القرآن ولغته . فراحوا يجمعون اللغة ونصوصها عموما من مصادرها الموثقة ، ويقعدون لها القواعد ويبذلون فى سبيل ذلك مجهودا لا نظير له فى تاريخ أية لغة أخرى . وقد اظهر هؤلاء العلماء — بعدم اقتصارهم على دراسة النص القرآنى وحده — ذكاء وبعد نظر يستحقان التقدير . ذلك أن القدرة اللغوية لا ينبغى أن تجزأ . واذا أريد حماية القرآن من اللحن فلا بد أن تتسع المعركة لتشمل جميع أنواع النشاط اللغوى الأخرى .

(٦) البيان والتبيين : « تحقيق عبد السلام هارون » جـ ١ ص ٧١ ، الطبعة الاولى .

وكان من الطبيعى — وقد انشأ العلماء العرب بنيانا ضخما من الدراسات اللغوية حول موضوعات « الاعراب » و « الاشتقاق » و « الدلالة » عموما — ان تنمو هذه الدراسات وتستقل بنفسها لتعرف بأسماء «النحو» و «الصرف» و «المعاجم اللغوية» — لا «نحو القرآن» أو «صرف القرآن» أو «معاجم القرآن» فقط : وهكذا تحقق ايجاد مستوى من الخطأ والصواب اللغويين يتعلمه الناطقون بالعربية من عرب واجانب ويرجعون اليه فى مواطن الشك او الخلاف . واذا كانت قيمة المجهود تقاس بنتائجه فمن الواضح ان علماء اللغة السابقين قد حققوا فعلا ما هدفوا اليه وهو حماية النص القرآنى من الاستغلاق على أبناء العربية بسبب خفاء التراكيب أو خفاء المعانى .

اما « اللحن الصوتى » فلم يوله العلماء العرب مثل هذا القدر العظيم من الاهتمام . فمثلا نرى سيبويه فى الكتاب المنقول عنه والذى يزيد على ٩٠٠ صفحة قد تعرض لجانب الأصوات فى نهاية الكتاب لا بدايته كما كان ينبغى (اذ ان دراسة الأصوات فى الواقع لها السبق المنهجى على بقية فروع اللغة) . وحتى عندما اراد وصف الأصوات العربية نجده قد أفرد لها اقل من ثلاث صفحات فى أول باب الادغام ، وكان وصف الأصوات ليس له ما يبرره سوى كونه مقدمة لباب الادغام .. وليس المراد هنا الغض من قيمة دراسة سيبويه ، فأبحاثه فى باب الادغام هى فى حد ذاتها ابحاث تشكيلية (٧) لها قيمتها العلمية التى لا تنكر . ولكن يبدو أن تناول سيبويه لمباحث الأصوات بتلك الطريقة كان السبب فى أن تلك الدراسات قد أخذت طابع المباحث الختامية — ولا نريد أن نقول العرضية — فى كتب اللغة .

وقد يقال ان جمع القراءات القرآنية والمباحث الواردة فى شرحها — وهى مقدار لا بأس به — هو فى الواقع « علم الأصوات العربى » ورد النحاة على اللحن الصوتى فى اللغة بصفة عامة . ولكن هذا القول الذى يكثر ترداده لا يقف طويلا امام الفحص الدقيق . فالقراءات القرآنية — وهى روايات النص القرآنى اجازها النبى وتقوم اصلا على الاختلاف الصوتى للهجات — ليست أبحاثا صوتية ، وانما هى مادة خام للبحث الصوتى . اما مباحث التجويد الأخرى مثل مواضع « الادغام بغنة » مثلا ومواضع الاشمام ... الخ فهى — مع كونها أبحاثا

(٧) يستطيع القارىء ان يرجع الى كتاب « منهج البحث فى اللغة » للدكتور تمام حسان ص ١١١ ومابعدها لمعرفة المقصود باصطلاح « التشكيل الصوتى » .

صوتية – قد بقيت مقتصرة عمـوما على النص القرآني ، وجرى العـرف العلمي على اعتبارها كذلك . والدليل على هذا انهـا عندما تطورت لم تستقل بنفسها لتصبح « علم الأصوات » أو « علم النطق العربي » كما حدث للنحو مثلا ، بل اصبحت « علم القراءات والتجويد » ، اي علم الأصوات القـرآنية في الواقع . ولو طلبت الآن من افصح فصحاء العـربية أن يستعمل قوانين الامالة او الاشمام او الادغام بغنة مثـلا في مواضعها المقابلة لمواضعها القرآنية من كلامه لأخـذ كلامك مأخذ المزاح (٨) .

●

ولنا الآن ان نتساءل عن السر في عدم اعطـاء الأولين « للحن الصوتي » حقه من العنـاية . وموضوع التساؤل هنا « سلبي » ولذلك لا نملك الا استعراض الفروض الممكنة له ومناقشاتها واحدا واحدا لمعرفة اقربها الى منطق الحوادث :

فالفرض الأول : ان اللحن الصـوتي او اللكنة لم تكن شائعة بين الخاصـة أو الفصحاء ، بل كانت بين العامة فقط ، وهؤلاء لم يقلق على شيوع اللحن بينهم احد . وهذا الفرض غير صحيح . فالجاحظ يروى لنا انـه « .. من اللكن ممن كان خطيبا او شاعرا او كاتبا داهيا زياد بن سلمى أبو امامة ، وهو زياد الأعجم ، كان يجعل السين شينا والطاء تاء . ومنهـم سحيم عبد بني الحسحاس ... (كان يجعل) الشين المعجمة سينا غير معجمة . ومنهم عبيد الله بن زياد والي العـراق . قال لهانىء بن قبيصة : اهروري سائر اليـوم ! يريد احروري . ومنهم صهيب بن سنان النمري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول انك لهائن يريد انك لحائن (بالحـاء المهملة اي هالك) ... ومنهم ابو مسلم صاحب الدعوة ... » (٩) .

والفرض الثاني : ان اللحن الصوتي ، اقل وضوحا من غيره كاللحن الاعرابي مثلا . وحسبنا دليلا على على عكس هذه القضية أننا عندما نسمع مستشرقا – ممن ملكوا ناصية اللغة – يتحدث بالعـربية فان أول ما نلحظه هو لكنته لا أخطاءه الاعرابية . فاللحن الصـوتي في الواقع يزيد في أذن من يدركه نبوا وبعدا عن الذوق اللغوي .

والفرض الثالث : ان « اللحن الاعـرابي » يغير المعنى ، اذ أن الاعراب يدل على نوع العـلاقات القائمة بين اجزاء الكلام ، وهـذه ترتبط بالمعنى النهائي للكلام ارتباطا اساسيا . والجواب ان اللحن الصوتي أيضـا قد يغير المعنى . ويتضح ذلك من المثال الذي ذكره الجاحظ للكنة صهيب .

بقي**فرض رابع**واخير نرجحه هنا . وهو في الواقع مركب من جانبين : **الأول** اغفالهم حقيقة التطـور الطبيعي لأصوات اللغة وتركيزهم على عامل التأثير الأجنبي وحده . وقد ذهب بهم الغلو في هذا الأمر الى حد ارجعوا معه امثلة من الاختلاف اللهجي في الأصوات ، وامثلة من الاختلاف الصوتي الناتج عن المجـاورة في السياق الى ما وصفوه « بشبهة » مخالطة الأجانب . فابن يعيش يقول تعليقا على قول صاحب الكتاب « والحروف المستهجنة هي الكاف التي كالجيم ، والجيم التي كالكاف ، والجيم التي كالشين ، والضـاد الضعيفة ، والصـاد التي كالشين ... » – يقول ابن يعيش تعليقا على هذا : « وكأن الذين تكلموا بهذه الحروف المسترذلة قوم من العرب خالطوا العجم فتكلموا بلغاتهم فاعرفه » (١٠) وكان الأولى ان يعتبر تحول « اجتمعوا » في النطق الى « اشتمعوا » (اي بصيرورة الجيم شينا) من باب التأثر بالمجاورة في السياق وهو هنا مجاورة الجيم المجهورة للتاء المهموسة وتأثر الأولى بالثانية ، وخاصة وان ابن يعيش يبدو غير واثق من التأثير الأجنبي .

والجانب الثاني : هو ما يبدو من اعتقادهم ان من يصيبه داء اللكن – سواء اكان اعجميا اصـلا ، ام عربيـا مخالطا للأعاجم – لا يمكن تقويم لكنته او اصلاح اعوجاج نطقه . فالجاحظ يقول :

« فأما حروف الكلام فان حكمها اذا تمكنت في الألسنة خلاف هذا الحكم . الا ترى ان السندي اذا جلب كبيرا فانه لا يستطيع الا أن يجعل الجيم زايا ولو اقام في عليا تميم وفي سفل قيس وبين عجز هوازن خمسين عاما » (١١) . وقول الجاحظ هذا غير صحيح . فمن الممكن بشيء من الخبرة والتدريب ان يتعلم المرء اصـواتا جديدة ويجيدها . وقـد سنحت الفرصة لكاتب هذا المقال ومجمـوعة من

---

(٨) اذكر وانا طالب في كليـة دار العـلوم ان احـد الزملاء ساهم في الحفل الترفيهي لآخر العام بان قرأ اخبار الكلية قراءة التزم فيها ما تقضي به قوانين الامالة والاشمام والادغام بغنة وغيرهما من قوانين علم التجويد .

(٩) المرجع السابق ص ٧١ – ٧٣ .

(١٠) شرح المفصل لابن يعيش : ج ١٠ ص ١٢٥ – ١٢٨ .

(١١) المرجع السابق ص ٧٠ .

زملائه فحققوا ما حكم الجاحظ عليه باستحالة الوقوع ، وذلك فى فصول تعليم اللغة العربية للأجانب والتى كانت موجودة فى مدينة ناصر للبعوث الاسلامية . فقد كان الطلاب القادمون من غرب أفريقيا ـ وبخاصة سيراليون ـ لا يستطيعون نطق الجيم ويعتاضون عنها فى نطقهم بالزاى (فينطقون اجمل ، ازمل) ـ وهى حالة شبيهة بتلك التى أشار اليها الجاحظ فى ملاحظته السابقة وقد أمكن بشىء من التدريب أن ينطق هؤلاء الطلاب صوت الجيم بنجاح . ولا يعود ما حققه الكاتب واخوانه الى موهبة خاصة بهم ، بل الى تطبيق ما تقضى به قوانين الدراسات الصوتية مما سنشير الى مثله ببعض تفصيل فيما يلى :

نستطيع اذن أن نقول انه يبدو ان العلماء السابقين لما وصلوا الى ان اللحن الصوتى يأتى فقط عن طريق الأجانب ، وان من يصيبه لا يمكن علاج نطقه ـ قرروا أن يعطوا القدر الأكبر من عنايتهم الى الوقاية منه . فراحوا ينصحون بالابتعاد عن مصدره وارسال الأطفال الى بيئة خالية من تأثيره وهى البادية . وأقل ما يمكن أن توصف به هذه الطريقة السلبية ـ والتى تختلف تماما عن الخطة الايجابية التى وضعوها فى مقاومة بقية أنواع اللحن ـ انها خطأ فى العلاج أدى اليه خطآن اساسيان فى التشخيص أولهما : قصور فى معرفة أحد أسباب « اللحن » اللغوى (وهو التطور الطبيعى) والثانى : قصور فى معرفة خصائص اللحن جميعها (وأهمها امكان علاج حالاتها لدى الأجانب وغيرهم ولو بدا الأمر مستحيل العلاج لأول وهلة) .

وباتباع هذه الطريقة السلبية ترك العلماء يد « التطور » مطلقة تنال من أصوات اللغة دون أن يكون هناك بناء « علمى ـ تعليمى » يخلق مستوى صوتيا من الصحة والخطأ يلتزمه السامع والمتكلم ويصوب به أحدهما الآخر ، تماما كما يحدث عندما يخطىء أحد المتكلمين بالفصحى فى شكلها الاعرابى مثلا . وقد استمر الأمر على ذلك الحال ، وتوارثته الأجيال الى وقتنا الحاضر ، وتم انعزال الدراسات الصوتية داخل قوقعة التجويد والقراءات ، وخلت كتبنا المدرسية ومناهجنا التعليمية من تدريب الصغار على النطق الصحيح للغة الفصحى . وكانت النتيجة لكل هذا عدوان أصوات العامية على أصوات الفصحى وحلول الكثير منها محلها : اما بشكل جزئى (كهمس أصوات القاف والطاء) واما بشكل كلى (كاستخدام صوتى الزاى والسين مكان صوتى الذال والثاء على الترتيب) ، وأصبح لدينا الآن ـ كما يشهد بذلك الواقع ـ صور صوتية عديدة للغة المشتركة تختلف باختلاف البلد الذى توجد فيه (١٢) .

واذا كان علينا أن نستفيد من نجاح السابقين ومن تجاربهم فلابد من جبر الصدع الناشىء عن اهمال الجانب الصوتى فى بناء اللغة العربية ، ويزيد الأمر أهمية فى هذا الوقت بالذات ان الشواهد تدل على ان هذه اللغة قد بدأت الآن رحلة جديدة تأخذها هذه المرة ـ لا خارج الجزيرة العربية فقط كما حدث فى رحلتها البكر ـ بل خارج حدودها الجديدة من الخليج الى المحيط . وهى رحلة ـ وان كانت لا تجد فيها من حماية الجيش العربى ما وجدته فى رحلتها الأولى ـ الا انها تلقى فيها مساعدة من نوع آخر . مساعدة تقوم على أهمية المركز الذى تحتله الأفكار العربية الحديثة ـ من اسلامية واقتصادية وسياسية ـ ورغبة الكثيرين من الأصدقاء وغيرهم على السواء فى التعرف على ما نقول باللغة التى نقوله بها . وعلى الرغم من وجود هذا القدر الكبير من التشابه بين الرحلتين فهناك اختلاف حيوى بين حالة اللغة الآن وحالتها عند ظهور الاسلام حينما كان لها صورة صوتية مشتركة . وهو خلاف لابد من ازالته ، ليس فقط لما فى هذا العمل من تثبيت لرابطة اللغة بين العرب على جميع الأسس التى ينبغى أن تكون لها ، بل أيضا لتدعيم هذه اللغة ومساعدتها فى بدء رحلتها الجديدة .

وكما فعل العلماء السابقون حينما استخدموا ثقافة عصرهم فى الحفاظ على وحدة هذه اللغة من جهة ، وعلى تذليلها لمن رحلت اليهم من جهة أخرى فنجحوا بذلك فى مساعدتها على اجتياز محنة المواجهة الأولى مع اللغات والثقافات الأجنبية عنها ـ علينا نحن أيضا أن نستخدم حصاد تجاربهم وثقافة عصرنا فى مساعدة الفصحى فى معركتها التى بدأت . وهذه مهمة ذات شقين : شق يحقق على الصعيد العربى ، وآخر يحقق على الصعيد الأجنبى .

فعلى الصعيد العربى : ينبغى أن يوقف تيار التطور الذى يتمثل فى طغيان أصوات العاميات ، وأن يجمع العرب على صورة صوتية واحدة للغة الفصحى . ووسيلتنا الى ذلك يمكن أن تلخص فى الآتى :

---

(١٢) كثيرا ما نقرأ فى دراسات المستشرقين للفصحى الآن اشارات الى مايسمونه « الفصحى المصرية والفصحى العراقية والفصحى الجزائرية .. الخ » ، وهو تفريق يقوم عادة على الاختلاف فى الصورة الصوتية وحدها كمسائل النبر ، وموسيقى الكلام .. الخ .

١ – حصر العاميات المختلفة ، ودراستها دراسة جدية تهدف الى الكشف عن خصائص اصواتها افرادا وتركيبا ، وبيان القواعد التى تقوم عليها . ولا نعنى بذلك تدريس العامية ، أو دراستها فى حد ذاتها ، بل نعنى دراستها على نفس المستوى الذى تدرس عليه الظواهر الاجتماعية او الأمراض التى يراد الحد من سطوتها وتوفير الحماية منها . ولن نستطيع ابدا أن نحمى لغتنا القومية من العاميات ما لم يكن عندنا فكرة علمية سليمة عن بناء الأخيرة وتراكيبها القاعدية والصوتية .

٢ – الاتفاق على صورةصوتية موحدة للفصحى . وسيكون للواقع وللأوصاف القديمة التى وصلت الينا دور فعال فى هذا الشأن .

٣ – جعل « أصوات الفصحى » المتفق عليها وعلم الأصوات مادة اجبارية فى جميع المعاهد والكليات التى تخرج مدرسين لمختلف المواد . على ان يراعى فى منهجها أن يهدف الى :

أ – اصلاح نطق الطلاب انفسهم ب – تدريبهم على كيفية اصلاح نطق الآخرين .

وهذا الجزء يعتمد اساسا على دراستنا لأصوات العاميات واستغلال صفاتها وملكاتها عند الأشخاص (كما سيأتى فيما بعد) ولذلك فسيكون مختلفا فى تفصيلاته – لا فى الأسس التى يقوم عليها – باختلاف القطر الذى يطبق فيه .

٤ – جعل درس الأصوات العربية بطريقة عملية جزءا من درس القواعد فىالمدارس المختلفة . وهذا الجزء بالطبع يأتى فى مرحلة متأخرة ، اى بعد ان نكون قد اعددنا المدرس القادر على معرفة خصائص الأصوات وعلى اصلاح صفاتها لدى التلاميذ .

ودور الجامعة العربية فى تحقيق هذه الخطة وتنسيقها أمر لا يمكن الاستغناء عنه . فهى الهيئة التى تقع المشكلة فى قلب اختصاصها ، وتمس وجودها فى الصميم .

وأما على الصعيد الأجنبى : فالجانب العلمى للمهمة يختلف فقط من ناحية الكم – لا الكيف – عن نظيره فيما ينبغى ان يحقق علىالصعيد العربى .

واهم فكرة يجب تنقية الجو منها باديء ذى بدء – سواء لدى المتكلمين بالعربية أو غيرهم – هى ما يشاع عن « استحالة تعلم الأجنبى لأصوات العربية بالذات » وبخاصة أصوات الضاد والطاء والغين والخاء والعين والحاء . . .الخ. فهذه الأصوات على صعوبتها يمكن أن تعلم للأجنبى اذا نظر اليها على انها مجرد مهارات عضلية يتعلمها المرء اما على اعتبارها مجرد تطوير للمهارات التى يحسنها فعلا

واما على اعتبارها مهارات جديدة تماما على بنائه العضلى . ولكيلا ينقلب الحديث هنا الى مجرد تعميمات نطبق هذا المبدأ على ميدان الأصوات كالآتى :

١ – أول ما يجب معرفته فى هذا السبيل هو « المهارات العضلية » التى تستطيع اعضاء النطق لدى الأجنبى القيام بها . وبعبارة أخرى ينبغى حصر الأصوات الموجودة فى لغة الأجنبى وتحليلها ومعرفة صفاتها . (ويترتب على ذلك انه يجب تعليم الأجانب فى مجموعات يتفق افرادها ما أمكن من ناحية خصائص لغاتهم الصوتية) .

٢ – معرفة المهارات العضلية التى يتطلبها النطق بالعربية الفصحى .

٣ – المقارنة بين قائمتى المهارات العضلية الواردة فى نطق الأجنبى وفى النطقالعربى وتبويبها الى الأنواع الآتية : أ – مهارات متحدة فى القائمتين كصوت الباء فىالعربية وصوت فى الانجليزية (ب) – مهارات تتحقق فى صوت عربى واحد ولكن توجد موزعة فى أكثر من صوت فى القائمة الأجنبية . مثالها «ض» فى العربية ومقابلها أصوات D ‘ L فى الانجليزية . (جـ) – مهارات موجودة بصورة اقوى فى العربية . مثالها صوت هـ فى العربية ، H فى الانجليزية . (د) مهارات موجودة فى العربية وغير موجودة اطلاقا فى الانجليزية . ومثالها صوت ع .

٤ – اتباع الطرق المناسبة فى تعليم كل نوع من هذه الأنواع (١٣) بما يتفق وطبيعة هذه الأصوات واستعداد الطالب نفسه ومقدار حرصه على التعليم .

هذه هى الخطوط العريضة لما يجب عمله فى ميدان الأصوات العربية . وهى تقوم على أن وظيفة العلم هى دراسة الظواهر من طبيعية واجتماعية للوقوف على عوامل الفناء وعوامل البقاء فيها تمهيدا لتقوية نوع من هذه العوامل واضعاف النوع الآخر طبقا لاحتياجات المجتمع .

واصوات الفصحى الآن فى مفترق الطرق ، تتجاذبها عوامل الوحدة وعوامل التفرق ، ولا معنى لوقوفنا مكتوفى الأيدى فى معركة نستطيع – لو اردنا – ان نقرر مصيرها بما يتفق واهمية التراث الحضارى الذى يجمعنا .

---

(١٣) نرجو أن تسنح الفرصة مستقبلا لتخصيص مقال كامل للحديث بالتفصيل عن هذه الناحية .

النّحو العربيّ
بين النظر والتطبيق

بقلم محمد عيد

ليسَ هناك علم من العلوم العربية قد نال من العناية الفائقة، والمجهود العقلى العميق ما ناله النحو العربى قديما وحديثا. فمنذ القرن الأول الهجرى الذى بدات فيه هذه الدراسة، الى أن ألف أول أثر علمى باق بين أيدينا الى اليوم، وهو « كتاب سيبويه » والمجهودات العلمية تتتابع فى هذا العلم حتى العصر الذى نعيش فيه. فتضخمت مكتبة النحو العربى وما يحيط به من دراسات تضخما تجاوز الحد المعقول، وخرجت هذه الدراسة عن الفرض الذى من أجله يدرس النحو ويتعلم، وهو خدمة اللغة فى مستوياتها المختلفة قولا وكتابة وقراءة.

هذه ثروة من تراثنا لا شك فى ذلك، ومجهود يستحق التقدير لا شك فى ذلك أيضا.

ولكن هذه العناية التى زادت عن حدها قد انقلبت الى ضدها ـ كما يقال ـ فتعقدت مسائل النحو، وضلت الحقائق الأصيلة فيه بين الخليط الهائل الذى امتلأت به كتبه، نتيجة التأثر بأفكار فلسفية ومنطقية دخيلة، تسربت اليه فى وقت مبكر، ثم نمت دراستها فيه واستفحلت. وكانت بطبيعتها صالحة للتشقيق والتفريع واصطراع الآراء حولها، ووجد الباحثون من النحاة انفسهم أمام هذه الأفكار الفلسفية الصالحة ـ كما قلت ـ للأخذ والرد والمناقشة والجدل، فخاضوا فيها برفق أولا ... ثم استخدمت البراعة الذهنية الفائقة بعد ذلك فيما يمكن أن نسميه « فلسفة النحو » لا فى النحو نفسه. وجعلت أبحاث النحو ودراساته تبعد شيئا فشيئا عن الفرض الذى تخدمه، أو بعبارة أخرى: حدث الفراق بين النحو واللغة، فدارت الدراسات النحوية ـ وبخاصة لدى المتأخرين ـ حول نفسها، تستقى مادتها من الذهن لا من اللغة، ومن الفلسفة العقلية لا من الواقع، ومن الشواهد المتجمدة لا من بحوث ميدانية قوامها الاستقراء والمتابعة، ومن المصادرات التى تعتمد على القياس والافتراضات لاخضاع الأمثلة طوعا أو كرها، لا من ملاحظة الناطقين باللغة واستعمالهم لها ومتابعة ذلك بالدراسات المتطورة.

وهكذا جاءت تركتنا النحوية محملة بعبء ثقيل من أفكار غريبة عن الدراسة اللغوية الصافية، ومنتفخة بدقائق الفروع والمجادلات التى هى أثر من آثار اعمال الذهن واجهاده.

وكان لذلك رد فعل عنيف لدى الناطقين والمتعلمين على السواء، ظهرت آثاره قديما فى مظهرين:

أولهما: تلك الخصومات والمشاحنات التى كانت تقوم كثيرا بين الناطقين الفصحاء وبين علماء النحو وسدنته. وهى فى نفس الوقت مظهر لاحساس عام من الناطقين بشدة وطأة القواعد عليهم وضيقهم بما يشهره النحاة فى وجوههم من اقيسة صارمة

ولو قمنا بعمل بحث ميدانى اجتماعى عن نظرة المتكلمين بالعربية الى النحو ودراسته ، بأن لاحظنا ما يحدث عمليا بين الطبقات الاجتماعية المختلفة سواء بين السواد الأعظم من الشعب من فلاحين وعمال ، او بين الطبقات التى هيئت لها فرص الثقافة والتعلم سواء فى العلوم التجريبية او الانسانية ، فاننا من خلال هذا الواقع وملاحظته سنجد ما يلى :

أولا : ان الغالبية الكبرى التى نطلق عليها طبقة « العوام » تحس احساسا غامضا مبهما ان استخدام الفصحى فى مخاطباتهم امر غير مألوف لهم ، بل هو سخرية منهم ، ولذلك يقابلونه فى مواقف المخاطبات العادية هذه بالتحدى والعداء ، وهم كذلك يربطون بين هذا الاغرا بـعليهم بالفصحى وبين النحو — لا أدرى لماذا ؟؟ — فاذا جانب انسان التوفيق فى مراعاة المستوى الاجتماعى فى مخاطبة العامة ، فتحدث بكلمة عربية فصحى فى أحد المواقف العادية لحياتهم ، كان عرضة للسخرية المرة واصطدم بالرد الشائع الذى نسمعه منهم كثيرا وهو (يتكلم بالنحوى — بفتح الحاء) وربما صاحبت هذه العبارة حركات باليد واللسان ، وربما ترتب عليها الاخفاق فى قضاء حاجته التى كان من أجلها الكلام .

والاحساس بغرابة الفصحى فى المخاطبات العادية أمر معترف به لغويا ، ذلك أن اللغة ظاهرة اجتماعية تختلف باختلاف المستوى الاجتماعى الذى ترد فيه ، فاذا حدث الاعراب بالفصحى فى الموقف العادى على الرجل العامى ، فليس من الغرابة أن يكون رد الفعل لديه هو التحدى والسخرية ، لكن الغريب حقا هو هذا الارتباط فى احساس العامة بين النحو وبين موقف السخرية والرفض !!

وعلى كل حال فليس هذا مما يدخل فى الاعتبار فيما نحن بصدد رصده من رد الفعل تجاه النحو . اذ النحو من خصائص الفصحى التى تستعمل فى مستويات فكرية أرقى من الحياة العادية .

ثانيا : المثقفون فى العلوم التجريبية من طب وهندسة وكيمياء وغيرها ، وهؤلاء قد مروا حقا فى دراستهم العامة باللغة العربية ونحوها وصرفها ، ولكن رصيدهم منهما رصيد ضعيف للغاية ، أو بعبارة أدق : رصيدهم من استعمالهما أضعف من الوصول الى مستوى التمكن والافهام ، فيندر أن تجد بينهم من يجيد استعمال العربية فى التعبير عن أفكاره ، ويندر أكثر من ذلك أن تجد من يستعملها ينطقها بصورة صحيحة — أدنى درجات الصحة — على حسب مقتضيات النحو وقواعد العربية . واحساسهم بهذا الضعف يغطيه ويبرره عندهم اللامبالاة أحيانا ، والسخرية أحيانا أخرى من النحو ودراسته ودارسيه، بل ومن الفصحى عموما. وليس من النادر أن تسمع فى كلامهم الخلط المتعمد بين لغة عامية ركيكة والفاظ وتعبيرات أجنبية غريبة للتعبير عن أفكارهم ، سواء فى مواقف الحياة العادية أو فى الاستعمال العلمى الجاد ، وقد عاونتهم طبيعة دراستهم التى تعتمد — فى الغالب على اللغات الأجنبية فى الدراسة والتأليف — على اتخاذ هذا الموقف الذى قوامه اللامبالاة والسخرية والضعف .

ثالثا : المثقفون ثقافة انسانية تخصصوا فيها ، كالقانون أو الاقتصاد أو التاريخ أو اللغة أو الأدب . وفى هذا المستوى نجد منهم كثيرين مخلصين حقا فى رغبتهم العميقة لاجادة اللغة العربية ونحوها وصرفها لاستخدامها فى التأليف والقراءة والحديث الجاد بمستوياته المختلفة ، ولكن من الحق أيضا أنهم لا يستطيعون ذلك ، ومن الحق كذلك أن المسئولية عن اخفاق هذه الرغبة تعود فى جزء كبير منها الى أسباب اجتماعية وسياسية مرت بها حياتنا العربية فى العصر الحديث — لا مجال هنا لذكرها — ولكن السبب الأكبر للاخفاق فى استخدام اللغة على مقتضيات النحو وأساليب الفصحى — وبخاصة بعد أن زالت الآن الأسباب الاجتماعية والسياسية — يعود الى ما نحن بصدده من فشل التقريب بين تركتنا النحوية كما ورثناها ، وبين تلقى الدارسين لها بصورة سهلة ميسرة .

وليس من النادر أن تجد فى هذا المستوى مظاهر من اللحن والخطأ تدعو الى الغرابة والدهشة . ليس من النادر مثلا أن تجد ممن يتعاطون الانتاج الأدبى — بكثرة هذه الايام — من لا يستطيع أن يقيم عبارة واحدة كاملة صحيحة مضبوطة فى حديثه ، وليس من النادر كذلك أن تجد بين من يدرسون اللغة أنفسهم من يخطئون أخطاء بدائية ناشزة ، وتصطدم آذاننا دائما بأخطاء المذيعين والصحفيين الذين يقفون من الناس موقفا عاما فى المحادثة والكتابة بحيث يشك الانسان فى أنهم قد أفادوا — حتى مجرد المبادىء العامة — فى دراستهم اللغوية التى هيأتهم لهذا الموقف الخطير .

●

ومن هذه النظرة الشاملة — المعتمدة على الاستقراء والواقع — للمستويات المتعددة للانسان العربى المعاصر يمكن أن نقول بصورة عامة : ان الشعور العام بين الناطقين بالعربية — من مستوى العوام حتى مستوى التخصص فى اللغة والأدب — تجاه قضية النحو وقواعد العربية فى الاستعمال والفهم هو ما سبق أن قررناه فى بداية هذه الفقرة ، وهو الاحساس بالصعوبة الذى يؤدى بالبعض الى النفور

والرفض والسخرية ، لا من النحو وحده ، بل من اللغة الفصحى واستخدامها كلية حتى لدى المثقفين الذين يقـــدم لهم ضعفهم بل عجزهم عن اجادة الفصحى ونحوها مسوغا لتطرفهم ورفضهم .

— ٣ —

وعلى ذلك قامت حركات علميـــة متعددة فى العصر الحاضر تتناول هذه المشكلة الموجودة فعـــلا معتمدة على ما فى هذا الواقع نفسه لتقدم حلولا لمشكلة النحو ودراسة العربية واختلفت هذه الحلول اختلافا حادا يتردد بين اقصى اليمين واقصى اليسار ، اذ كان بعضهم متطرفا رفض المشكلة ، ودعـــا الى اطراح النحو وقواعد العربية ، وكان البعض الآخر أقل منهم تطرفا ، واذكى طريقة ، اذ دعا الى ما دعا اليه الفريق الأول ، ولكنه حاول ان يتلمس لذلك سندا علميا يدعم به رايه ، وفريق ثالث معظمه من المدرسيين المعتدلين الذين لم يناقشوا وجود المشكلة اساسا ، بل اتجهوا مباشرة الى تقـديم مجهوداتهم الشخصية وما وسعته طاقتهم لتيسير ما هو عسير من مشاكل النحو العربى ، وتقديمه للدراسين فى صورة مصغرة مبسطة ، فوفقوا فى كثير من الأحيان وان كان قد جانبهم التوفيق أحيانا . ولا علينا من فريق آخر محافظ ، لا يخطر بباله حتى مجـــرد التفكير فى التغيير ، اذ هو سلفى منعزل عن الحياة وحيويتها .

وسأتناول هذه الحركات الثلاث الأول ـ بتركيز شـــديد تسمح به طبيعة هـــذا البحث ـ بنفس المستوى الذى دعت اليه واعتمدت عليه مغالطة أو علما أو تربية ، ثم مناقشتها على أساس موضوعى قدر الطاقة ، لنتقدم بعد ذلك بما نعتقد انه الحق فى هذه القضية المزمنة الخطيرة .

لقد ركز أصحاب الاتجاه الأول على اقتلاع جذور المشكلة كليـــة وهدم اساسها ، واتخذوا لأنفسهم « منهج الرفض المطلق » فلم يروا الفـــاء الاعراب والنحو من اللغة العربية فقط ، بل راوا الغاء اللغة الفصحى عامة ، وقـــد تشكلت دعواتهم باشكال متعددة ، مرة بالدعـــوة الى العامية واحلالها محل الفصحى ، ومرة اخرى بالدعوة الى ابدال الخط العربى باللاتينى ليريحنا ذلك من مشاكل الضبط وقواعد الاعراب ، واتخـــذوا لدعواتهم مسوغات ووسائل للتأثير بها فى نفوس الناس واذاعتها بينهم ، مثل أن اللغة العربية غير علمية ، وهى السبب فى تعطيل قوة الاختراع عند العرب ، وانهـــا صعبة التعلم وبخاصة فى نحوها وصرفها اللذين قد يقضى الانسان عمره فيهما ثم لا يجيدهما بعد ذلك ، وان من الاضطراب والتمزق ان يكون للانســـان لغتان احداهما للكتابة والأخرى للكلام . الى غير ذلك من أسباب ومبررات .

ومن الحق أن نقرر أولا ان معتمد هذه الدعوات المتطرفة تركز بصورة اساسية على النحو العـربى ومشاكله واضطرابه ، ذاك الذى يتعب الناس فى تعلمه وفيما يترتب عليه من ضبط أو لحن .

●

ومن الحق الثابت تاريخيا كذلك ان مخترعى هذا الاتجاه ومؤلفيه فى الأصل ـ وان لم تحفظ لهـــم حقوق الطبع بعـد ذلك ـ لم يكونوا عربا ولا لغتهم الأصلية هى العـــربية ، بل كانوا من المستشرقين والأجانب ، وتابعهم فى ذلك ـ ربما بنفس الألفاظ والطريقة ـ بعض المصريين والعرب الذين لا شأن لنا هنا بدوافعهم وأهدافهم ، لأننـــا نقرر الحقيقة التاريخية والعلمية فقط . فى ســنة ١٨٩٢ القى مهندس الرى الانجليزى « ولكوكس » محاضرة فى نادى الأزبكية بالقاهرة نشرت بعد ذلك فى احـدى المجلات القاهرية تحت عنوان « لماذا لم توجد قوة الاختـــراع لدى المصريين » ؟ وارجع ذلك لاستعمال اللســان العربى المعرب ، وجـــاء فى كلامه « ان الحجاب بين المصريين وبين ترقى معلوماتهم انما هو تسطير افكارهم بهـذا اللســان المهجور الخفى الصعب » .

وفى سنة ١٩٠١ دعا « مستر ويلمور » احـد قضاة الاستئناف بالقاهرة الى ترك الفصحى وابدالها بالعامية ، واقترح ان تكون هذه العامية هى لهجة القاهرة ، على ان تكون كتابتها بالحروف اللاتينية ، ويعمم تعليمها فى المدارس ، وكان مما قاله « ان لغة الكتب لا يتقن النطق بها الا المتعلمون جيدا ولا معنى لان توجد لغة للكتابة وأخرى للكلام » .

وفى سنة ١٩٠٠ ألف المبشر « زويمر » كتابه : « جزيرة العرب مهد الاســلام » وقال عن اللغة العربية : « انها لغة شائعة . ولكنها شاقة جدا على الراغب فى تعلمها ســـواء فى اصواتها أو صيغ كلماتها أو نحوها » .

وفى سنة ١٩٢٩ القى المستشرق ماسينيون فى باريس محاضرة عامة حضرها عدد كبير من ابنـاء المغرب العربى ، هاجم فيها اللغة العــربية ، ودعا الى كتابتها بالحروف اللاتينية ، ورأى ذلك حــلا لمشكلة الحروف وحركاتها ، واهمها الشكل الاعرابى بالطبع .

تلك نظرة عامة وسريعة الى أصحاب « اتجاه الرفض المطلق » من بعض المستشرقين والأجـانب تجاه النحو خاصة ، والعربية عامة .

وقد تابعهم فى هـــذا الاتجاه وافكاره بعض المصريين والعرب .

ومن هؤلاء «لطفى السيد» الذى دعا الى تمصير اللغة العربية ، تحت ستار اللقاء بين الفصحى ولغة

الناس ، وقال عن النحو والشكل الاعرابى « ليس الشكل من أصول اللغة بل هو أمر عرض لها بعد الاسلام خشية عليها من التحريف فى أواخر الكلمات ومبانيها .

وفى هذه الأيام أهمل الشكل بالمرة .. واننا لسنا فى حاجة الى ابطال الشكل وتغييره ، فقد الغى من تلقاء نفسه » .

واسهم « قاسم امين » فى هذه القضية كذلك ، ورأى انه لا قيمة للنحو ولا للاعراب ، ويجب ان يطرح ذلك طرحا من لغتنا ، فأواخر الكلمات ساكنة لا تتحرك بأى عامل من العوامل . وبهذه الطريقة – وهى طريقة جميع اللغات الافرنجية واللغة التركية ايضا – يمكن حذف قواعد الرفع والنصب والجزم والحال والاستقبال وغير ذلك .

ولست فى حاجة بعد ذلك الى متابعة هؤلاء التابعين للأجانب والمستشرقين ، فالأستاذ « سلامة موسى » أشهر من أن ننبه على آرائه ، وأمامى كتاب « البلاغة العصرية واللغة العربية » وهو يردد نفس الأفكار السابقة عن « لغة الكتابة ولغة الكلام » و « انتشار اللغة لسهولة نحوها والعكس بالعكس » و «الخط اللاتينى» و «الوقف بالسكون» و «الغاء النحو والاعراب » ويقول « الاعراب فى لغتنا هو لعبة بهلوانية للذهن واللسان ، ولن نحسنها الا بعد أن نربى عضلات قوية تستجيب بسرعة ، وكثيرا ما رأينا القارىء الذى يلتفت الى الاعراب لا يفهم ما يقرأ وهو يعرب » .

وسار فى نفس الاتجاه « الخورى مارون غصن » فى بيروت ، وكثير من أساتذة الجامعة الأمريكية فيها الآن ، حيث تطالعنا كتبهم بالأسماء الآتية « قواعد النحو على اساس جديد » و « نحو عربية ميسرة » و « دواسات فى النحو » و « اللهجات وأسلوب دراستها » الى غير ذلك .

نفس الأفكار ، نفس الاتجاه ، نفس الدعاوى ، كانما قد تواصوا عليها ، وان اختلف اسلوب العرض ، وتغيرت الوجوه والأسماء ، فأنيس فريحة فى كتابه « نحو عربية ميسرة » يقول نصا «الاعراب لا يتلاءم مع الحضارة ، نحن نرى فى الاعراب – الاعراب فى أية لغة – بقية من البداوة » و « لو ان للاعراب ضرورة للفهم والافهام ، لبقى ولحافظت عليه جميع اللغات التى كانت معربة ولكن لكونه غير ضرورى سقط ، وقد جارت العربية المحكية سائر اللغات فى مجراها الطبيعى فهى من هذه الناحية حية نامية متطورة » .. « ان الاعراب عقبة فى سبيل التفكير ، ذلك مما لا نشك فيه ، وسقوطه من اللهجة المحكية – التى يقترح شيوعها – خطوة هامة نحو تيسير الكلام حتى يصبح الكلام طريقا ممهدا للفكر » ومعظم الدعاوى التى ترددت فيما سبق نجدها فى هذا الكتاب ..

ولعلى فى هذا العرض السابق لم أخرج عن قضية موضوعى فى النحو وتيسيره ، حيث اتخذت صعوبته وصعوبة تعلمه منطلقا لهذه الأفكار المتطرفة بمظاهرها المختلفة .

والملاحظة العامة التى اعلق بها على هذا الاتجاه هى أن دعاواهم فى معظمها لا تعتمد على أسس علمية ذات قيمة ، بل هى فى معظمها أفكار سطحية انفعالية تتملق الجماهير وتستفزها بكلام براق خادع ، لا وزن له فى مجال الحقيقة والعلم ، مع صرف النظر عن النيات الأخرى التى تكمن وراء كل ذلك – مما لا مجال هنا لذكره – حتى ان رد الفعل امام هذه الدعاوى لدى الجماهير العربية المثقفة كان ايضا « الرفض المطلق » كما اعتمدت هى ايضا على « الرفض المطلق » .

●

أما الاتجاه الثانى فانه – كما سبق – يتفق مع هذا السابق تجاه قضية النحو . ولكنه حاول أن يستند الى اسس علمية يبرر بها فكرته ، ليبدو فى مظهر الاعتدال والتعقل . وأبرز من يعتد بهم هنا هو « الدكتور ابراهيم أنيس » وسأعرض فكرته باختصار شديد . فى كتابه « من أسرار اللغة » تناول الموضوع تناولا هادئا طويل النفس ، جميل العرض فتحدث عن نشأة الاعراب وتمكنه ثم تعقده، وأن النحاة قد اتخذوه أو بالأصح اخترعوه ونسقوه ، وجعلوه حصنا لهم يؤكدون من خلفه لأنفسهم القوة المادية والمعنوية «فقد صارت قواعده معقدة شديدة التعقيد ، وقد تفنى الأعمار دون الاحاطة بها او السيطرة عليها ، وصرنا الآن ننفر منها لما اشتملت عليه من تعسف وتكلف ، بغض الى الكثيرين دراسة اللغة فى العصر الحديث » .

هذه الظاهرة ونظامها وقوانيها مخترعة اذن ومزيفة ، وكل هذا التراث المتضخم منها قام على اساس غير موضوعى وغير علمى ، وليس من شانى فيما انا بصدده ان اخوض فى تفصيلات رايه ومناقشته – فلذلك موقف آخر – ولكنى ألخص اتجاهه العام فقط فى عبارات قصيرة :

الأصل فى الكلمات ان تشكل اواخرها بالسكون، وهكذا كان الأمر فى القديم ، وتحريك أواخر الكلمات يكون لأسباب صوتية يدعو اليها وصل الكلام ، والذى يحدد الحركة قانونان صوتيان هما :

١ – ايثار بعض الحروف لحركة معينة كحروف الحلق مثلا التى تؤثر الفتحة .

٢ – الميل الى تجانس الحركات فى الكتلة الكلامية الواحدة .

وباختصار : ان الاعراب عمل آلى يدعو اليه النطق المتصل فى الكلام دون أن يكون وراءه معنى أو نظام مما جهد النحاة فى تتبعه والتأليف فيه حتى دخلوا متاهات ضل فيها السالكون .

هذا الافتراض العلمى على الرغم مما فيه من جراة يقف قاصرا امام اهم ما لدينا من نصوص لغوية هى : الشعر والقرآن ، واذا استطاع ان يفسر بعض الظواهر الجزئية ، فان الكثرة العامة من هذه النصوص تخالفه تماما وتجافيه ، وهو بصفتيه هاتين – الافتراض المجرد والقصور عن تفسير النصوص العربية الصحيحة – لا يحل لنا المشكلة الموجودة فعلا ، وهكذا كان مصيره على الرغم مما أثاره ويثيره من مناقشات وجدل .

ما علينا !! فلنتناول الاتجاه التعليمى الثالث ، هذا الاتجاه المتواضع الذى لم يناقش اساس المشكلة ، بل اتجه الى تقديم ما يراه من تيسير على المتعلمين وقد بدأ مع بدايةهذا القرن ، وانتهى بقصة «المسند والمسند اليه» ... ويالها من قصة .

– ٤ –

بدات فصول هذه القصة فى السنوات الأولى من هذا القرن ، اذ الف حفنى ناصف ومعه آخرون كتبا لتعليم قواعد العربية تحت عنوانى « الدروس النحوية » للمدارس الابتدائية و « قواعد اللغة العربية » للمدارس الثانوية ، وقد اتبع فى ذلك طريقة الاجمال اولا ، ثم التفصيل ، ثم التفصيل الأكثر ، على معنى أن الذى يعلم اولا هو نفسه الذى يعلم ثانيا مع اتساع فيه ، وهكذا بالتدرج . والمادة العلمية الموجودة فى هذه الكتب تتناول الفعل وأحكامه ، ثم الاسم ، ثم الجملة بنفس الروح النحوية القديمة ، بل ان الطريقة نفسها قديمة ، اتبعها ابن هشام النحوى المصرى فى القرن السابع، وأشار اليها ابن خلدون بقوله : ووصل الينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر منسوب الى جمال الدين بن هشام من علمائها ، استوفى فيه احكام الاعراب مجملة ومفصلة ، وتكلم على الحروف والمفردات والجمل ، وحذف ما فى الصناعة من المتكرر فى أكثر أبوابها وسماه « المغنى » فى الاعراب .

لم يكن فى هذا التيسير تغيير فى المادة ولا فى الطريقة اذن ، وقد استمر معمولا به حتى اواخر العقد الثالث من هذا القرن ، حين الف « على الجارم » كتابه الشهير «النحو الواضح» للمدارس الابتدائية والثانوية ، واهم ما يميز هذا الكتاب أمران :

أ – أنه غير فى الطريقة ، اذ اتبع استقراء الأمثلة للخروج منها الى الملاحظة العامة أو القاعدة .

ب – أنه لم يلتزم فيما يستقرا من هذه الأمثلة شواهد النحو القديمة البعيدة عن روح العصر .

بل استخدم من الأمثلة النثرية والشعر ما انتقاه بروح الأديب الشاعر . لجذب الانتباه ومخالطة الوجدان ، ليسهل على الدارس الوصول منها الى القاعدة .

وعلى الرغم من ان هذا الكتاب قد الف منذ زمن بعيد ، وانتهى العمل به فى المدارس بعد سنوات من تأليفه ، فانه لا يزال – لهاتين الصفتين السابقتين – وسيلة ناجحة لتعليم النحو ، وتتوالى طبعاته حتى اليوم .

الى هنا ، ولم يحدث تيسير فى المادة العلمية ، فهى نفسها مادة النحو القديم بمصطلحاته وافكاره ولكن منذ سنة ١٩٣٥ بدا التيسير فى المادة نفسها دون المصطلحات . وبدا الأمر هينا أولا باعتماد اصحابه على الارتباط – ولو بادنى الأسباب – فى تيسيرهم بآراء النحاة الأقدمين ، على أن يكون فى ذلك نوع من التخفيف على الدارس وفهمه ، ومن امثلة ذلك :

* فى الآية القرآنية : «وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الاسود من الفجر» يرى جمهور النحاة أن الفعل (يتبين) منصوب (بأن) مضمرة بين (حتى) والفعل ، ومن رأى بعض النحاة أنه منصوب بعد حتى بلا اضمار ، وهذا ما أخذ به الميسرون .

* المستثنى التام المنفى فى مثل قول القرآن (ما فعلوه الا قليل منهم) فيه وجهان لدى النحاة النصب على الاستثناء والرفع على الاتباع ، وقد اختار الميسرون وجها واحدا منهما . وهكذا فى كثير من مسائل النحو .

فهذا تيسير فى المادة فى حدود الصلة بالآراء القديمة ، أو بعبارة اخرى : هو تيسير حذر اعتمد على اختيار الأسهل فيما هو موجود فى الكتب النحوية ، ولكنه لم يغير شيئا من المصطلحات التقليدية المتعارف عليها .

●

وهكذا ظل الأمر حتى سنة ١٩٥٨ ان لم يخطئنى التاريخ ، وفى هذه الأثناء ألف الأستاذ « ابراهيم مصطفى » كتابه « احياء النحو » الذى اتخذ اساسا للطريقة المشهورة « المسند والمسند اليه » والتى لم تقتصر على التغيير فى المادة فقط ، بل غيرت ايضا المصطلحات ، وطبقت فكرتها فى كتاب آخر هو

« تحرير النحو العربى » وعلى أساسها كانت الكتب التعليمية المدرسية .

وسأقدم فكرة موجزة عن هـذه الطريقة التى لا يزال دويها يرن فى آذاننا ، لنخلص بعد ذلك الى الرأى فى هذا الموضوع .

لقد قامت هـذه الطريقة على اسس اجتهادية أهمها :

* ان حركات الاعراب فى الكلام العربى ليست أثرا لعامل من العوامل ، بل هى دوال على معان فى تأليف الجمل وربط الكلام .

* ويتلخص هذا ببساطة فى أمور ثلاثة هى :

الضمة علم الاسناد ، ودليل على ان الكلمة المرفوعة يراد أن يتحدث عنها ، ويسند اليها الكسرة علم الاضافة واشارة الى ارتباط الكلمة بما قبلها .

اما الفتحة فليست علامة اعراب ولا دلالة على شىء ، بل هى الحركة الخفيفة المستحبة عند العرب .

والى هنا قد يبدو الأمر سهلا وهينا ، ومقبولا أيضا ، ولكن صاحب الرأى حين اراد تطبيق فكرته على مسائل النحو العربى كلها اضطر الى جهد عقلى كبير يحتاج لجهد مماثل فى الفهم والتطبيق .

فقد اراد ان يجمع تحت اسم « المسند اليه » كل شىء اسند اليه مثل المبتدأ والفاعل ونائب الفاعل واسم (ان) والمنادى وغيرها ، واضطر تبعا لذلك أن يتلمس لذلك وسائل تعسف فيها أحيانا ـ وبخاصة لما ليس شكله الضم فى اللغة ـ وبدت غريبة على الطريقة التقليدية المألوفة . ومن أمثلة ذلك (اسم ان) والمنادى وغيرهما فى كلام طويل ليس هنا مجال ذكره . وكذلك فعل فى اصطلاحه (المسند) الذى جمع حوله الفعل والصفة والخبر ، واضطره اطراد قاعدته وافتراضه أن « المسند » يجب أن يكون بطريقة واحدة الى تلمس وسائل اعتبرت ايضاغريبة ، وذلك كاهمال الضمير المستتر، وجعل الضمائر فى الفعل اذا تأخر عن الفاعل علامات فقط للنوع والعدد ، وليست أسماء كما درج على ذلك النحو التقليدى .

وفى اعتباره الكسرة علامة للاضافة ، غير أيضا مصطلحات مألوفة ، كتسمية حروف الجر حروف الاضافة وان الاضافة تكون للأفعال كما تكون للأسماء .

كذلك سمى المنصوبات كلها « مكملات » .

وليس من شك فى أن الأستاذ « ابراهيم مصطفى » كان شريف القصد ، نبيل الهدف ، وان عمله هذا يدل على حيوية عقله واجتهاده ، كما يدل أيضا على طول النظر فى النحو سنين طويلة حتى أطلق عليه الأستاذ العقاد لقب « سيبويه العصر » .

وبعد أن تهيأت له فكرته وفلسفته الخاصة قام بمجهود كبير لتعترف بذلك الهيئات المتخصصة ، وتطبقه فى التعليم ، وفعـلا نال اعتراف المجمع اللغوى بذلك فى سنة ١٩٤٥ ، ثم أجهزة وزارة التربية والتعليم بعد ذلك سنة ١٩٥٧ وما بعدها ، وتحقق له ما أراد ، فطبقت طريقته فى المدارس الاعدادية والثانوية ، ولكن لم يقدر لها البقاء أكثر من ثلاث سنوات ، فصادفتها صعوبات وعقبات تربوية وقومية أكثر منها علمية .

ذلك أن هذه الطريقة فى محاولتها جمع مسائل النحو المتعددة فى اطار فكرتين أو ثلاث قد اصطدمت بمستوى الطلاب القاصر الذى يعجز عن التجميع والتجريد ، والاحاطة بالمسائل المتعددة فى اطار فكرة واحدة .

كما أن تغيير مصطلحات النحو المتعارف عليها من فاعل ونائب فاعل ومبتدأ وخبر وغيرها الى مصطلحات اخرى كالمسند اليه والمسند والمكملات وحروف الاضافة اعتبر امرا خطيرا هز الوجدان العربى بصورة رهيبة ـ وبخاصة أنها طبقت فى عهد الوحدة ـ ناهيك بسدنة التراث القديم الذين تنادوا من أرجاء الوطن العربى ، وتواصوا فى المؤتمر الذى انعقد بالقاهرة سنة ١٩٦١ على اسقاط جهد الرجل وطريقته ، فسقطت ، وعاد الأمر الى ما كان عليه من قبل ذلك .

ـ ٥ ـ

والآن ما هو الحل ؟!

ان قضيتى الفكرية التى التزمتها فى كل الفقرات السابقة لهذا الموضوع هى : التصدع القائم بين القواعد واللغة ، أو بعبارة أخرى بين علم النحو واستخدامه عمليا فى النطق والتعلم ، وقد تابعت مظاهر هذه القضية فى تراثنا ، وفى المستويات الاجتماعية المتعددة للناطقين بالعربية ثم فى موقف الدارسين منها على اختلاف مللهم ونحلهم .

ولكن المشكلة لا تزال قائمة !!.. فما هو الحل ؟؟

فى رأيى ان الحل فى وقتنا الحاضر ذو شقين :

الأول يتعلق بالظروف القاسية التى أساءت ولا زالت تسىء الى « نحو » اللغة العربية خاصة دون

لغات العالم ، فان هذه الظروف قد كونت طبقة عازلة سميكة ومدمرة تحول بين رغبة الفهم وبين الفهم نفسه ، واقامت حاجزا معوقا يمنع الالتقاء المتسامح بين طرفى القضية من الدارسين ومادة الدراسة .

اما الثانى فيتعلق بمادة الدراسة نفسها ، وذلك لتصفيتها مما خالطها من افكار دخيلةعليها والاعتماد فى ذلك على الروح العلمية التى يمكن ان نفيدها من علم اللغة الحديث للقيام بهذه التصفية على اساس منهجى محدد ، ثم الطريقة العلمية التى نقدمها بها الى الدارسين فى مستوياتهم المختلفة دون ان يصطدم ذلك بامتداد تراثنا الثقافى عبر الزمن ، ولا بامتداد وحدة فكرنا القومى المعاصر كله عبر المكان .

ومن الناحية الأولى ينبغى أن تطرد من حياتنا تماما تلك الدعوات الانهزامية التى ترتفع بين الحين والحين لتشكك فى لغتنا وترميها بالتحجر والجمود ، وتصف نحوها بالصعوبة والتعقيد والتى يقوم بها احيانا — مع الأسف — بعض من يستمع الناس لهم اذ وضعتهم الظروف منهم موضع الرواد والموجهين فهم — وان لم يحققوا بدعواتهم تلك ما يهدفون اليه منها — يسيئون الى قضية اللغة ودراستها اكبر الاساءة ، اذ يضعون امام اذهان الناس ووجداناتهم وجها آخر مظلما لقضية اللغوية مع ان القضية ينبغى الا يكون لها سوى وجه الحرص على هذه الاداة الاجتماعية الرائعة نعبر بها عن ثقافتنا وتفكيرنا وشعورنا ، تلك النغمات النشاز التى من هدفها التشويش لا الإصلاح ، والتعويق لا التقدم نغمات ينبغى لها ان تصمت ، فهى غير عملية من ناحية ، وهى من ناحية اخرى لا تقدم للأمة غير التشكيك والتشاؤم والبلبلة الفكرية ، فمن الذى يتصور ان الامة العربية ستكتب باللاتينية او تصطنع العامية ؟؟ اننا يمكن أن نتصور ذلك اذا صح لنا أن نتصور ان الانسان يستطيع أن يغير جلده ومقوماته النفسية والفكرية !!

وهناك امر ثان ينبغى ان يقرر وان يشيع وهو : ان لكل لغة من لغات العالم نحوها الذى يعبر عنه بطريقة تأليف تراكيبها وكلماتها والوسائل الشكلية التى تعبر بها تلك اللغات عن وظائفها النحوية من ترتيب الكلمات او الاعراب حسب العرف الذى اختارته اللغة وجاء نظامها عليه ، وان « النحو » فى اللغات الأخرى ليس من السهولة الى الحد الذى يدرسه به الدارس دراسة مترفة تعتمد على التدليل والتيسير ، بل انه ليدرس باهتمام بالغ دون أن تقابله روح الاعتراض والتذمر التى اصبحت عادة من عاداتنا الخلقية الرديئة ، والتى استتبعها ولا يزال — الاستجابة الذليلة للتيسير .. ثم التيسير .

ولنأخذ الكتب اللغوية الانجليزية مثالا لهذه الفكرة ، فالمطولات التى تدرس اللغة وقواعدها فيها من الدقة والتفرع — بل ومظاهر الشذوذ — ما يجهد الدارس المتخصص فى معرفته والاحاطة به ، ومع ذلك لم يسمح لروح التدليل ان تفرض على علمائها ما يعانيه علمؤنا من هذا الخلق الردىء ، والذى هو أصلا نتيجة التعود الخلقى قبل اى شىء آخر . انظر فى الانجليزية مثلا :

(١) Sapir : Language, An introduction to the Study of Speech.

(٢) Bloomfield : Language.

وامر آخر اشرت اليه فى هذا الموضوع سابقا ، وهو الروح الاجتماعية التى لا زالت تنظر شزرا الى النحو وقواعده ودراسيه ، وهذه الروح وليدة ظروف عصيبة مرت بها لغتنا القومية فى القديم والحديث وأثر نفسى باق انعكاسا لظروف التخلف والانحدار التى منيت بها الأمة العربية نتيجة الاستعمار والجهل ، واعتقد ان هذه الروح فى طريقها الى الزوال قريبا بعد التغير العام الذى وجه أوضاعنا السياسية والاجتماعية والقومية فى طريق سليم ، اذ بدات الأمة العربية تبحث عن ذاتها ومقوماتها الأصيلة بعد أن افتقدت ذلك من زمن طويل سمح لبعض الأفكار البغيضة أن تعيش وتتغلغل .

وهناك امر آخر ينبغى اخذه ماخذ الجد وهو « القدوة الحسنة فى النطق » تلك التى يتسع مداها فيمن يقفون من الشعب موقف المخاطبة العامة ، واعنى بذلك أجهزة الاعلام من صحافة واذاعة وتليفزيون حيث نسمع ونقرا اخطاء سافرة فى مبادىء النحو والصرف ، وان الانسان ليدهش حين يقارن بين بعض المذيعين الأجانب الذين يتحدثون العربية ، فيسمع صياغة متقنة سليمة ، وبين المذيعين فى الاذاعات العربية حيث تكثر اخطاؤهم بطريقة منفرة مزعجة — ومثل ذلك تماما ما يحدث فى قاعات الدرس والمحاضرات مما ينبغى ان يتحقق له ادنى مستوى معقول فى مراعاة المبادىء العامة للنطق الصحيح ، وما زال يرن فى اذنى وأنا طالب صغير ما كان يكتبه وينطقه لنا مدرس الرياضة (ينطبق المثلثين على بعضهما تمام الانطباق) ويضغط على كلمة (المثلثين) ضغطا شديدا كأنما يؤكد به الخطأ فيها .

وما دمنا نأخذ الموضوع مأخذ الجد فأقترح ان يكون فى كل تلك الأجهزة مراقبون لغويون من اساتذة الجامعات والمتخصصين ، تكون مهمتهم التوجيه اللغوى والتثقيف ، والتنبيه على نماذج الأخطاء .

بهذا الأمور الأربعة : اسكات المشوشين الذين يسيئون للغة ودراستها ، ورفض روح التدليل فى تعلم قواعدها ، وتبدل النظرة الاجتماعية التى ستحدث تلقائيا بفعل ظروفنا الجديدة ، ثم القدوة الحسنة ، يتهيأ لنا بحق مناخ العمل المجدى لكل تسهيل وتيسير .

أما الشق الثانى من الحل الذى مجاله المادة النحوية نفسها ، فيعتمد على الخطوط العامة الآتية :

أولا : الاعتماد على المنهج اللغوى الحديث فى التفكير فى اللغة وفى تصفية النحو مما عابه من خلط وافكار دخيلة فلسفية ومنطقية .

وليس هذا موضعى لأخوض فى تفصيلات هذا المنهج ، ولكنى فقط اقدم منه بعض اسسه التى يمكن أن نفيد منها فى ذلك .

* يعتمد هذا المنهج على دراسة اللغة دراسة تنبع من اللغة وتعود للغة أيضا دون السماح لأية افكار اخرى غير لغوية أن تتدخل فى هذه الدراسة .

* قيمة التفكير المعتمد على هذا المنهج تعتمد اساسا على مبادئه العامة التى تقدم روحا جديدة للبحث والنظر ، وتناول النصوص لتحليلها كما تنطق فعلا على مستوى الأصوات والحروف وبنية الكلمة والتركيب والدلالة ، فهو يعتمد على هذه المبادىء المنهجية لا على اجتهاد فرد من الأفراد يجوز على تجربته الخاصة الصواب والخطأ كما حدث فى التيسيرات التى قامت على الأساس الأخير .

* من مبادئه الهامة انه يفرق بين منطق اللغة ومنطق ارسطو المعروف بالمصطلح الأوربى Logic ، وهو يعاضد الاول ويرفض الثانى ، وبذلك تتضح قيمته فى التفكير فى النحو الذى جنى عليه المنطق الاخير .

* يرفض هذا المنهج التخريجات النحوية والفضول والمماحكات والتخيل والظنون ، اذ يستقرىء اللغة فى حدود نصها لا ما يتخيله الذهن منها ، وبذلك يبدو دوره فيما امتلأ به كتاب النحو العربى من هذه الأمور .

* من مبادئه الاعتراف بالاستقراء لا بالقياس ، والاستقراء يؤدى الى « الملاحظة العرفية العامة » لما يستقرا ، وبذلك يخفف كثيرا من حدة الأقيسة التى فرضت سلطانها فى دراسة النحو ووقفت فى وجه تطور اللغة .

* من مبادئه كذلك البحث فى العلاقات بين الظواهر اللغوية والصفات والظروف التى أوجدتها دون البحث عن غاياتها . وفى ضوء ذلك تتضح ضرورة اسقاط العلل والمهاترات الجدلية التى ضخمت كتاب النحو العربى دون فائدة .

* يهتم هذا المنهج فى المقام الأول بالبحث فى اللغة عن الشكل والوظيفة المستقراة بالفعل لا المتخيلة فى العقل ، وفى ضوء ذلك يتضح ما ينبغى اسقاطه من التأويلات الغريبة التى ضخمت كتاب النحو العربى ، وعقدت دراسته .

وليس فى الامكان فى موضوعى هذا ان ازيد ذلك تفصيلا ، فسيجد القارىء ما يريده من ذلك فى هذا العدد نفسه من (المجلة) .

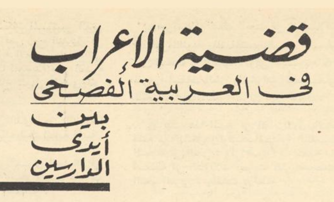
ثانيا : هذه التصفية التى تقوم على اساس المنهج اللغوى الحديث ينبغى لها - فى الوقت الحاضر على الأقل - أن تكون عملية ، بأن تحافظ على مصطلحات النحو وتقسيماته رعاية للجانب الثقافى من حياتنا ، وكذلك موقف العالم العربى كله من ذلك ، حتى لا يكون مصيرها الفشل .. ثم الرفض .

هى فقط وسيلة منهجية فيها غنى علمى تستمد اسسها من الدراسات اللغوية الحديثة التى قوامها : دراسة اللغة لذاتها ومن اجل ذاتها ، يقوم على اساسها التصفية والتنقية الى أن يمكن تطبيقها تماما .

ثالثا : يتدرج التطبيق على اساس ذلك - مع مراعاة رفض التدليل والتيسير المخل - لتقديم ابواب النحو ومسائله فى مستويات متعددة للمتخصصين فى اللغة ، ثم المحتاجين اليها فى حياتهم العملية فى الفروع الانسانية الأخرى كالقانون والسياسة والادارة والتأليف ، ثم التثقيف العام فى المدارس العربية على اختلاف مستوياتها .

وبعد ..

فلعل هذا الموضوع قد افلح فى توضيح قضية النحو العربى - نظرا وتطبيقا - فى مظاهرها المختلفة تاريخيا واجتماعيا وعلميا - مرتبطا فى الأمرين الأخيرين بواقعنا المعاصر - وساهم ايجابيا فى تقديم تخطيط عملى لما ينبغى أن نسير عليه فى الحاضر والمستقبل .



بقلم : د. رمضان عبد التواب



جميع النحاة العرب الا أبا على محمد بن المستنير المعروف بقطرب (المتوفى سنة ٢٠٦هـ) أن حركات الاعراب تدل على المعانى المختلفة التى تعتور الأسماء من فاعلية أو مفعولية أو اضافة أو غير ذلك ، وقد وضح ذلك أبو القاسم الزجاجى (المتوفى سنة ٣٣٧ هـ) فى كتابه « الايضاح فى علل النحو » ٦٩/٤ ونقله عنه السيوطى فى « الأشباه والنظائر » ١ : ١١/٧٨ فقال : « فان قال قائل قد ذكرت أن الاعراب داخل فى الكلام ، فما الذى دعا اليه واحتيج اليه من أجله ؟ فالجواب أن يقال ان الأسماء لما كانت تعتورها المعانى ، وتكون فاعلة ومفعولة ومضافة ومضافا اليها ولم يكن فى صورها وأبنيتها أدلة على هذه المعانى ، بل كانت مشتركة ، جعلت حركات الاعراب فيها تنبىء عن هذه المعانى فقالوا : ضرب زيد عمرا ، فدلوا برفع زيد على أن الفعل له ، وبنصب عمرو على أن الفعل واقع به . وقالوا : ضرب زيد ، فدلوا بتغيير أول الفعل ورفع زيد على أن الفعل ما لم يسم فاعله ، وأن المفعول قد ناب منابه . وقالوا : هذا غلام زيد ، فدلوا بخفض زيد على اضافة الغلام اليه . وكذلك سائر المعانى ، جعلوا هذه الحركات دلائل عليها ليتسعوا فى كلامهم ، ويقدموا الفاعل اذا أرادوا ذلك ، أو المفعول عند الحاجة الى تقديمه، وتكون الحركات دالة على المعانى » .

أما قطرب فانه يرى وحده أن هذه الحركات جيء بها للسرعة فى الكلام ، وللتخلص من التقاء الساكنين عند اتصال الكلام .

وقد ذكر الزجاجى رأى قطرب هذا فى كتابه الايضاح كذلك ١٥/٧٠ ونقله عنه السيوطى فى الأشباه والنظائر ١ : ١٠/٧٩ فقال : « قال قطرب : وانما أعربت العرب كلامها ، لأن الاسم فى حالة الوقف يلزمه السكون للوقف ،فلو جعلوا وصله بالسكون أيضا لكان يلزمه الاسكان فى الوقف والوصل ، وكانوا يبطئون عند الادراج ، فلما وصلوا وأمكنهم التحريك جعلوا التحريك معاقبا للاسكان ، ليعتدل الكلام ألا تراهم بنوا كلامهم على متحرك وساكن ومتحركين وساكن ، ولم يجمعوا بين ساكنين فى حشو الكلمة ولا فى حشو بيت ، ولا بين أربعة أحرف متحركة ، لأنهم فى اجتماع الساكنين يبطئون ، وفى كثرة الحروف المتحركة يستعجلون وتذهب المهلة فى كلامهم ، فجعلوا الحركة عقب الاسكان » .

هذا هو رأى قطرب كما ذكره الزجاجى ، وهو رأى لم يسبقه به أحد ـ فيما نعلم ، ولم يتابعه عليه غيره من اللغويين أو النحويين ، فيما عدا أستاذنا الدكتور ابراهيم أنيس فى كتابه القيم « من أسرار

اللغة » فى الفصل الذى عقده لذلك بعنوان « قصة الاعراب » ص ١٢٥ ـ ١٨٩ ويظهر أنه تاثر برأى قطرب هذا ، وان لم يشر اليه .

●

وقبل ان نشير الى تفصيل نظرية الدكتور أنيس ونناقشها ، نود أن نذكر هنا أن رفع الفاعل ونصب المفعول وجر المضاف اليه وما أشبه ذلك ، كان من الحقائق المسلمة التى لم يشك فيها واحد من النحويين القدامى ، ولذلك قالوا فى ردهم على قطرب كما حكاه الزجاجى فى الايضاح ٨/٧١ ، ونقله عنه السيوطى فى الأشباه والنظائر ١ : ٢٠/٧٩ « لو كان كما زعم لجاز خفض الفاعل مرة ورفعه أخرى ونصبه، وجاز نصب المضاف اليه ، لأن القصد فى هذا انما هو الحركة تعاقب سكونا يعتدل به الكلام . وأى حركة أتى بها المتكلم اجزأته ، فهو مخير فى ذلك. وفى هذا فساد للكلام وخروج عن أوضاع العرب وحكمة نظام كلامهم » .

أما الدكتور ابراهيم أنيس ، فقد بدأ بمقدمة طويلة بين فيها كيف كان للنحاة العرب سلطان على الشعراء والأدباء ، وأنهم لم يصادفوا من يهاجمهم الا فى النادر من أمثال ابن مضاء الذى كتب كتابا توفر فيه على دحض علل النحاة . ثم يذكر الدكتور انيس أن المحاولة الثانية كانت محاولة ابراهيم مصطفى فى كتابه « احياء النحو » وانها كانت محاولة تعليمية لتيسير تلك القواعد الاعرابية على الناشئين .

ثم انتقل الدكتور بعد ذلك الى البحث عن آثار هذا الاعراب فى اللغات السامية الأخرى . ويبدو من حديثه أنه لا يعرف الأكادية والحبشية والأوجاريتية، مع أن هذه اللغات الثلاث من أهم اللغات السامية فى موضوع الاعراب ـ كما سنعرف فيما بعد ـ فاستأثرت العبرية ببحثه فى أقل من صفحة ، وادعى أنها استأثرت ببحث المستشرقين كذلك ، وعلل اعتقادهم فى وجود الاعراب فى اللغات السامية « بتأثرهم بما حدث فى فروع الفصيلة الهندية الأوربية ، فقد عرفوا أن الوضع الاعرابى الذى يسمى Case-ending كان شائعا فى لغاتهم القديمة كاليونانية واللاتينية ، وأنه قد فقد من اللغات الأوربية الحديثة كالانجليزية والفرنسية ، فتصوروا أن ما حدث فى التطور التاريخى للفصيلة الهندية الأوربية قد تم مثله فى الفصيلة السامية » (من أسرار اللغة ٢/١٣٨) .

وبعد أن استعرض الدكتور أنيس اعراب اللاتينية باختصار قال ٢٠/١٤١ « ولعل أهم فرق بين رموز الأسماء فى اللاتينية وبين حركاتنا الاعرابية أن الرموز اللاتينية لا تسقط مطلقا من نهاية الأسماء حين الوقف عليها كما يحدث غالبا للحركات الاعرابية فى لغتنا مما يجعلنا نرجح أن حركاتنا الاعرابية ليست رموزا لغوية تشير الى الفاعلية أو المفعولية أو غير ذلك » .

وبعد أن درس ظاهرة الوقف فى اللغة العربية ولهجاتها بالتفصيل خرج علينا الدكتور أنيس بنظريته الجديدة فى تفسير ظاهرة الاعراب فى اللغة العربية، ولنلخص نظريته فيما يلى :

١ ـ ليس للحركة الاعرابية مدلول ، فلا تدل الحركات الاعرابية على فاعلية أو مفعولية أو اضافة أو غير ذلك .

٢ ـ هذه الحركات لا تعدو أن تكون حركات يحتاج اليها فى الكثير الغالب لوصل الكلمات بعضها ببعض ، بمعنى أنها حركات للتخلص من التقاء الساكنين عند وصل الكلام وأن معنى الفاعلية والمفعولية لا يستفاد من هذه الحركات ، وانما من موقع كل من الفاعل والمفعول فى الجملة العربية . وحاول الدكتور أنيس ـ تبعا لذلك ـ أن يثبت نظاما معينا للجملة العربية القديمة يلى فيها الفاعل الفعل ويسبق المفعول .

٣ ـ هناك عاملان تدخلا فى تحديد حركة التخلص من التقاء الساكنين ، وهما :

(أ) ايثار بعض الحروف لحركة معينة ، كايثار حروف الحلق للفتحة .

(ب) الميل الى تجانس الحركات المتجاورة أو ما يسمى Vowel Harmony

٤ ـ سمع النحاة القدماء هذه الحركات فأخطأوا تفسيرها حين عدوها علامات على الفاعلية والمفعولية وغيرها ، فى حين أنها لا تعدو أن تكون حركات وصل بين الكلمات .

٥ ـ وحين اعتقد النحاة أنها حركات اعرابية حركوا أواخر الكلمات التى لا داعى لتحريكها ، لتطرد قواعدهم فقالوا مثلا : « الرجل قائم » بضم اللام من الرجل ، وكان يكفى أن يقال « الرجل قائم » بتسكين اللام ، اذ لا توجد ضرورة تدعو الى تحريكها .

٦ ـ الحالات التى لا يوجد فيها ما يدعو الى تحريك الآخر جاءت فى النثر والشعر على سواء ، ولا يؤثر ذلك على وزن الشعر من الناحية الذوقية ، وان كان يخالف ما يشترطه العروضيون فى بعض الأحيان ، مثل بيت أبى ذؤيب :

أبى القلب الا أم عمرو وأصبحت
تحرق نارى بالشكاة ونارها

فيرى الدكتور أنيس أن « كلمة تحرق قد حرك آخرها دون ضرورة ملحة ، وأن انشاد البيت بغير هذه الحركة لا يكاد يؤثر فى موسيقاه أو وزنه ، وكل الذى يترتب على مثل هذا الانشاد ان تصبح « مفاعلين » « مستفعل » وهذا التغيير الطفيف ، وان لم يقل به أهل العروض ، فيما أظن ، لا يكاد يؤثر فى وزن البيت شيئا ، يشهد بهذا أصحاب الآذان الموسيقية المرهفة » (٨٣/١١) •

٧ – أما المعرب بالحروف فكانت احدى صوره تخص قبيلة معينة والصور الأخرى تخص قبائل أخرى ، ولكن النحاة جمعوا كل هذه الصور وخصوا كل صورة منها بحالة اعرابية معينة ، فهو يفترض مثلا ان هناك قبائل عربية كانت تنطق المثنى بالياء فى جميع الحالات ، ثم تطورت هذه الياء فصارت الفا عند بعض القبائل فى جميع الحالات ، ولما لم يفهم النحويون سر الموضوع جمعوا بين الصورتين وخصوا الأولى بحالتى النصب والجر ، كما خصوا الثانية بحالة الرفع •

بهذا العرض الزاخر بالفروض التى لم يقم عليها دليل علمى واحد ، يحاول الدكتور أنيس أن يفسر ظاهرة الاعراب فى اللغة العربية •

●

وقبل أن نناقش رأيه هذا ونبين أن الاعراب ، كما يعرفه النحاة ، من خصائص اللغات السامية ، نحب أن نشير الى أن نظريته هذه فى تفسير الاعراب لم تلق قبولا لدى أى باحث من الباحثين بل انبرى أحدهم للرد عليه ، وهو الدكتور مهدى المخزومى ، فى كتابه « مدرسة الكوفة ، ومنهجها فى دراسة اللغة والنحو » ٢٤٩ – ٢٥٦ • ومن ابرز الاعتراضات التى أثارها الدكتور المخزومى أن نظرية الدكتور أنيس لا تستطيع أن تفسر اختلاف اللهجات العربية فى الوقف ، مثل لهجة أزد السراة الذين اذا وقفوا على المرفوع نطقوا بضمته وأطالوها فكأنما هى واو ، واذا وقفوا على المكسور أطالوا كسرته فكأنما هى ياء ، فيقولون فى الجملتين : هل جاء خالد ، وهل مررت بخالد : خالدو ، وخالدى ، حين يريدون الوقف (أنظر كتاب سيبويه ٢ : ٢٨١/٢٣) ، فيقول الدكتور المخزومى : ٣/٢٥١ « فاذا لم تكن الحركات أعلاما لمعان قصد اليها المتكلم ، بل لم تعد ان تكون حركات يحتاج اليها فى الكثير من الأحيان لوصل الكلمات بعضها مع بعض ، فكيف يفسر الوقف على خالد فى لغة من ينتظر (وهى لغة أزد السراة ؟) ولماذا كانت الدال مرفوعة ومنصوبة ومخفوضة فى الجمل الثلاث ؟ ولماذا لا تكسر لتنسجم حركة الدال مع حركة اللام قبلها •• وعليه فان القول بأن الحركات انما هى سد للحاجة الى وصل الكلمات بعضها ببعض ، وأنها ليست أعلاما للمعانى التى قصد اليها المتكلم قول لم يحالفه التوفيق » •

وكان كلام الدكتور المخزومى قصيرا فى جملته ، كما أنه لم يشر الى اللغات السامية الأخرى التى يهدم وجود الاعراب فيها نظرية الدكتور أنيس من أساسها ، كما سنبين ذلك فيما بعد •

ولم يكن الدكتور أنيس هو أول من شك فى حقيقة الاعراب ، وفسره هذا التفسير ، فقد ذكرنا فى بداية حديثنا رأى قطرب فى أن الاعراب لم يدخل فى اللغة العربية للدلالة على المعانى وانما دخل تخفيفا على اللسان ، ورأينا كيف رد اللغويون هذا الكلام ولم يأخذ به واحد منهم •

ومن المستشرقين من تشكك قبل الدكتور أنيس فى اللغة العربية الفصحى ، وفى اهم خصائصها وهو الاعراب كذلك،ومن هؤلاء كارل فوللرزKarl Vollers فى كتابه : « اللغـــة الشـــعبيه واللغة الأدبيـة فى الجزيرة العربية القديمـة » Volkssprache u. Schriftsprache in olten Arabien شتراسبورج ١٩٠٦) • وكان يرى أن النص الأصلى للقرآن قد ألف باحدى اللهجات الشعبيه التى كانت سائدة فى الحجاز، والتى لا يوجد فيها كما لا يوجد فى غيرها تلك النهايات المسماة بالاعراب ، وأنه انتقل الى هذا النص فيما بعد الشكل الأدبى للغه العربية الذى يوجد فيه الآن ، وهو يرى أن العربية الفصحى التى رواها لنا النحويون العرب ، والتى توجد فى القرآن ، كما احتفظ بها الشعر فى موازينه ، هذه العربيـة يراها فوللرز مصنوعه ! وهو ينكر على الاطلاق أن هذه اللغه كانت حيه فى مكة على عهد النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، كما يشك أن البدو الذين خرج من بينهم الشعراء كانوا يتكلمون هذه اللغة•

غير أن نولدكه Nöldeke فى مقاله : « ملاحظات على لغه العرب القدامى Einige Bemerkungen über die sprache der alten Araber فى مجلة الآشوريات Zeitschrift für Assyriologie ١٢ : ٢٨/١٧٢ يرى من غير المعقـول أن يكون محمد (صلى الله عليه وسلم) قد استخدم فى القرآن لغة تخالف كل المخالفة تلك اللغة التى كانت شائعة فى مـكة آنذاك ، وأن يكون قد اعتنى بالاعراب هذه العنايه ، وقومه لا يستخدمون هذا الاعراب فى كلامهم » • كما يرى نولدكه « أن شعر ذلك العصر كان يمثل لغه البدو التى كانوا يتحدثون بها فى ذلك الوقت والتى ظلوا يتحدثون بها زمنا طويلا بعد ذلك ، ولا يغير من هذه القضية شيئا أن لغه الشعر بها بعض الاختلاف عن لغة الحياة العامة ، وأن الشاعر كثيرا ما كان يضطره وزن الشعر وأسلوبه الى الاتيان بتعبيرات

خارجة عن المألوف ، وغير ذلك من الأمور التى لاحظها كذلك قدامى اللغويين العرب وسجلوها بدقه » .

ويستطرد نولدكه فى مقاله الى أن فتسشتاين Wetzstein كان يرى هو الآخر أن لغة الشعر مصنوعة تماما ، فقد درس العربية الحديثة وتأثر بها الى درجة أنه أصبح يرى أن القواعد التى نطالب بها من يريد التكلم بالعربية الفصيحة ، عديمة الجدوى ، ولم يذهب فولرز الى هذا الحد من التفكير بالنسبة للعربيه ، ولكنه كان يرى ان اللغويين العرب قد جمعوا عناصر الاعراب بمهارة فائقه وأكملوها » .

كما يرى نولدكه فى الفصل الذى كتبه عن « لغة القرآن » فى كتابه « مقالات جديدة فى علم اللغات السامية » Neue Beiträge zur semitischen Sprachwissenschaft (شتراسبورج ١٩١٠) أنه « لو كان النبى (صلى الله عليه وسلم) أو أحد معاصريه من المؤمنين قد نطق بالقرآن دون اعراب لكان من غير الممكن أن تضيع الروايات الخاصة بذلك دون أن يبقى لنا آثار منها » .

ويرى نولدكه كذلك فى كتابه « اللغات السامية » (ص ٧/٧٥ من ترجمتنا) « ان لهجة شديدة الانحراف عن عربيه النحاة ، لا يناسبها مطلقا بحور الشعر المعروفة » .

ويقول المستشرق يوهان فك فى كتابه « العربية » (ص ٩/٣ من ترجمة الدكتور النجار) « لقد احتفظت العربيه الفصحى فى ظاهرة التصرف الاعرابى بسمة من أقدم السمات اللغويه التى فقدتها جميع اللغات السامية ـ باستثناء البابلية القديمه ـ قبل عصر نموها وازدهارها الأدبى . وقد احتدم النزاع حول غاية بقاء هذا التصرف الاعرابى فى لغه التخاطب الحى ، فأشعار عرب الباديه ـ من قبل العهد الاسلامى ومن بعده ـ ترينا علامات الاعراب مطردة كاملة السلطان ، كما أن الحقيقة الثابته من أن النحويين واللغويين الاسلاميين كانوا ـ حتى القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى على الأقل ـ يختلفون الى عرب البادية ليدرسوا لغتهم ، تدل على أن التصرف الاعرابى كان بالغا أشده لذلك العهد ، بل لا نزال حتى اليوم نجد فى بعض البقايا الجامدة من لهجات العرب البداة ظواهر الاعراب » .

ويقول المستشرق برجشتراسر فى كتابه « التطور النحوى » (ص ١٩/٧٥) : « والاعراب سامى الأصل تشترك فيه اللغة الأكادية ، وفى بعضه الحبشية ، ونجد آثارا منه فى غيرهما أيضا » .

ونصل الآن الى موقفنا من الاعراب ونظرية الدكتور انيس فى تفسيره ، فنقول ان الاعراب فى العربية كان ـ كما يقول النحاة العرب ـ يدل على المعانى من الفاعلية والمفعولية وغيرهما ولم يكن حركات وصل بين الكلمات ، كما يزعم الدكتور أنيس . ودليلنا على ذلك عدة أمور :

أولا : وجود الاعراب كاملا فى بعض اللغات السامية القديمه كالأكادية ، وتشمل اللغتين البابلية والآشورية فى عصورهما القديمة . وهذا قانون حمورابى (١٧٩٢ ـ ١٧٥٠ ق.م) المدون باللغة البابلية القديمة يوجد فيه الاعراب كما هو فى اللغة العربية الفصحى تماما ، فالفاعل مرفوع والمفعول منصوب ، وعلامه الرفع الضمة ، وعلامه النصب الفتحة ، وعلامه الجر الكسرة ، تماما كما فى العربية . ففى الفقرة الأولى من هذا القانون توجد الجملة التالية Summa awelum awelan ubbirma بمعنى « اذا اتهم انسان انسانا » ففى هذه الجملة نجد awelum الأولى بمعنى انسان فى حالة الفاعل ، وهى مرفوعة بالضمه ، أما الميم فهى فى الأكادية تقابل التنوين فى اللغة العربية ، و awelam الثانية فى حالة المفعول ، وهى منصوبة بالفتحة .

وفى الفقرة الخامسة من قانون حمورابى : summa dayanum dinam iddin بمعنى « اذا حكم قاض حكما » فكلمة dayanum « بمعنى قاض » فى حالة الفاعلية ، وهى مرفوعة بالضمه وكلمة dinam بمعنى « حكما » فى حاله المفعولية ، وهى منصوبة بالفتحه .

وفى الفقرة ١٩٥ من هذا القانون : Summa maru abasu imtahas بمعنى « اذا ضرب ابن أباه » نجد كلمه abasu بمعنى « أباه » وهى فى حالة المفعولية تماما كما فى العربية .

ولا يقتصر الأمر على ذلك ، بل ان المثنى والجمع المذكر يماثلان فى الاعراب المثنى والجمع فى العربيه ، فيرفع المثنى بالألف وينصب ويجر بالياء التى تحولت الى كسرة طويلة ممالة بعد انكماش الصوت المركب ، كما حدث فى اللهجات العربيه الحديثة فى مثل « مركبين » فيقال فى الأكادية : inan بمعنى « عينان » فى حالة الرفع ، و inen فى حالتى النصب والجر . أما الجمع المذكر فانه يرفع بالواو وينصب ويجر بالياء ، فيقال : Sarru بمعنى « ملوك » فى حالة الرفع ، و Sarri فى حالتى النصب والجر .

ولسنا نريد الخوض فى تفاصيل اللغة الأكادية وحالات الاعراب فيها ، ويكفى أن نحيل الباحث على أحد المؤلفات الهامة فى قواعد اللغة الأكادية للمستشرق « فون سودن » Wolfram von Soden وهو « المفصل فى قواعد الأكاديه » Grundris der akkadischen Grammatik (روما ١٩٥٢) .

وقد اختلطت حالات الاعراب فى العصور المتأخرة للأكادية ، ويرجح المستشرقون ان الاعراب كان قد زال من الاستعمال الحى فى تلك العصور ، وأن ما يوجد منه مختلطا فى الكتابة سببه محاولة تقليد الكتاب للكتابات القديمة (انظر كتاب المستشرق المعروف : بروكلمان C. Brockelmann فى « فقه اللغات السامية » Semitische Sprachwissenschaft (ليبزج ١٩٠٦ ص ١١٤) .

وتوجد حالات الاعراب كذلك فى اللغة الأوجاريتية، وهى احدى اللغات السامية المكتشفة حديثا فى منطقة « راس شمرا » على الساحل الشمالى لسوريا ، وهى مكتوبة بالخط المسمارى ، غير أنه يسير فيها على النظام الأبجدى ، ولا يوجد بها رموز لضبط الحركات الا فى الرمز الدال على صوت الهمزة ، اذ أن هذا الرمز له ثلاث صور ، ونجد فى هذه الكتابات الأوجاريتية أن الكلمة اذا كانت منتهية بالهمزة ، صورت الهمزة فيها باحدى الصور فى حالة الرفع ، وبالصورة الثانية فى حالة النصب وبالصورة الثالثة فى حالة الجر (وانظر كتاب « موسكاتى » Sabatino Moscati) « المدخل الى النحو المقارن للغات السامية» An Introduction to the Comparative Grammar of the Semitic Languages فيسبادن ١٩٦٤ ص ٢٨/٩٥) .

بل ان اللغة الحبشية تكفى هى الأخرى للتدليل على اصالة الاعراب ، ودلالته على المعانى فى اللغة العربية ، اذ يظهر فى الحبشية حالة النصب التى تطابق من الناحية الاعرابية نظيرتها فى اللغة العربية الى حد كبير .

ففى الحبشية يقال مثلا

Wa'aqamka lotu kidana

بمعنى « وأقمت له عهدا » ، وكذلك r'ika hati'ata

بمعنى « رأيت خطيئة » .

ويقول نولدكه فى مقاله السابق « ملاحظات على لغة العرب القدامى » ٣/١٧٤ : « وهذه حركة الفتح فى نهاية الفعل الماضى للغائب المذكر ، تلك الحركة التى ضاعت من اللهجات العربية الحديثة كلها ، لا تزال توجد فى لغة من اللغات السامية ، ابتعدت فيما عدا ذلك عن أخواتها الساميات بعدا كبيرا ، ونعنى بها اللغة الأمهرية فى الحبشية ، ولم يبق من هذه الفتحة فى اللغات السامية الأخرى الا آثار ضئيلة (ولا سيما عند اتصال الفعل ببعض ضمائر النصب) ونحن نعد هذه الفتحة من مسائل الاعراب تماما كأية حركة اعراب أخرى » .

هذا وفى اللغات السامية الأخرى عدا الأكادية والأوجاريتية والحبشية بقايا حقيقية وأخرى مظنونة من حالات الاعراب التى كانت موجودة فى اللغة السامية الأم ، ولسنا نريد الخوض فى تفصيل هذه البقايا هنا ، فقد أشار بروكلمان اليها فى كتابه « المفصل فى النحو المقارن للغات السامية » Grundriss der vergleichenden Grammatik der semitischen Sprachen (برلين ١٩٠٨ جـ١/٤٥٩ – ٤٦٦) .

ثانيا : لم يتعرض الدكتور ابراهيم أنيس فى بحثه لاعراب القرآن الذى وصل الينا متواترا بالرواية الشفوية جيلا بعد جيل ، فهل يعتقد الدكتور أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يحرك أواخر الكلمات فى تلاوته لنص القرآن الكريم الا حيث اقتضته ضرورة وصل الكلمات أو بعبارة أخرى حيث أراد التخلص من التقاء الساكنين عند اتصال الكلام ؟ وهل يرى الدكتور أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يتلو قوله تعالى فى سورة القلم : « ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون ، وانك لعلى خلق عظيم » بتسكين أواخر كلمات : القلم – بنعمة – ربك – وانك – خلق ، حيث لا يوجد ما يدعو الى تحريكها فى نظره ؟ اننا نعتقد أن ذلك لم يحدث، ولو حدث لوصلتنا روايات عن ذلك ، وقد كان نولدكه على حق عندما رأى – فى قوله الذى سبق أن ذكرناه هنا – أنه « لو كان النبى (صلى الله عليه وسلم) أو أحد معاصريه من المؤمنين قد نطق بالقرآن دون اعراب ، لكان من غير الممكن أن تضيع الروايات الخاصة بذلك دون أن يبقى لنا آثار منها » .

ثالثا : ما رأى الدكتور أنيس فى هذا الرسم القرآنى الذى نقل الينا متواترا منذ أيام عثمان رضى الله عنه ، أهو من صنعة النحاة ؟ وبم يفسر وجود الألف فى حالة المنصوب المنون ؟ وهل يرى الدكتور أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرأ سورة الانسان مثلا هكذا : « هل آتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شىء مذكور . انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميع بصير . انا هديناه السبيل اما شاكر واما كفور ؟ » بكسر الراء من « شاكر » لتنسجم مع الكسرة التى قبلها ؟! وبضمها من كفور لتنسجم مع الضمة الطويلة التى قبلها ؟! ان ذلك ما لا يمكن أن يقال !

وقد تنبه الى هذه النقطة الدكتور على عبد الواحد وافى فقال فى كتابه « فقه اللغة » ١٠/٢٠٩ ردا على من ينكر وجود الاعراب : « وان فى رسم المصحف العثمانى نفسه مع تجرده من الاعجام والشكل لدليلا على فساد هذا المذهب – وذلك أن المصحف العثمانى يرمز الى كثير من علامات الاعراب بالحروف (المؤمنون ، المؤمنين ..) وعلامة اعراب

المنصوب المنون (رسولا ، شهيدا ، بصيرا ..) وهلم جرا . ولا شك أن المصحف العثمانى قد دون فى عصر سابق بأمد غير قصير لعهد علماء البصرة والكوفة الذين تنسب اليهم هذه المذاهب الفاسدة اختراع قواعد الاعراب » .

رابعا : الشعر العربى بموازينه وبحوره لا يقبل نظرية الدكتور أنيس بحال من الأحوال ، ويكفى أن تقرأ بيتا كبيت بشر بن أبى خازم (ديوانه ق ٤/٧) :

فكأن ظعنهم غداة تحملوا
سفن تكفأ فى خليج مغرب

بتسكين أواخر كلماته ، لتدرك الى أى حد يفقد البيت وزنه الشعرى ووقعه الموسيقى على النفوس .

خامسا : هذه الأخبار الكثيرة التى وصلت الينا والتى تدل على فطنة العلماء فى الصدر الأول الى هذه الحركات الاعرابية ومدلولها ، وعيبهم من يحيد عنها ممن فسدت ألسنتهم بمخالطتهم للأعاجم. ونحن وان كما نشك فى صدق بعض هذه الأخبار لما يبدو فيها من مسحة التكلف والصنعة ، فاننا نرى فى جملتها دلالة صادقة على وجود الاعراب فى الكلام وشعور هؤلاء القوم به قبل أن يخرج النحاة بنظرياتهم على الناس :

فقد كتب كاتب لأبى موسى الأشعرى الى عمر بن الخطاب : « من أبو موسى » فكتب اليه عمر : سلام عليك ، اما بعد فاضرب كاتبك سوطا واحدا وأخر عطاءه سنة (مراتب النحويين ، لأبى الطيب اللغوى ٢/٦ ونور القبس المختصر من المقتبس ، للمرزبانى ٦/٣) .

ويروى عن أبى الأسود الدؤلى أنه سمع رجلا يقرأ : « ان الله برىء من المشركين ورسوله » بكسر اللام ، فقال : لا أظن يسعنى الا ان أضع شيئا أصلح به نحو هذا (مراتب النحويين ١٢/٨ وأخبار النحويين البصريين للسيرافى ٤/١٢ ونور القبس ١٥/٤ والفهرست لابن النديم ٦/٦٦ ونزهة الألباء ، لابن الأنبارى ١٥/٣ وانباه الرواة للقفطى ١ : ١٢/٥) .

ويروى أن أبا الأسود الدؤلى جاء الى زياد بالبصرة فقال انى أرى العرب قد خالطت الأعاجم وتغيرت ألسنتهم ، أفتأذن لى ان أضع للعرب كلاما يعرفون أو يقيمون به كلامهم ؟ قال : لا ، فجاء رجل الى زياد فقال : أصلح الله الأمير ! توفى أبانا وترك بنونا . فقال زياد : توفى أبانا وترك بنونا ! ادع لى أبا الأسود ، فقال : ضع للناس الذى نهيتك أن تضع لهم (أخبار النحويين البصريين ٥/١٣ وطبقات النحويين واللغويين لأبى بكر الزبيدى ٩/١٤ ونزهة الألباء ٤/٥) .

ويروى أن ابنة أبى الأسود قالت لأبيها يوما : يا ابت ما أحسن السماء ! قال : أى بنية : نجومها ، قالت : انى لم أرد أى شىء منها أحسن ، وانما تعجبت من حسنها . قال : اذن فقولى : ما احسن السماء ! (أخبار النحويين البصريين ٨/١٤ ونزهة الألباء ٩/٥ وانباه الرواة ١ : ٧/١٦) .

كما يروى أن ابنته قالت له : يا أبت ما أشد الحر (بضم الدال المشددة ، وكسر الراء المشددة) — فى يوم شديد الحر — فقال لها : اذا كانت الصقعاء (أى الشمس) من فوقك ، والرمضاء من تحتك قالت : انما أردت أن الحر شديد ، قال فقولى اذن : ما أشد الحر (بفتح الدال والراء المشددتين) (أخبار النحويين البصريين١٤/١٢ وطبقات الزبيدى ١/١٤ وانباه الرواة ١ : ٤/١٦) .

وقال رجل للحسن البصرى : يا أبو سعيد ! فقال له : كسب الدوانيق شغلك عن أن تقول يا أبا سعيد ! (نور القبس للمرزبانى ٧/٣) .

ودخل رجل على زياد فقال له : ان أبينا هلك وان أخينا غصبنا على ميراثنا من آبانا ، فقال زياد : ما ضيعت من نفسك أكثر مما ضاع من مالك (عيون الأخبار ، لابن قتيبة ٢ : ٥/١٥٩) .

ومثل ذلك حدث لسليمان بن عبد الملك ، فقد قام اليه رجل ، وقال : أصلح الله الأمير ! ان أبينا هلك فوثب أخانا وأخذ مالنا ، فقال سليمان : فلا رحم الله أباك ولا عافى أخاك ولا رد مالك ، السوط ! فلما أخذه السوط قال : بسم الله ! قال سليمان : دعوه ! فلو كان تارك اللحن ترك الساعة (نور القبس للمرزبانى ١٠/٣ ومعجم الأدباء لياقوت ١ : ١٢/٨٦) .

ودخل على عبد العزيز بن مروان رجل يشكو صهرا له ، فقال : ان ختنى فعل كذا وكذا . فقال له عبد العزيز : ومن ختنك ؟ (بفتح النون) قال : الختان الذى يختن الناس . فقال عبدالعزيز لكاتبه : ويحك ! بم أجابنى ؟ فقال : أيها الأمير انك لحنت — وهو لا يعرف اللحن — كان ينبغى أن تقول : من ختنك ؟ (بضم النون) ، (نور القبس للمرزبانى ١٤/٣) .

ومر عمر بن الخطاب رضى الله عنه على قوم يسيئون الرمى ، فقرعهم ، فقالوا : انا قوم متعلمين، فاعرض مغضبا ، وقال : والله لخطؤكم فى لسانكم أشد على من خطئكم فى رميكم (معجم الأدباء ١ : ٥/٦٧) .

واستأذن رجل على ابراهيم النخعى ، فقال : أبا عمران فى الدار ؟ فلم يجبه ، فقال : أبى عمران

فى الدار ؟ فناداه : قل الثالثه وادخل (معجم الأدباء لياقوت ١ : ٢/٦٨) •

ومثل ذلك يروى عن الحسن البصرى اذ قرع عليه الباب رجل وقال : يا ابو سعيد ! فلم يجبه ، فقال : يا أبى سعيد ! فقال الحسن : قل الثالثة وادخل (معجم الأدباء ١ : ٣/٧٩) •

كل هذه الروايات وأمثالها تدلنا على وجود الاعراب كما يعرفه النحويون فى العربية الفصحى ، كما تدلنا من جانب آخر على أنه لم يكن لغة سليقة لكل من تكلم العربية ، بدليل وقوع اللحن الاعرابى فى كلام هؤلاء القوم ، ومعظمهم من الموالى •

سادسا : ومما يؤيد رأينا فى أن الاعراب ليس مصنوعا أن العلماء فى عصر هارون الرشيد كانوا يسمعونه بكل دقائقه من الأعراب الذين كانوا يلقونهم • وهذا سيبويه يروى فى كتابه كثيرا عنهم ، مثل :

١ : ٣/١٤٧ « ومن ذلك قول العرب » •

١ : ١٢/١٥٣ « وزعم آبو الخطاب أنه سمع بعض العرب الموثوق بعربيتهم » •

١ : ٦/١٥٦ « وسمعنا أيضا من العرب من يونق بعربيته يقول » •

١ : ٨/١٦١ « وهذا مثل بيت سمعناه من بعض العرب الموثوق به يرويه » •

١ : ٥/١٩٨ « وسمعنا العرب الموثوق بهم » •

١ : ١/٢٠٢ « سمعنا ذلك ممن يوثق به من العرب » •

١ : ١١/٢١٠ « وسمعنا بعض العرب الموثوق بهم » •

١ : ١٩/٢١٤ « كذا سمعنا العرب تنشده » •

١ : ١٠/٢٢٧ « ولو آن هذا القياس لم تكن العرب الموثوق بعربيتهم تقوله لم يلتفت اليه ، ولكنا سمعناها تنشد هذا البيت جرا •• سمعنا من العرب من يرويه ويروى القصيدة التى فيها هذا البيت لم يلقنه أحد هكذا » •

١ : ١٤/٢٥٠ « كذلك سمعناه من العرب » •

١ : ١٨/٢٥٨ « حدثنا بذلك يونس وابوالخطاب عمن يوثق به من العرب » •

١ : ٨/٢٧١ « وحدثنا الخليل أنه سمع من العرب من يوثق بعربيته ••• وحدثنى أبو الخطاب أنه سمع من يوثق بعربيته من العرب » •

١ : ١٨/٣٠٧ « وزعم لى بعض العرب » •

١ : ٨/٤٥١ « وسمعنا عربيا موثوقا بعربيته » •

١ : ٨/٤٧٥ « وحدثنى من لا أتهم عن رجل من أهل المدينه موثوق به أنه سمع عربيا يتكلم » •

ويزعم ابو زيد الأنصارى (المتوفى سنة ٢١٤ هـ) أنه هو المعنى بمثل عبارة سيبويه ١ : ١٣/٣٣١ « وسمعنا الثقة من العرب » ، يقول السيرافى فى كتابه أخبار النحويين البصريين ١٢/٣٧ : « وذكر أبو زيد النحوى اللغوى كالمفتخر بذلك بعد موت سيبويه ، قال : كل ما قاله سيبويه : وأخبرنى الثقة فأنا أخبرته » • ويقول ياقوت فى معجم الأدباء ١١ : ٧/٢١٥ « وكان سيبويه اذا قال سمعت الثقة يريد به أبا زيد الأنصارى » •

وهذا ابن جنى فى القرن الرابع الهجرى (توفى سنة ٣٩٢ هـ) يروى عنه أن البدو كانوا لا يزالون ينطقون بالاعراب فى عصره ، ففى معجم الأدباء ١٢ : ١/١٠٥ « قال ابن جنى : وعلى نحو ذلك فحضرنى قديما بالموصل أعرابى عقيلى جوثى تميمى ، يقال له محمد بن العساف الشجرى وقلما رأيت بدويا أفصح منه ، فقلت له يوما شغفا بفصاحته ، والتذاذا بمطاولته ، وجريا على العادة معه فى ايقاظ طبعه واقتداح زند فطنته : كيف تقول « اكرم أخوك أباك ؟ » فقال : كذاك ، فقلت له : افتقول « أكرم أخوك أبوك ؟ » فقال : لا أقول « أبوك » أبدا • فقلت : فكيف تقول : « أكرمنى أبوك ؟ » أبدا • كذاك ، قلت : ألست تزعم أنك لا تقول « أبوك » أبدا ؟ فقال : « ايش هذا ، اختلفت جهتا الكلام » ، فهل قوله : «اختلفت جهتا الكلام » الا كقولنا نحن « هو الآن فاعل وكان فى الأول مفعولا ؟ » فانظر الى قيام معانى هذا الأمر فى أنفسهم وان لم تقطع به عبارتهم » •

وانظر حوارا آخر لابن جنى مع الشجرى هذا فى معجم الأدباء ١٠٦/١٢ ـ ١٠٩ •

ونختم كلامنا فى هذه النقطة بما قاله الدكتور على عبد الواحد وافى فى كتابه فقه اللغة ٣/٢٠٨ « واذا أمكن أن نتصور أن علماء القواعد تواطئوا جميعا على اختلاق الاعراب ، فانه لا يمكن ان نتصور أنه تواطأ معهم عليه جميع العلماء من معاصريهم ، فأجمعوا كلمتهم الا يذكر احد منهم شيئا ما عن هذا الاختراع العجيب، ولا يعقل أن يقبل معاصروهم هذه القواعد على أنها ممثلة لقواعد لغتهم ويحتذوها فى كتاباتهم ، اللهم الا اذا كان علماء البصرة والكوفة قد سحروا عقول الناس واسترهبوهم وأنسوهم معارفهم عن لغتهم وتاريخها ، فجعلوهم يعتقدون ان ما جاءوا به من الافك ممثل لفصيح هذه اللغة » •

وفيما يلى نشير الى رأى المستشرقين فى تفسير حركات الاعراب فى اللغات السامية ، وقد كتب فى هذه النقطة منهم كل من « وليم رايت » W. Wright فى كتابه « **محاضرات فى النحو المقارن للغات**

السامية » Lectures on the Comparative Grammar of the Semitic Languages (كمبردج ١٨٩٠ ص ٧/١٤٣) و « كارل بروكلمان » C. Brockelmann فى كتابيه « فقه اللغات السامية » Semitische Sprachwissenschaft (ليبزج ١٩٠٦ ص ١١١ ـ ١١٢) و « المفصل فى النحو المقارن للغات السامية » Grundriss der vergleichenden Grammatik der semitischen Sprachen (برلين ١٩٠٨ ج ١/٤٥٩ ـ ٤٦٠) .

وخلاصة رأيهما أنه من الجائز أن تكون اللغة السامية الام كانت تفرق بين حالة الرفع بوصفها حاله للمسند اليه وربما للمسند أيضا باللاحقه (u) وحاله الجر بوصفها حاله تحديد للاسم باللاحقة (i) وأخيرا حالة النصب بوصفها حالة تحديد للفعل باللاحقة (a) . والأصل الاول لكل لاحقة لا يعرف على وجه التأكيد ، وربما يكون الشكل الكامل للاحقة النصب هو (ha) الموجودة فى الحبشية فى الأعلام ، ولا سيما أعلام الأشخاص ، مثل r'iku yesnaqaha بمعنى « رأيت اسحق » وقد تكون (ha) هذه متصلة بسبب وثيق بـ (ha) الاشارية التى لا تزال تستخدم فى العربية للتنبيه ، وفى العبريه للتعريف فى أول الكلمه ، وفى الآراميه للتعريف فى آخرها بعد سقوط الهاء منها فى هذه اللغة الأخيرة . وتدل هذه الهاء فى الحقيقة على التوجه نحو شىء ما .

وقياسا على تفسير حالة النصب قد تكون لاحقة الرفع مختصرة من الضمير « هو » أى ان أصل « الملك » = الملك + هو .

وأخيرا فبالنسبة الى لاحقة الجر فليس الافتراض نهائيا أن تكون لها صله بياء النسب التى أصابها التطور هنا فحذفت وبقيت الكسرة قبلها .

وعلى أى حال فلم يقطع المستشرقون برأى ، وذلك لغموض الأصل وعدم وضوح الحجة والبرهان على رأى بعينه ، وقد وجد تفسيرهم هذا لأصل حركات الاعراب من ينقده ، ويذهب الى أنه فروض دعا اليها تأثر المستشرقين بنظام لغاتهم وسبيل الاعراب والتصريف فيها ، ومن هؤلاء ابراهيم مصطفى فى كتابه « احياء النحو » ١/٤٥ .

أما متى ضاع الاعراب نهائيا من اللغة العربية فى الكلام الحى ، فلا نستطيع أن نقطع فى ذلك برأى ، وقد صدق نولدكه حين قال فى مقاله السابق الذكر : « ملاحظات على لغة العرب القدامى » ٢٢/١٧٧ : « لسنا نعرف ـ بسبب قصور الرواية ـ الى متى بقى الاعراب أو بعضه فى القبائل العربيه ، فان سكان مكه الذين اختلطوا منذ عصر مبكر فى الاسلام بعناصر أجنبية ، وكذلك سكان المدينة الذين تفرقوا عنها منذ يوم الحرة ـ هؤلاء جميعا لم يحتفظ منهم الا عدد قليل بالشكل القديم للغة ابتداء من النصف الثانى للقرن الأول الهجرى . أما فقدان البدو لظاهرة الاعراب على مر السنين فهو أمر حدث مثله فى تاريخ اللغات البشرية » .

ويعلل نولدكه فى مقاله المذكور لضياع الاعراب من اللغة العربية ، فيرى أن الوقف على الكلمات العربية بالسكون فى كثير من الاحيان كان من الأمور التى ساعدت على فقدان الاعراب من الكلام . كما يرى ان ثبات وضع الكلمات فى الجملة جعل فقدان الاعراب غير مؤثر فى وضوح المعنى .

وهو وان كان على حق فى القضية الأولى فقد أخطأ فى القضية الثانيه ، لان جملة مثل « ضرب محمد عليا » يمكن أن تقال فى العربية الفصحى بأوجه أخرى ، مثل : « ضرب عليا محمد » أو « محمد ضرب عليا » او « عليا ضرب محمد » تبعا لاختلاف المقصود من الكلام ، وهكذا نرى أن وضع الكلمات غير ثابت فى الجملة العربية القديمه ، وساعد على هذه الحريه فى وضع الكلمات فى الجملة ظهور الاعراب الذى كان يوضح وظيفة الكلمه فى اللغة ، ولولا ظهور الاعراب لاختلط الامر فى كثير من الأحيان ، فلو أسقطنا الاعراب من جملة « ضرب محمد عليا » مثلا لاختلط علينا الأمر فلم نعرف الفاعل من المفعول ومثل ذلك فى آيه « انما يخشى الله من عباده العلماء » (سورة فاطر ٢٨/٣٥) وآيه « أن الله برىء من المشركين ورسوله » (سورة التوبة ٣/٩) وآية « واذ ابتلى ابراهيم ربه » (سورة البقرة ١٢٤/٢) فلو أسقطنا الاعراب من هذه الآيات لجاز أن يكون المعنى فى الآية الاولى أن الله يخشى العلماء من عباده ! وفى الثانية ان الله برىء من المشركين ومن رسوله ! وفى الثالثه أن ابراهيم هو الذى ابتلى ربه ! وكل ذلك غير مراد ، بل هو كفر فى بعضه .

لهذا كله نرى أن الاعراب كان من الأمور التى تساعد على حريه بناء الجملة العربيه وأن الجملة العربية لهذا السبب كانت تقال بأوجه عدة . وهذا هو ما كان الزجاجى يقصد اليه فى النص الذى اقتبسناه من كتابه الايضاح قبل ذلك من قوله : « ... وكذلك سائر المعانى جعلوا هذه الحركات دلائل عليها ليتسعوا فى كلامهم ويقدموا الفاعل اذا أرادوا ذلك أو المفعول عند الحاجه الى تقديمه ، وتكون الحركات دالة على المعانى » . فلما فقد الاعراب كان الواجب أن يلزم بناء الجملة نظاما واحدا وهو ما حدث فى اللهجات العربية الحديثة ، فان جملة « ضرب محمد عليا » مثلا اصبحت فى اللهجات الحديثة : « محمد ضرب على » بتقديم الفاعل والتثنية بالفعل ثم الاتيان بالمفعول به .

لغة التحليل وظاهرية الكلام

بقلم عبد الفتاح الديدى

قال العقاد عن العبقرية انها قيمة فى النفس . وقال (هوسرل) عن الظاهرية انها حركة فى الفكر . كأن مناط اتباع العقاد فى مسار عبقريته هو الاحتفاظ بالقيم الوجدانيه . وكأن مناط النسج على منوال الظاهرية هو التشيع لروح المنهج عند هوسرل . وحسبنا أن نجارى العقاد فنتبع خطته كوسيلة لبلوغ الامتياز وكعنوان للصدق والأمانة وكضمان لعدم الزيغ فى نطاق الفكر . ومن شاء أن يتابع روح المنهج فى الظاهرية انطلق وراء حركة الفكر لدى هوسرل مغنيا نفسه عن التمسك بنص الكلمات والحروف . وفى كلتا الحالتين يستطيع المرء أن يقفو أثر العقاد أو هوسرل غير مشروط بالحدود وبالالفاظ وان كانت تحده معالم طريق واضح الجوانب وملامح شهوط ظاهر الخطوات .

وكان الكلام فى اللغة حتى أواخر القرن الماضى من فضل القول . كان الباحث يتناول اللغة كما يتناول جانبا فرعيا فى النظر والتأمل . لا شك أن عناصر اللغة كانت تسيطر على فكر المناطقة والفلاسفة من قديم الزمن . وكان أرسطو بالذات يقيم منطقه على أساس موازنة بين تكوين العبارات اللغوية والجمل المنطقية التى نسميها بالأحكام أو القضايا . حاول أرسطو اقامة المنطق على البناء اللغوى العادى . ونتج عن ذلك بقاء المنطق مكبلا باغلال الترابطات اللغوية ومحصورا فى نطاق الصيغ والاشكال الخاصة بالعبارات اللفظية . وتحسن المنطق الصورى الذى قال به أرسطو والذى تطور فى دراسة القياس فى أثناء العصور الوسطى ولكنه لم يصل الى المستوى اللائق الا على يد ليبنتس ولامبيرت فى أوائل القرن الثامن عشر .

ولم يكن من السهل أن يتخلص المنطق من أسر اللغة وأوضاعها الى أن هبت ثورات مختلفه أرغمت المناطقة على التخلص من الصور اللغويه المألوفة للقضايا . وكانت أهم هذه الثورات الاتجاه النفسانى المنطقى الذى قام على يد جون استيوارت مل فى انجلترا وعلى يد كل من بولتسانو وبرنتانو فى ألمانيا .

●

ولا شك أن هذا الاتجاه القائم على أساس تفسير المنطق تفسيرا نفسيا قد أفاد فائدة عظمى فى الاطاحة بالقوالب اللغوية المألوفة التى كانت تعد النموذج الأوحد للصور المنطقية التقليدية . فقام التفسير النفسى للمنطق من حيث لا يدرى بموازرة الاتجاه الرياضى عند ليبنتس ولامبيرت ودى مورجان فى هدم الشكل التقليدى للعلاقات اللغويه وجعل وحدة الفكر ذاته مصدر تنويع الصور المنطقية .

ولا ينبغى أن نظن أن منطق مل قد هدف الى ذلك قصدا ، فقد كان مل نفسه لا يحبذ المنطق الرياضى ولا يسعى الى دراسة شكل القضية من جديد بعيدا عن شكلها اللغوى . ولكن تفسيره النفسى أدى فيما بعد الى تعديل النظرة الى شكل القضية ذاتها وخاصه عقب ملاحظات برنتانو بهذا الصدد . ولم يلبث المنطق بعد ذلك أن تخلص من أسر اللغة

وصار ذا أشكال جديدة فى صورة منطق رياضى ، ومنطق رمزى وحساب تضايف ، ومنطق علاقات . وكان منطق أرسطو ومن تابعوه من المناطقة التقليديين محصورا فى نطاق أشكال معينه من العلاقات لا تعدو عددا معينا ونمطا معينا منها . فاذا بها تتسع فى المنطق الحديث حتى صارت تضم صورا لا نهاية لها من الصيغ والأشكال .

وبطبيعة الحال كادت الرياضة تقضى على الحاجة الى اللغه قضاء مبرما ، وكادت علوم النفس تقضى من جانبها على تقييد المنطق بالصيغ اللغوية والعلاقات المرتبطه بها .

ولكن شاءت الظروف الفكرية فى مطلع هذا القرن أن تلعب دورا حاسما فى مشكله اللغة . فقد ظهر على مسرح الفكر الفلسفى اتجاهان تزعم أولهما وتجنشتين الفيلسوف النمساوى اتذى عاش فى انجلترا ، وتزعم ثانيهما الفيلسوف الالمانى هوسرل.

وقد حاول وتجنشتين أن يعرف كلا من الفلسفة والمنطق بوصفهما تحليلا للغة . وعرف هذا الفيلسوف مشاكل الفلسفة فى كتابه عن البحث المنطقى الفلسفى بأنها مشاكل سينتاكس أو تراكيب لغوية . ويمكن تحويل المنطق الى علم شبيه بالرياضيات أو بالفيزياء اذا أبعدناه عن التأمل الفلسفى أو ما يصح أن نسميه بالميتافيزيقا . ولذلك يكفينا أن نتوقف عن الكلام عما لا نعرفه . وعلينا أن نصمت اذا لم نستطع الكلام على حد تعبيره .

واعتمدت حركة الوضعية المنطقيه أفكار وتجنشتاين (١٨٨٩ ــ ١٩٥١) وآراءه الفلسفيه ، وان كانت قد تنكرت لبعض مسحاتها المتأخرة من ناحيه وطورت اسس أفكاره المنهجيه من ناحيه أخرى . وقد ظهر البحث المنطقى الفلسفى سنة ١٩٢٢ وبقى مفعول نظريته الخاصة بالمقابلة بين لفظة ولفظة فى التحقق من معانى العبارات سائدا الى سنة ١٩٢٨ على وجه التقريب .

ففى تلك السنة ظهر كتاب البناء المنطقى للعالم Der logische Aufbau der Welt بقلم رودلف كارناب النمساوى المولود سنة ١٨٩١ والمنتمى الى جماعه حلقة فينا . وتبعه سنة ١٩٣٤ بكتاب آخر هو التراكيب المنطقية للغة Logische Syntax der Sprache

وعندئذ قضى تماما على فكرة المقابله بين لفظة ولفظة فى تقدير معانى العبارات . وقد أيد كارناب وتجنشتاين فى قوله ان دور الفلسفه الأساسى هو نقد اللغة . ولكنه رفض الاستمرار فى تأييد موقفه الميتافيزيقى الاولى فى ربط المعرفة بمعانى الالفاظ. وقد تغير الوضع الآن داخل نطاق الوضعيه المنطقية ذاتها وصارت المقابلة بين اللفظ وبين ما يشير اليه نظرية متداعية منتهيه .

ونحن لا نحاول هنا أن نوجه نقدا ما الى الوضعية المنطقيه عندنا . فلعلها اختارت العودة الى الموقف الميتافيزيقى الذى تنحت عنه الوضعية المنطقيه فى حلقة فينا ابتداء من سنة ١٩٢٨ . أو لعلها لم تشأ أن تكون أكاديمية بالمعنى المفهوم فتتابع التطور الصحيح .

على أى حال نحن نرجع الى بحث هام نشره كارل هيمبل Hempel وهو وضعى من فينا حيث يقول : « لقد تطورت نظريه الحق أكثر فأكثر فانتقلت من نظرية التجاوب المعروفة (نظرية الترجمه لفظه لفظة) الى نظرية محددة فى الاتساق » . وقد نشر هيمبل هذا البحث تحت عنوان : « حول نظرية الوضعيين المناطقة عن الحق» سنة ١٩٣٥ بعدد يناير من مجلة أناليسيس .

وذلك بعد أن صارت مشكلة الدلاله لدى كارناب ولدى نويرات خصوصا متعلقة بقواعد السيمية (السيمانتيك) أى متعلقة بالاتفاق الجارى . وصار الصدق صدقا سينتاكسيا أو متعلقا بالتراكيب على حد تعبير رسل فى تعليقه على هذه النقطة بكتابه عن المعنى والصدق (ص ١٤٢) .

وأضاف رسل الى ذلك قوله ان هذه النظرية لا تتفق اطلاقا مع نظريه وتجنشتاين عن الحدس الحسى .

ذلك ان وتجنشتاين ــ شأنه شأن المناطقة العرب المعاصرين ــ يرى أنه من الضرورى أن تكون اللغة متوازية توازيا هويا مع الواقع الحقيقى . وتعترض سوزان استبنج على ذلك مبدئيا بأنه خطأ كبير لاعتبار المعطيات مجرد تجارب شخصية (راجع كتابها عن الوضعية المنطقية والتحليل) . وتحدى آير نفسه نظرية المعطى الحسى واتهمها بأنها ليست نظرية على الاطلاق . (ص ٥٥ من كتاب : معرفتنا بالعالم الخارجى) .

مهما يكن الأمر فقد اعترضت الوضعيه المنطقية اعتراضا واضحا على النظرية الخاصة بالمقابلة بين اللفظ وبين معناه الخارجى بقولها :

١ ــ لا يمكن انشاء صدق أى عبارة ذريه .

٢ ــ لا تحسب نظرية وتجنشتاين حساب معنى القضايا العامه مثل قضايا علوم الفيزياء .

ذلك ان دلالة القضية تتضمن عند وتجنشتاين شروط التحقق المرتبطه ارتباطا وثيقا بنظريه التجربة المباشرة . وهو ما لا يستطيع كارناب أن يوافق عليه بحال من الأحوال . فمعيار الدلالة لدى الأخير هو

ناتج الوضع فى السياق المقترن · معيار الدلاله هو الدليل المستخرج من سياق الترابط ·

ويمكن أن نرجع هنا الى مرجعين أحدهما بالالمانية من تأليف اشتيكمولر عن مشكله الحق وفكرة السيمانتيك (ص ١٧٤) حيث يقرر أن الصدق صار ملتزما بارتباطات التعبيرات اللغوية ذاتها وليس بالالفاظ · والمرجع الثانى هو مقال فى مجموعة فاربر عن النشاط الفلسفى الأمريكى المترجمة الى الفرنسيه سنه ١٩٥٠ تحت عنوان « بعض المشاكل الأساسية فى الوضعية المنطقية » حيث يقول كاتبها فليكس كاوفمان (ص ٢٤٣) :

« لقد غير كارناب من وضعه ازاء هذه المشكلة وهذا واضح من خطاب شخصى بقلم كارناب فى هذه المسألة · بل لم تعد مشكلة الحقيقة ضروريه فى الاستدلال أو فى الاستقراء طالما كان فى امكاننا أن نحدد التصورات الأساسية فى التضمين بالنسبة الى الاستدلال وفى درجة التوثيق بالنسبه الى الاستقراء دون لجوء الى فكرة الحقيقة » ·

واهم من ذلك فيما نرى هو ان التعبير « نسق التراكيب » يجب أن يعد مرادفا لكلمة « الحساب » (راجع كتاب اشتيكمولر السابق ص ١٧٥) ومعنى ذلك امكان ابدال نسق التراكيب بالحساب المقدر لهذه التراكيب· وعندئذ ينبغى أن يكون الاعتماد فى تحقيق المعنى على القضيه باكملها فى مقابل القضية الأخرى · وانتقلت الوضعية المنطقية بالتالى بفضل كارناب من الاعتماد المعنوى على ترجمة لفظة لفظة الى ترجمة قضية قضية أو عبارة عبارة · ويصبح المعنى الموحد فى القضية أساسا للتحقق فى المعنى الموحد فى القضية المقابله · وبذلك يمكن تحويل القضايا الى حساب او تحويل نسق التراكيب الى حساب القضايا · ويتم الأمر بأن يحقق حساب القضايا امل ليبنتس فى ان يحل محل الاستدلال القديم ·

والمهم هنا أن نلاحظ أن الرياضيات كانت صاحبة الأثر الأكبر على كارناب فى هجره مفهوم الترجمة لفظة لفظة فى مقياس الحقيقة· فلا يمكن أن تستقيم الرياضيات مع ذلك المفهوم الساذج ·

ورغم حداثة اكتشاف هذا المعيار الجديد لم نمكن المثابرة على الاحتفاظ به · واضطر المنطق فى أخريات مراحله الى أن يهمل مسألة المقابلة قضية قضية ما لم يكن من الممكن الاجتزاء داخل اطار المعارف العلمية ذاتها · الحقيقة لا يمكن أن ترتبط بجزء من المعارف ولا يمكن أن تتبدل بالمعرفه التى لا تدخل فى اختصاصها · تتعلق الحقيقة بالعلم الذى يختص ببحث المعلومات وليس بالعلم على الاطلاق · كما أن الحقيقة لا يمكن أن يكتفى بترجمتها قضية قضية او عبارة عبارة · لا بد أن نضع القضية بجانب العلم منظورا اليه نظرة شاملة من أجل التحقق من مدى صدق أو كذب القضية الجديدة فى الادعاء الجديد ·

وصار الموقف الان عند كوين ، أستاذ المنطق بهارفارد ، يؤيد معيار الحقيقة فى قياس العلم ككل لا مجرد الاكتفاء بالمقابلة بين عبارة وعبارة · لا بد من الموازنة بين صدق العبارة وبين صدق العلم الذى تنتمى اليه على ضوء المقاييس العلمية المتبعة من أجل استقرار المعرفه وثبوت العمليات بالكامل ·

وهذا الرأى الأخير هو أحدث الآراء وأكثرها اقترابا من التجريبية فى صورها النهائية· وقد بدت الاحتياجات اليه من جملة المتاعب والمصاعب التى ظهرت من قبل عند التمسك بالنظريات الضيقه الموقوتة · وعندما لم تفلح هذه او تلك اضطر المنطق الى التخلى عنها فى سبيل تطوير عملياته الى الناحية المرجوة · وكان ذلك ابتداء من الخمسينات من هذا القرن تقريبا عندما ظهر كتاب كوين كاملا عن : « من وجهة النظر المنطقية » وعلى الرغم من أن جملة من البحوث قد نشرت من قبل هذا التاريخ فى هذا الموضوع فهى لم تفلح فى ايجاد تخطيط عام مستقر الا بعد ظهور ذلك الكتاب ·

•

وحين نتكلم عن اللغه اليوم نشعر أننا نتكلم عن جزء أساسى هام من نظرية المعرفة ونظريات الادراك· وهو ما لم يحدث فى تاريخ اللغة على الاطلاق قبل السنوات الأولى من هذا القرن · وكان المصدر الاساسى لتحريك اللغة واستقرارها بالتالى فى قلب الفكر العلمى الفلسفى كتابات الفيلسوف الألمانى أدموند هوسرل ·

ويمكن أن نقول ان الفلسفات القديمة فشلت فى أن تضع اللغة هذا الوضع الرئيسى حتى جاء هوسرل (١٨٨٩ ـ ١٩٣٨) فدفعها دفعا الى هذا الموقف الأصيل· واهتم هوسرل أول ما اهتم بتطويع اللغة للتفاهم العالمى عن طريق نحو عالمى يثبت صور دلالاتها التى لا غنى عنها فى اى لغة من اللغات ·

ويفترض هذا المشروع فى اللغة أنها أحد الموضوعات التى يتولى الوعى اقامتها بطريقه معينة ذات امتياز ، وأن اللغات الحالية مجرد حالات جزئية جدا من لغة فى حكم الامكان وتأوى سر تلك اللغات المتفرقة كأنساق من الرموز المرتبطه بدلالاتها بوساطة علاقات متشابهة حساسة فى بنائها وفاعليتها وكاملة الظهور · وهنا توضع اللغة كموضوع أمام الفكر فتؤدى دور الفكرة أو البديل أو الوسيلة الثانوية للاتصال ·

ولم يقل هوسرل كل شيء عن مشكلة اللغـــة . ولكنه استطاع أن يتحدى أوضاع التقسيم التقليدية واهتم باللغة على هذا النحو الذى حددناه ، فشكل منها فرعا أصيلا فى المعرفة والادراك وجعل منهــا أساسا نظريا ضروريا فى صميم العلم ذاته .

واستغرب أحدهم يوما حين جعلت بنـاء اللغة العربية شرطا أساسيا لاكتمال القاعدة تمهيـــدا لبزوغ فلسفة مصرية . وما أحسبـه كان يعترض على كلامنا اذا سمح لنفسـه بان يرى مدى أهميـــة اللغة التى تحددها لها فلسفة الظاهريات بين أفرع المعرفة الانسانية والفلسفات الأولى .

ولا نستطيع أن نتابع الظاهرية حرفا بحرف فى كل ما قالته بشأن اللغة . ولكننا نســـتطيع أن نتابعها بوصفها حركة فى الفكر فنســـتخرج ملامح جديدة للغة مستوحين الأصول الأولى والمنـــابت الأصلية عند هوسرل فى التعريف الأول .

واللغة العربية أحوج ما تكون الى هذه الدراسة لا لأنها قد بلغت الطور الذى تستحقه عند التفسير ولكن لأنها صارت اليوم أهلا للبناء . ولا يتم البناء بغير تطرق الى الجذور . والظاهرية لا تحقق شيئا بقدر ما تحقق هذه المبادرة .

فهى فى تقسيمها الثانى تعمد الى النظر الى اللغة بوصفها طريقة أصيلة فى استبصار الأشياء بوصفها أجسام الفكر على حد تعبيره فى كتـابه عن المنطق الصورى والمتعالى .. أو بوصفهـا العمليه التى يحصل الفكر عن طريقها على قيمته فى التداخل مع الذوات الأخرى أو فى التشابك مع الآخرين وبالتالى على وجوده المثـالى . وبدون هذه العمليـة (أى اللغة) تظل الأفكار مجرد ظواهر خاصة .

وأحب أولا وقبل كل شيء ان أنبه هنـا الى أن النظرة الساذجة الى اللغه عند عامة المشتغلين بالفكر والادب هى السبب فى كل الاشكالات التى نصادفها وفى كل الصعاب التى تظهر فى طريقنا . بل هـــذه النظرة الساذجه هى السبب المباشر فى ضيق الافق الذى يتميز به كل من يســـتغرب أن تكون اللغة - مجرد اللغة فى حد ذاتها - سر وجود أو عدم وجود فلسفه بمعنى الكلمة ببلادنا ، وأعنى بهـذه النظرة الساذجة تلك التى تقرن اللغة بعدم الامية . يؤدى وضع الأميه فى مقـابل اللغه الى الاخلال الحقيقى بمعنى اللغة فى ذاتها .

لا شك أن اللغه تعنى معاناة اللغة التى أتكلمهـا وتتكلمها . ولكنها تعنى أيضا تاريخ اللغة الجارى بين أيدى المتقدمين علينا واللاحقين بنا . فهى تجمع بين الجانب الذاتى والجانب الموضوعى فى اللغــة . أو تجمع على الأصح بين المباشرة الحاليه للغة وبين ماضى اللغة . وبعبارة أخرى موجزة تجمع اللغه بين تجربة الشخص المتحــــدث وبين تجارب اللغـــه الماضيه .. بين الموضوع الذاتى وبين الموضــــوع العلمى ..

ولهذا ليست ظاهرية اللغة مجرد مجهود لاقرار اللغات الحية فى اطار الصورية الممكنه لكل لغــة ممكنة من أجل احالتها الى موضـــوع أمام الوعى الكلى الذى لا يرتبط بالزمان . ولكنها بالاضافة الى ذلك عود الى الذات المتخاطبة والى اتصـــالى أو احتكاكى باللغة التى أتكلمها .

فالعالم والملاحظ كلاهما يرى اللغة فى المـــاضى ويتأمل تاريخها الطويل بكل مصـادفاته وتحولاته المعنويه التى جعلتها على نحو ما هى عليـــه الان . ولكن الأحداث العرضيه فى تاريخ اللغه تجعلنا نتوقع أول ما نتوقع ألا تفلح اللغه فى الدلاله بغير غموض أو ابهام . ولهذا اذا تناول العالم اللغـــه من حيث هى لغة منتهية كامله تختزن الأفعال الداله الماضية وتحتفظ بالدلالة المكتسبة سـلفا افتقد بالتـــالى وضوح الكلام وامتلاء التعبير .

ولكن من ناحية أخرى قد يتعلم النـاس الكتابة والقراءة ولا يمسون مع ذلك شـــيئا من اللغة . ولا بد أن نلاحظ مع بوتر مؤلف كتاب اللغـــة فى المجتمع الحديث ان محو الأمية عمليه من العمليات وليس حالة من الحالات . عنـدما أتمكن من قراءة الكلمات وأتبين معنى العبارة العاديه المتـــداولة لا أكون قد استكملت حاله من حالاتى بقدر ما أكون قد أتممت عملية من العمليات . ولا تتحول العملية هنا الى حالة الا اذا ارتبطت بالانسان العاقل الذى تتحقق له كل معانى الثقافه والمعرفه .

فاللغة فى حد ذاتها لها شمول مطلق . تعد اللغه من حيث هى مجموعة من الدلالات والمعنويات تطورا شاملا . فتجتمع بذلك نحو التقسيمين معا . لأنها تجمـــع بذلك بين ما نســـميه بالدياكرونيك ، والسينكرونيك على اعتبار الأول دراسة تجمل تطور اللغه التاريخى والثانى الوصف الراهن للغـــة فى احد أوضاعها أو مستوياتها الزمنية .

ولا شك فى أن استخدام الرمز لغة أو صـــورة أوليه من صور اللغة، ولكن اللغة لا تتحقق الا بالغاء الوظيفة اللغوية ذاتها . أعنى أن اللغة لا تتحقق الا بالغاء اللغة . اذ أن اللغة كتبادل اشارات ورموز تعوق اللغه كمعنويات ودلالات وتشل المقاصـد الفكرية . ولا بد من أجل تحقيق اللغة الأخيرة أن نقضى على الأولى . لا بد من تخليص اللغـــة من الـــرمزيه المباشرة . فبهذا وحده تجمع بين الدياكرونيــــك والسينكرونيك معا الى أن يتحقق لهـا الديالكتيك الخاص باللغة كشمول متطور .

ذلك أن المعنى هو أول أعتاب النظريه اللغـوية ولا يتوفر لنـــا أى وجه من وجوهــه بدون نظريه تفسيرية لطبيعة الرمز • والمعنى لا يظهر الا بعـد انمحـــاء الرمز • والرمز أشبه ما يكون بالمــؤثر الخارجي والمعنى لا يتضح الا بعد اختفـــاء الرموز التى يمر عليها • واذا تقدمت الى الذهـن مجموعه من الرموز فالمطلوب منها أن تحـــدد المعنى الخاص بهذه الكلمات كمجموعة وليس كوحدات• ولايستكمل المعنى وحدته الا اذا اختفت طبيعة الرمز فى الكلمات المستعمله •

أو بعبارة أخرى يشـــير الرمز البسيط عـــادة الى دلالة أو على وجه التحديد يعين وضعا ذا محتوى معنوى • وتتم هذه الاشـــــارة بطريقة ترابطية • وتتحد الرموز من أجل تكوين الوحـــــدة الخاصة بالرمز أو قل تتجمع الالفاظ المعزولة لتكوين وحدة التعبير وذلك بأن تتحد الاشارات لتكوين وحـــدة الاشارة التى هى نفسها وحدة الاستشعار aperception الناشىء عن الترابط •

وما دمنا قد ذكرنا الترابط أو التداعى ، فقــد أشرنا الى التجـــارب الماضيه وما دمنـــا قد ذكرنا الاستشعار فقد رجعنا الى الذات •

فالوجود على صورة شيء من الأشياء حيازة المعنى• وحيازة المعنى لا تتوفر الا اذا ارتبط الشيء بالذات• ومن طبيعة الوجود الذاتى أن يقترن بالموضـــوعية ما دامت الذاتيـــه لا تظهر الا كعلاقة بالموضوعيه ، وليس هناك من سبيل لتفسير اعتمـــاد الموضوعى على الذاتى واعتماد الذاتى على الموضوعى الا بايلاج الموضوعى فى الذاتى •

ولا يعنى الظاهرية من الأمر الا أن تضـــيف الى المعرفة اللغوية تجربتنا نحن عن اللغـــة أو تجربة اللغه كما نحققها بالفعل • وبمجرد الفصل أو تمييز علم اللغة الموضـــــوعى من ظاهـــرية الكلام نخلق فى الحال جدلا معينا يتداخل بواسطته كل منهما فى الآخر • ويمكن على هذا أن نقول عن النظره الذاتية (ظاهرية الكلام) انها تتضمن وجهة النظر الموضـوعية (علم اللغة الموضوعى) أى أن السينكرونيك يحتوى على الدياكرونيك •

وكان ماضى اللغة نفسه حاضرا فى يوم من الأيام، ومعنى ذلك أن سلسلة الوقائع اللغوية العـــارضة التى يؤســـسها المنظور الموضوعى لا تمثلها ســـوى لغة كانت فى كل لحظة من لحظات تاريخها المتطور صاحبة منطق ذاتى •

فاذا قمنا بعمل قطاع عرضى فى اللغة اكتشفنا نسقها الضرورى لتحقيق تطورها • واذا قمنا بعمـــل قطاع طولى وقفنا على سلسلة من الصدف التى يؤازرها تشقق ذاتى يسمح بنفاذ الوقائع اللغوية وتجمعها •

وليس قصارى ما أتعلمه من ظـــاهرية الكلام مجموع لغه الفقهاء فى داخلية نفسى بالاضـــافة الى ما انفرد به من استخدامات وتعبيرات • انها تعيننى بخاصة على أن أفهم كيان اللغة كنسق موجة وكتطور منطقى لأحداث عرضيه ومصادفات وكشـــمول ذى معنى •

هذا هو المهم فى الواقع .لان كل ما نريد انؤكده كظاهريين هو أن اللغه ليست استخداما للرمز • وليست هذه العبارة فى حاجة الى اثبات لأنه ثبت كما أشار الى ذلك مييه Meillet أن التعبيـــر الرمزى لم يكن مرضيا الا فى الشكل الصوتى المحت • (راجع كتابه عن اللغة والكتابة ص ٢٩٠) • كذلك نلاحظ مع برادين من جهة أخرى أن كل لغة هى بالضرورة لغه عبارات أى لغة علاقات • (راجـــع كتاب علم النفس العام ص ٤١٣) •

اذن فاللغة ليست استخداما للرمز بقدر ما هى تمييز للاختلافات بين الدلالات • يتخلل تعبيراتنا فى العادة ظلال عديدة ومقدرات متباينه واللغة هى اكتشاف فروق الدلالة •

ويعين أبسط التعـــامل باللغة على اســـتخدام الرموز ولكنه لا يوفى بالقدرة على تمييز الدلالات مثل الصراخ الذى قد يفيـــد طلب النجدة وقد يفيـــد الاحساس بفرط اللذة • اذ لا يوفى بهذه القدرة على تمييز الدلالات الا عند تحقق اللغة تحققا ســـليما كاملا • ولذلك نقول مرة أخرى أن اللغـــة تتعلق بالاستطاعة لا بالتفكير . أعنى ان اللغة تستمد كيانها من الاستطاعة أو من القدرة لا من الانا المفكر .

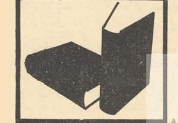
ولهذا تتكون اللغـــة وهى تقوم هى نفسهــــا بالتكوين . تتكون اللغة وهى تدفع الى اكتشـــاف أصالتها كلغة تقوم بالتكوين • ويتم تكوينهــا عن طريق المشاركة الشعورية وعن طريق تداخل الذوات فى تقاربها عند الأشياء المتفق عليها • ولا يصـــلح لها تكوين بغير أفق وبغير مستوى وبغير الاستخدام العادى البالغ المقدر •

فمن شأن الدلالات نفسها أن تبعث الحيـــاة فى الكلام • وتوقفها عند مرحلة معينة معناه الاقتصار على قدرة معينة • وقد لا تكفى الدلالات المحـدودة لحيازة اللغة • وبعد ما نتخطى الأعتاب الطفوليـــة أو القاصرة يصبح الترابط قـــويا بين الدلالة وبين اللفظ الدال كما يصبح التعبير نفسه وعيا •

وليس التعبير مجرد خطـــاب مع الآخرين • انه كذلك معرفة لما نهـــدف الى التعبير عنه • والكلام ليس سوى لحظة التقاء القصد الطـــامع فى الدلالة بالثقافة والفن • وبغير الكلام لا يتوفر لنا التبرير الحقيقى لتشابك العقول وتداخل الذوات • وتختفى أيضا دلالة اللغة كلغة أى كقدرة وكاستطاعه •

المكتبة العربية

المكتبة العربية





عدد الصفحات : ٢٢٤ صفحة ـ الطبعة الاولى سنة ١٩٦٣ ـ مطبعة دار التاليف بالقاهرة

١ ـ ينقسم الكتاب الى مقدمة يبين فيها منهج البحث وموضوعه والتحليل الصوتى (١ ـ ٣٧) ثم يعالج الكتاب بعد ذلك فى كثير من التفصيل الاصوات من ناحية الاجهزة التى تحدثها خاصة جهازى النطق والسمع (٤٠ ـ ٩١) .

ويتلو ذلك فصل عن الصوت وصفاته الطبيعية (٩٥ ـ ١٢٥) ، ويتناول الجزء الاخير والهام من الكتاب الاصوات اللغوية وتحليلها ووصفها ثم يختتم ذلك كله بعرض للاصوات الدولية (١٢٩ ـ ٢١٩) .

٢ ـ يعرض الكاتب اول ما يعرض فى مقدمة الكتاب لتطور الدراسات اللغوية فيذكر أنها انتقلت من مرحلة التأمل الى مرحلة العلم المنظم بعد أن ارتبطت بدراسة النصوص المقدسة ، وحتى هذه الايام نرى من حوالينا مدارس لغوية تقليدية يعتبر أصحابها الخروج على مقرراتها الحادا وزيغا. والكاتب بهذا يسلك نفسه فى عداد المدارس اللغوية غير التقليدية ، والفروق بين هذه المدارس غير واضحة تماما لان المادة اللغوية فى لغة ما هى هى لا تتغير كثيرا فى حقبة غير قصيرة من الزمان ولكن يختلف نظر الدارسين كل حسب فكره ومنطقه وكما أوضح جيته من قبل Goethe فان المادة الفكرية هى هى ولكن يختلف الكتاب فى صياغتها .

أما المدارس اللغوية التقليدية التى يعتبر اصحابها الخروج على مقرراتها الحادا وزيغا فلم يحددها الكاتب ، ولعله يقصد بذلك بعض المتاخرين من اللغويين العرب . والمقلدون من اللغويين شأنهم شأن غيرهم من المقلدين فى شتى مناحى الحضارة الانسانية يصرون على التمسك بالقديم ويتشبثون به لانهم لا يملكون القدرة على ابتكار غيره ولا تواتيهم فرص العمل المبدع الذى به يحافظون على خير مافى القديم ويندفعون الى آفاق الحياة الجديدة المبتكرة. ولا ينبغى أن يأسى اللغويون العرب اليوم على ان بين المدرسة العربية مجموعة من المقلدين ، فلعل هذه القشرة الصلدة من التقليد التى غشيت التراث الفكرى واللغوى عند العرب فى فترات جمودهم وعقمهم هى التى حفظت مع ذلك هذا التراث ان يضيع وان يندثر . والدفعة الحضارية حين توافى أمة من الامم تشمل مظاهر الحياة جميعا من فكر وفن ومال وحرب وفى هذا الانتعاش الحضارى تقوم مدارس التجديد فى هذه الميادين

كلها اما حين تغشى الامم نوبات الانكماش الحضارى فان دور المقلدين — على عجزهم — دور هام يحفظ اصول الحضارة بفكرها وفنها حين يعز المال وتعز الغلبة فى الحروب .

٣ — ثم يسرد الكاتب ثلاث مسائل يهاجم فيها المقلدون كل تفكير لغوى حديث :

١ — تغيير قواعد اللغة .
٢ — تجديد مفرداتها .
٣ — تعديل طريقة الكتابة .

ومعلوم ان قواعد اللغة لا تتغير الا ببطء شديد ولا نستطيع فى مدى عشر سنين او ما يناهزها ان نغير من ملامح لغة ما او قواعدها الصوتية والصرفية والنحوية ، لأن تغير أحد هذه الملامح قد يستغرق القرون الطوال . ولكن العربية تنفرد هنا — دون غيرها من اللغات باستثناء السنسكريتية واللاتينية (كلتاهما لغتا ادب قبل أن تكونا لغة حديث وصحافة) — بأن لها تراثا شفويا ظل متصلا لم ينقطع منذ تنزل القرآن بها ، ولعل هذا هو السر الاكبر فى بقاء قواعدها دون تغيرات كبيرة حتى اليوم .

أما تجديد المفردات فأمر تحدده اذواق أبنائها على آماد متطاولة من الزمن كذلك فيدخل فى اللغة من المفردات ما قد لا يتفق مع قواعدها الصوتية او الصرفية او النحوية ثم تحور فيه العلامات اللغوية فى اللغة حتى يأخذ بعضه سمات اللغة التى دخلتها ، كما قد يخرج من اللغة من المفردات ما لا يحتاج اليه اصحابها فى فترة من الفترات .

بقيت بعد ذلك مسألة تعديل طريقة الكتابة العربية ، وهى مسألة ليس من اليسير ابداء الرأى فيها دون دراسة مستفيضة ، ولكن يبدو ان من المبادىء المتفق عليها هو ان الكتابة العربية فى حاجة الى تبسيط وان هذا التبسيط امر تستوجبه الظروف الحاضرة ما لم يكن فى التبسيط قطيعة او مباعدة بين حاضرنا وتراث ماضينا .

وفى الكتاب اقتراح يستحق الدراسة أشار اليه المؤلف ص ٢٠١ (حاشية ١) حين استغنى عن النقط فى الرموز الصوتية التى استعملها .

الوصفية والمعيارية :

٤ — ثم يتحدث الكتاب عن الوصفية والمعيارية فى اللغة ويتحدث عن العالم الوصفى بأنه واقعى وبأن العالم المعيارى مثالى « لان اولهما يصف الواقع . اما ثانيهما فانه يتخذ لنفسه مثالا يضع على نسقه ما شاء من وقائع » . ولكنه يردف ذلك بقوله ان « الدراسة الوصفية هى الاساس الذى تقوم عليه القواعد المعيارية السليمة » فهناك اذن معيارية سليمة ومعيارية غير سليمة ، ولو ان الفرق بينهما لم يبدو واضحا من خلال الكتاب . فالمعيارية فى الاصطلاح الغربى هى افتراض انماط اللاتينية مثلا نموذجا يطبق على كل اللغات الحية فى الغرب فاذا وجدنا فى اللاتينية الحالات cases اللواحق الاعرابية ، فذلك امر وصفى يصدق على اللغة اللاتينية ولكنا لا ينبغى أن نتخذ اللاتينية معيارا ونفترض بعد ذلك انه ما دام فى اللاتينية لواحق اعرابية لا بد ان نفترض وجود هذه اللواحق او هذه الحالات كلها فى الانجليزية مثلا بعد ان اختفت هذه الحالات من الانجليزية عبر تطورها التاريخى . والمعيارية فى هذه الحال خاطئة . اما ان ندرس بعض اللغات دراسة وصفية ثم نستخلص من هذه الدراسات قواعد لغوية عامة تصدق على كل افراد هذه المجموعة من اللغات ، فذلك ما يدخل فى باب نوعيات اللغة او عمومياتها universals (١) وهو نوع من الدراسة ما زال فى مراحله الاولى فى الغرب لان عدد اللغات الانسانية التى درست حتى اليوم ما زال عددا محددا .

٥ — التحليل الصوتى :

تناول الكتاب بعد ذلك التحليل الصوتى من ناحيتين : التحليل التشريحى وتحليل طبيعة الصوت . والتحليل التشريحى اسبق فى الوجود التاريخى الحديث من التحليل الطبيعى ولو ان الاخير قد استفاد فائدة كبرى باستعمال بعض الآلات الحديثة التى نقلت تحليل الصوت شوطا بعيدا فى الاعوام الاخيرة نحو البحث العلمى العملى . والواضح مما سرد فى الكتاب ان تشريح اجهزة النطق سبق تشريح جهاز السمع بوقت طويل وحتى حين بدأ العلماء يحللون طبيعة الصوت اعتمدوا على اجهزة النطق اكثر مما عنوا بالبحث فى جهاز السمع .

وللمؤلف هنا دقة فى الاداء العلمى وفى استعمال الالفاظ لاعضاء النطق والسمع ينبغى ان يوفى حقه منها فان كثيرا من اسماء الغضاريف والعضلات التى استعملت فى وصف تشريح اجهزة النطق جديدة على العربية فيما اعلم ولا بد انها اقتضت المؤلف مجهودا ووقتا كبيرين ، ولعل له الفضل فى استحداث هذه الاسماء فى دراسة الاصوات العربية .

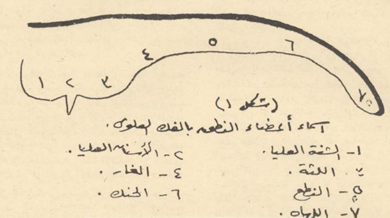
غير أن هناك بعض الملاحظات على اسماء اجزاء النطق فى الفم يمكن اجمالها فيما يلى :

ا) ليس هناك اختلاف كبير بين القدامى والمحدثين فى العربية على اسماء اجزاء اللسان .

ب) هناك اختلاف كبير بين المحدثين من عرب وغير عرب وبين القدامى فى اسماء اجزاء الفك العلوى الداخلى مقابل اللسان . ومع

(١) J. Greenberg Ed. Universals of Language. 1964.

التسليم بأن تحديد اقسام لهذا الجزء واعطاء كل قسم منهـا اسما ، كلها امور اعتبارية الا ان توحيـد المصطلحات امر مرغوب فيه من الوجهة العلمية . ويبدو ان هذا التقسيم الذى اشار الى بعضه الكتاب يمكن ان يتخذ تقسيما اصطلاحيا لوصف الاصوات العربيـة والاصوات فى بعض اللغات الاخرى ، ولعـل فى ذلـك توفيقا بين ما عرضه الكتاب فى صفحتى ٨٤ ، ١٩٥ (شكل ١)



د) عند الحديث عن الاصوات الانسانية نرى الكتاب ص ١٢٢ يسمى بعض الاصوات اصواتا « غير الحنجرية » تمييزا لها عن غيرها من الاصوات « الحنجرية » . وهو يعنى هنا بالاصوات « غير الحنجرية » الاصوات « المهموسة » التى لا يصاحبها ذبذبات فى الاوتار الصوتية ، او الشفاه الصوتية . اما الاصوات الحنجرية فيقصد بها الاصوات المجهورة التى تصاحبهـا ذبذبات الاوتار الصوتيـة ، وواضح ان « مجهـور » بدلا من « حنجـرى » و «مهموس» بدلا من «غير حنجرى» يتفق مع العرف السائد اليوم اكثر من غيرهما من الاسماء .

كما ان تسمية الكتاب لكلمة formants بالحزم التكوينية كان من الممكن الاستعاضة عنه بلفظ واحد وهو « المكونات » .

اصوات اللغة :

يمكن تقسيم هذا الباب اقساما اربعة : مقدمة ، الحركات ، السواكن ، الاصوات الدولية .

٦ ـ يورد الكتاب فى المقدمة مثالين يتناولهما بالتحليل الى اصوات الحركة والسكون، ولكن يبدو ان التحليل لا يطابق المثلين تمام الانطباق ، فنرى تحليل المثل الاول ينسى تحليل التاء ص ١٣٠ ، بينما لم يرد فى تحليل المثل الثانى تحليل الفتحة الاخيرة ص ١٣٢ .

ثم نرى بعد ذلك تقسيما للاصوات حسب اسماعها resonance (١) يخالف ما درج عليه كثير من الكتاب خاصة فى الولايات المتحدة ، فنجد مثلا صوت اللام قد وضع فى المرتبة الرابعة فى قوة الاسماع وهو عادة فى المرتبة الخامسة وكذلك صوت الحركة (a) وضع فى المجموعة الخامسة وهو عادة ينفرد بوجوده فى مجموعة قائمة بذاتها تسمى احيانا المجموعة السادسة .

وهناك محاولة الربط بين الدفعات الهوائيـة (breath groups) التى تخرج من الرئتين فى أثناء الكلام وبين مقاطع الكلام ذاته ، فنرى ص ١٥٠ و ص ١٤١ من قبل ذلك تأكيدا لوجود هذه الصلة وليس هناك ما يثبت ذلك بالتأكيد اذ ان الدفعة الهوائية قد تستغرق اكثر من مقطـع فى بعض الاحيان .

٧ ـ هناك تأكيد واع لمعنى هام فى الدراسات اللغوية وهو مبدا النسبية الداخلية internal relativity اى ان الاصوات فى طولها او فى مدى جهرهـا لا يكون لها طول او جهر قائم بذاته بل يرد دائما طول الصوت او مدى جهره الى مجموعة اصوات اللغة الاخرى ، وفى هذا تأكيد لمعنى اساسى وهو ان لكل لغة نظاما قائما بذاته لا يشـابه غيره من النظم وان اتفق معه فى بعض اسسه او تفاصيله .

(١) انظر : General Phonetics : R.M.S. Helfner
Phonetics. : Pike p. 69
Language Bloomfield p. 102

٨ ـ الحركات :

يذكر الكتاب (ص ١٥٧) ان الاصوات الانفية يقفل فيها فراغ الفم ولتمكين الهواء من المرور عن طريق الانف تلتقى اللهاة بمؤخرة اللسان فيقفلان فراغ الفم . والمعروف ان الفرق الاكبر بين الاصوات الانفية والاصوات الفموية هو فى أن الاصوات الفموية تخرج من الفم بعد أن يكون الحنك قد رفع ولامس الحائط الخلفى للبلعوم حتى يمنع خروج الهواء عن طريق الانف .

اما فى الاصوات الانفية فيتدلى الحنك ليسمح لهواء النفس بالخروج من الانف ولا يمنع ذلك خروج بعض هواء النفس من طريق الفم كذلك . ويوضح ان هناك التصاقا بين مؤخرة اللسان والحنك المتدلى فى اثناء النطق بصوت النون الحنكية(N) ويناظرها فى العربية النون التى تسبق الكاف او الجيم المصرية فانه لا يحدث مثل هذا الالتقاء بين الحنك المتدلى واللسان فى صوتى الميم والنون(n) (m)

ثم يفصل الكتاب فى وصفه لما سماه « بالحركات المعيارية» وهو يقصد بها Cardinal Vowels وواضح ان استعمال كلمة معيارية هنا قد يوهم بأن المعيارية هنا هى المعيارية المعيبة التى تحدث عنها اول الكتاب ولعله كان من الانسب استعمال كلمة الاساسية بدلا من المعيارية فتكون هذه الحركات هى الحركات الاساسية .

وفى وصف الحركات الاساسية الثانوية يورد الكتاب امثلة ثلاثة لا يتفق معه فيها كثير من الباحثين (ص ١٦٥)

١ ـ الصوت (e) وهو صوت اساسى وليس صوتا من اصوات اللغة الانجليزية ، فلا يستقيم ان يقال ان هذا الصوت هو كما فى الكلمة الانجليزية get وذلك لان (e) الانجليزية ادنى الى الفك الاسفل من نظيرتها الاساسية .

وكذلك الحركة الاساسية تشابه الحركة الانجليزية (ɛ) ولكنها أعلى منها قليلا وهى فى هذه الحالة لا تشبه الحركة فى الكلمة العربية (باع) لان اقرب الحركات الى هذه الحركة فى العربية هى حركة (æ) فى اللغة الانجليزية كما فى man, ran, catch

كما ان كلمة got عند الامريكيين تنطق gat ولا تنطق (got) كما هو الحال فى اللهجات البريطانية . ولهذا فان الامثلة على توجد فى اللهجات البريطانية ولا توجد فى معظم اللهجات الامريكية فى مثل هذه الكلمات التى وردت فى الكتاب .

والحركات فى جملتها مجهورة ولكنها قد تكون مهموسة كما فى بعض اللغات الامريكية الاصلية .

٩ ـ « أشباه » الحركات :

يتناول الكتاب « اشباه » الحركات فى موضعين: اولهما ص١٧٤ والثانى حين يتناول وصف الحركات والسواكن الدولية وهى الحركات والسواكن التى انعقد الراى على انها موجودة فى معظم لغات العالم المدروسة والتى تتحدث عيها I. P. A. الجمعية الدولية الصوتية
International Phonetic Association

ونصف الحركة فى الواقع حركة انزلاقية أقصر مدى من الحركات العادية، وهى تسمى عادة glide وذلك لان الانتقال مما قبلها من ساكن او الى ما بعدها من ساكن يكون سريعا اكثر منه فى حالة السواكن او الحركات عادة فى اللغة الانجليزية .

ولكن هذا الطول والقصر امران نسبيان ، كما تقدم الكلام عن ان لكل لغة تناسبها الداخلى فى اصواتها ولا يقاس فيها الطول على اطلاقه ولكنه يقاس على انه جزء من نظام عام فى الحركات وفى السواكن جميعا. فالحركة فى الكلمتين الانجليزيتين مثلا bit و bid تتفاوتان تفاوتا تلحظه الآلات المحللة اذ نرى ان (i) فى bid اطول قليلا من bit ولكنها مع ذلك عادة اقصر قليلا من (ea) (iy) فى beat وواضح ان الفرق هنا هو فرق فى شبه الحركة التى تأتى بعد (i) فى beat

وهذا لا يمنع ان تكون الحركة الانزلاقية صوتا ساكنا فى بعض الاحيان ، فمن الواضح فى الانجليزية ان هناك تشابها ـ وان قصر هذا التشابه عن ان يكون تماثلا كاملا ـ بين (y) فى (iy) فى كلمة beat وبين (y) التى تأتى فى اول كلمة نعم (yes) ولكن (y) الاولى انزلاقية بينما هى اقرب الى السواكن فى كلمة yes . ولعل هذا هو السر فى ان اللغويين الغربيين اطلقوا على هذه الحركة الانزلاقية شبه حركة semi-vowel . وتحدد اشباه الحركات فى كل لغة على حدة دون نظر الى ما قد يوجد او لا يوجد فى غيرها من اللغات .

ففى العربية مثلا صورتان يمكن ان تسميا شبه حركة وهما الواو والياء .

اما فى اللغة الانجليزية الامريكية فاشباه الحركات ثلاثة الواو والياء والراء، واشباه الحركات فى اللغة السنسكرتية القديمة اربعة : الواو والياء والراء واللام . بل ان اللام المنعكسة retroflex والراء المنعكسة كذلك تعتبران حركات وليستا انصاف حركات فى اللغة السنسكرية (١) .

وفى الموضع الثانى يحاول الكتاب ان يصحح مفهوم شبه الحركة عند الدكتور ابراهيم انيس(٢)، ويرى ان صاحب « الاصوات اللغوية » قد التبس

(١) Whitney : Sanskrit Grammar
(٢) الاصوات اللغوية : ابراهيم انيس ١٩٦١ .

عليه فهم معنى كلمة semi ففهمها على انها شبه حركة وهى نصف حركة . والواقع هنا ان الصواب فى جانب الدكتور انيس لان كلمة semi = شبيه فى اللغة الانجليزية . ومع انها قد تعنى نصف فقد تعنى كذلك الشبيه الجزئى ، وهى فى هذا المعنى الاصطلاحى بالذات semivowel تعنى

A vocal sound that partakes of the nature of a vowel and of a consonant.

« شبه الحركة » وكما جاء فى قاموس اكسفورد(١) « صوت مجهور يشارك فى طبيعة الحركة والساكنة » .

١٠ ــ السواكن :

ثم يعالج الكتاب موضوع السواكن بعد ان يقوم بدراسة سريعة لبعض الاصوات غير اللغوية وهى اصوات قد تكون ingressive مشهوقة وليست egressive مزفورة . واصوات اللغات المعروفة تكون فى غالبها اصواتا مزفورة اى انها تحدث نتيجة خروج النفس من الرئتين الى الهواء الخارجى عن طريق الانف او الفم او طريقهما معا . ثم يشرح الاصوات الانطلاقية والترددية .

ولكنه حين يصل الى الحديث عن السواكن فى العربية لا يفرق بين بعضها وبين بعض مثيلاتها من اللغات الاخرى كالانجليزية مثلا اذ من الواضح ان من الفروق الظاهرة بين t.d.s.z.n.l.r فى الانجليزية مثلا وبين مثيلاتها فى العربية ان وضع اللسان مختلف فى الحالين فهو فى حالة الاصوات العربية المناظرة اسنانى اكثر منه لثويا بينما الحال بالعكس فى اللغة الانجليزية اذ أن هذه الأصوات alveolars او لثويات وليست اسنانيات (٢) .

١١ ــ الاصوات الدولية :

ويحاول الكتاب هنا ان يصف لقراء العربية ــ ولعل ذلك للمرة الاولى فيما اعلم ــ الاصوات الدولية للساكنات كما جاءت فى كتاب

The Principles of the International Phonetic Association

« مبادىء الجمعية الدولية الصوتية »

ومجموع الاصوات السواكن التى جاءت فى هذا الكتيب ٦٥ صوتا ومجموع الحركات ٢٨ صوتا اكتفى الكتاب بالاشارة الى ٦١ منها من الساكنات ولم يشر الى الحركات .

(١) The Oxford English Dictionary Vol. IX. p. 446.

(٢) Lehn and Slager : Language Learning (vol. IX. 1959).

اما الاصوات الدولية التى لم يشر اليها الكتاب ــ وهى هنا كلها سواكن ــ فهى :

١ ــ نوع من الراء التى تشبه الراء العربية فى انها ترددية ولكنها تزيد عليها انها احتكاكية وهى آراء توجد فى اللغة التشيكية .

٢ ــ نوع من الكاف توجد فى الفارسية ولاتوجد فى العربية وهى نطعية وقفية (او انفجارية) مهموسة .

٣ ــ نوع من الجيم التى توجد فى بعض لهجات الفرنسية وفى اللغة الهنغارية وهى نطعية وقفية (او انفجارية) مجهورة .

٤ ــ نوع من الغين الحنكية المجهورة ولكنها هنا شبه حركة وليست حركة او ساكنا .

١٢ ــ ملاحظات عامة :

تبقى بعد هذا ملاحظات عامة تستتبعها جدية البحث وجدته ، فالكتاب جديد فى بابه وجاد فى منهجه . ولا احسب أن هناك كتابا سبقه به احد من اللغويين العرب المعاصرين وله نفس عنوانه تقريبا الا الدكتور ابراهيم انيس فى كتابه « الاصوات اللغوية »

١ ــ واولى هذه الملاحظات هى ان الاصوات العربية التى نلفظها وننتسب اليها لم تعط حقها الكامل من الدراسة بعد فهناك صوتان فى العربية لم يستطع اهل الغرب ان يحللاهما تحليلا كاملا بعد وهما صوتا العين والحاء . وما وصفهما به المتقدمون والمتأخرون العرب لا يشفى غلة أمام هذه المستحدثات الجديدة فى التحليل والوصف اللغوى .

ولئن نقل الكتاب عن هفنر وصفه لهذين الصوتين فان هفنر بدوره قد نقل عن غيره من امثال Jones, Gairdner

ولعل أقرب ما قيل هنا هو ان نطق هذين الصوتين يستتبع ارتفاعا فى الحنجرة واهتزازا فى المنطقة الحنجرية كلها مما دون لسان المزمار لا ندرى اليوم كيفيته على وجه التحديد ولكنا نستطيع ان نقول انه مهموس فى الحاء ومجهور فى العين .

بل انه لمن الممكن ان ينعكس اثر هذه الدراسة على هذين الصوتين على دراسة اصوات الحركة فى اللغات الغربية كذلك . ذلك لان الفتحة المفخمة (a) تشبه من وجوه كثيرة ما يصاحب العين والحاء من حركة قبلهما وبعدهما . وواضح

ان مؤخرة اللسان بما فى ذلك لسان المزمار يرتدان الى الوراء ارتدادا قد يقرب من التماس او التردد مع الجزء الخلفى من البلعوم . وبهذا نستطيع — حين يمتد بنا البحث فى هذين الصوتين من اصوات العربية — تعديل شكل أعضاء النطق وهى تحدث الحركة . (a)

ولقد بدا بعض الغربيين فى الالتفات لهـــذه الظاهرة فنرى De lattre يوضح الفرق بين نطق الحركات الامامية (e) (i) وبين نطق (a) (١) مخالفا بذلك Daniel Jones ومتفقا مع باحث ممتاز حديث هو لاديفوجد (٢)

ولعل اوضح ما يقال فى هذا المجال هو ان كلا من الحاء والعين صوتان احتكاكيان نتيجة ضيق المجرى البلعومى الحنجرى ضيقا يسبب الاحتكاك فى مجرى النفس مع ذبذبة لسان المزمار ذبذبة تستمر وقتا غير قصير ولكن احدهما ، وهو الحاء مهموس ، والآخر ، وهو العين ، مجهور . وهذه الذبذبة السان المزمار تحدث عند احداث بعض الحركات وخاصة (a)

وبهذا يمكن ان يقال بصفة مبدئية ان العين ساكن مجهور ترددى عند لسان المزمار
a voiceless epiglottal trill

(انظر شكل ٢)

١ الأنف
٢ الشفتان
٣ الأسنان
٤ اللثة
٥ الغار
٦ النطع
٧ الحنك
٨ اللسان
٩ الحبال الصوتية
١٠ الحنجرة
لسان المزمار

(شكل ٣)

شكل اللسان عند نطق [a] و [ع] و [ح] - ويلاحظ تردد لسان المزمار .

والحاء ساكن مهموس ترددى عند لسان المزمار .
a voiced epiglottal trill

ب — وهناك كذلك ما لا بد ان نصل اليه حين ناخذ بمبدا الدراسة الجادة للساننا ولالسنة غيرنا من ان نقيم دراستنا على احدث ما اتجه الغرب حتى لا نتخلف عنهم طويلا ، فلقد سبقنا الغرب فى هذا المضمار بخطوات طويلة ولكننا فى هذا الميدان — لحسن الحظ — خير حالا منا فى غيره من الميادين فدراسة الالسنة دراسة حديثة نسبيا فى الغرب، ولنا من تراثنا اللسانى هنا ما لم يتأت لاهل الغرب الا فى الفترات الحديثة . ومن هذه الدراسات المتقدمة دراسة الصوتيات phonetics تمييزا لها عن دراسة الاصوات . فدراسة اصوات اللغة Phonemics دراسة قيمة وهامة ، ولكنها لا يجب ان تنفصل عن دراسة صوتيات اللغة لان الصوتيات تعنى بالاصوات الهامة فى اللغة دون عناية بالاصوات المتغيرة بموقعها من الكلمة اوالجملة وما زلنا فى انتظار المزيد من دراسة الاصوات والصوتيات كذلك .

جـ — اما الملاحظة الاخيرة فهى حاجتنا كذلك الى هذه الدراسة الجادةالمنظمة للغتنا ولغيرها من اللغات ومحاولة المقارنة بين هذه اللغات وبين لغتنا حتى نحسن تعليم لغتنا لغير العرب ونحسن تعلم لغات غيرنا . فالعـــزلة اللسانية اصبحت امرا مستحيلا فى عالم اليوم لمن يريدون ان يقيموا الطرق بين ثقافتهم وحضارتهم وثقافة غيرهم وحضارته . وهناك ابحاث جادة نشرت فى هـــذا الموضوع . ومن ابرز ما نشر فى هذا الباب هو هذا الجهـــد المشترك بين الانجليز والامريكيين فيما يسمى :
West African Language Monograph

ويشرف على هـــذه الابحـــاث الدكتور يوسف جرينبرج فى امريكا والدكتـــور جون سبنسر فى بريطانيا . وكان اول ما نشر فى هـــذه المجموعة بحث بقلم بيتر لاديفوجد Peter Lade foged الاستاذ بجامعات ادنبره سابقا والاستاذ بجامعة كاليفورنيا حاليا . وقد تداول فيه مقارنة اصـــوات احدى وستين لغة من لغات غرب افريقيا فى دقـــة بالغة وبصر بالغ ومثـــابرة ممتازة مدعمـــة بالاحصائيات الدقيقة .

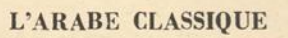
ومما يتصل بهذا الموضوع ضرورة تفكير الجامعات العربية هنا وفى البلاد العربية الاخرى تفكيرا جديا فى الدراسة المستبصرة الدائبة للساننا ولالسنة غيرنا وتزويد اقسام التخصص فى اللغات بمعامل حديثة تستطيع ان تقوم على الابحاث فى لساننـــا وفى غيره من الالسنة كذلك .

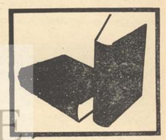
(١) Delattre; Comparing the Vocalic Features of English, German, Spanish and French. IRAL vol. II/2.

(٢) A. Phonetic Study of West African Languages: P. Ladefoged.









العربية الفصحى

للمستشرق الكبير الدكتور
هنرى فليش

عرض وتحليل : د. عبد الصبور شاهين



يكون الدكتور هنرى فليتس - فيما نعلم - المتخصص الوحيد بين المستشرقين الاوربيين المعاصرين ، على اختلاف طوائفهم ، فى فقه اللغة العربية ، بالمعنى الضيق للتخصص ، لا سيما الجانب الصوتى ، وما يتفرع عنه مباشرة : جانب الصرف La morphologie على حين آثرت كثرتهم الاتصال العام بفروع الثقافة الشرقية الاسلامية ، ومن بينها الدراسات اللغوية .

ولقد يدعونا الى هذا القول فى مستهل تقديمنا لكتابه عن « العربية الفصحى » اقتصاره على معالجة هذين الجانبين فى مؤلفين كبيرين ، يعدان خير ما يتوج أعماله العلمية :

أولهما : (والترتيب هنا زمنى) كتابه الذى نقدمه اليوم الى قراء (المجلة) ، وقد نشره عام ١٩٥٦ بعنوان L'Arabe classique وقصد به ان يكون محاولة لعرض تأملاته فى مشكلات الاسم والفعل فى اللغة العربية الفصحى ، من الوجهة الاشتقاقية ، وما يتبع ذلك من نقد للمناهج التى قام عليها تصنيف الظواهر اللغوية بعامة ، فى اعمال القدماء من النحاة واللغويين العرب .

وثانيهما : كتابة العظيم عن « فقه العربية » ، وقد نشر الجزء الأول منه عام ١٩٦١ بعنوان : Traité de philologie arabe ، وخصصه ايضا لعلاج الجانبين : الصوتى ، والصرفى ، وبخاصة صرف الأسماء . غير أنه توخى هنا الاسهاب والتقصى الدقيق لكل مفردات النظام الصوتى والصرفى ، على حين التزم فى كتابه الذى نقدمه اليوم اللمح والتركيز على الجوانب المهمة ، أو التى راى فيها رأيا جديدا ، أو كشف فيها عن اتجاه جديد ، ومن أجل هذا آثرناه بالتقديم .

ولهذا الاتجاه لدى فليش الى دراسة جانبى الأصوات والصرف ، وايثارهما بمزيد من الاهتمام

– ما يسوغه ، فهما الأساس الذى تقوم عليه اية دراسة اخرى فى مجال التراكيب (او مجال النحو) أو فى مجال علم الدلالة (أو علم المعنى) ، او فى غير ذلك من فروع الدراسات اللغوية ، هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى هما فى الغالب مجال يمكن ان يحدث فيه تجديد ، سواء من حيث اعادة تصنيف الظواهر، أم من حيث استخراج بعض القوانين أو النظم على ضوء تصنيف جديد ، وان كان الميدان اللغوى بعامة قد اثرى فى الأعوام الأخيرة بمحاولات متعددة لتطبيق مناهج غربية على مختلف مستوياته ، ومن ذلك ما قام به الاستاذ الدكتور ابراهيم انيس فى ميدان اللهجات العربية ، او فى ميدان الظواهر اللغوية العامة ، او فى دلالة الالفاظ . او الدراسات الصوتية فى مستواها الشعرى الموسيقى ، او التجريدى العلمى ، وتلته بعد ذلك محاولات معروفة ، تتفاوت فى حظها من التوفيق .

وربما كان من المناسب – من أجل التعريف بالمؤلف الذى يتحدث عنه فى الصحافة المصرية للمرة الأولى – ان نشير هنا الى مجموعة اعمال علمية قام بها فى غير ميدانى الأصوات والصرف . فقد نشر عام ١٩٤٧ كتابا بعنوان : (المدخل الى دراسة اللغات السامية) :

Introduction à l'Etude des Langues sémitiques

كما نشر الجزء الرابع من القاموس العربى الفرنسى للمستشرق بارتلمى عام ١٩٥٠ ، ونشر الجزء الخامس منه عام ١٩٥٤ ، وكتب له مقدمة فى جزء مستقل .

وأكمل نشر كتاب « تفسير ما بعد الطبيعة » او « الشارح الأكبر » لابن رشد ، وكان قد بداه الأستاذ م. بويج .

وله غير ذلك ما يربو على خمسة وثلاثين بحثا ومقالا نشرت كلها فى المجلات الاستشراقية ، وثمانية واربعون تقريرا عن أعمال الاستشراق . ومن اهم بحوثه فيما يتصل باللغة العربية :

١ – بحث فى النظام الفعلى فى السامية المشتركة ، وتطوره فى اللغات السامية القديمة ، وبخاصة العربية – نشر بباريس عام ١٩٤٨ .

٢ – مذكرات عن اللهجة العربية فى زحلة ، بلبنان :
Note sur le Dialecte Arabe à Zahlé

٣ – دراسة فى علم الأصوات العربى :

Etude de Phonétique Arabe

٤ – دراسة عن الفعل العربى :

Etude sur le Verbe Arabe

٥ – تاريخ النحو العربى .

Esquisse d'une Historique de la Grammaire Arabe

٦ – التفكير الصوتى عند العرب فى ضوء سر صناعة الاعراب لابن جنى :

(سر صناعة الاعراب)

La Conception phonétique des Arabes d'après

٧ – الجانب المعجمى فى الجملة العربية الفصحى :
L'Aspect Lexical de la Phrase Arabe Classique

٨ – ملاحظات عن الدراسات الفونولوجية (التنظيمية) فى العربية الفصحى :

Observations sur les Etudes phonologiques en Arabe classique

٩ – العربية الفصحى والعربية اللهجية :

Arabe classique et Arabe dialectal

وله فى دائرة المعارف الاسلامية فى مادة العربية) بحث عن اللهجات الشرقية ، الى جانب اكثر من خمسة وعشرين بحثا نشرت فى دائرة المعارف فى غير الميدان اللغوى . وله بحوث أخرى كثيرة عن اللهجات العربية الحديثة ، أو عن اللغات السامية ، كما كشف عن بعض المخطوطات العربية .

والواقع أن هذا العمل الضخم الذى اضطلع به الدكتور هنرى فليش ، يعطى القارىء فكرة واضحة عن حياة رجل ترهب فى خدمة اللغة العربية الفصحى ، واللهجات الحديثة ، سواء فى مجال الدراسة التفسيرية ، او فى المجال التنظيمى ، عندما يحاول أن يطبق مناهج غربية على مشكلات او موضوعات يزعم الكثيرون أنها قد نضجت ، أو قتلت بحثا ، فاذا به يعرضها من وجهة نظر جديدة ، تروع قارئها منذ الوهلة الأولى ، وتستولى على ذكائه . ولسوف يظهر ذلك الجانب فى عرضنا هذا الكتاب (العربية الفصحى) .

واول ما يلفت النظر فى طريقته فى عرض بعض المشكلات أنه يعرضها كما هى فى مادتها القديمة ، بكل ما يتصل بها من نصوص وآراء ، وبكل تفصيلاتها ومفرداتها ، دون اقحام لشخصه ، ودون اغضاء عن الجزئيات ، التى قد تبدو احيانا تافهة ، حتى ليبدو لعين القارىء السطحى انه لم يات فيها بجديد ، ولكن سرعان ما يتعرف القارىء على ملامح الباحث من خلال ادراكه لموقفه المنهجى ، فهو لايسلم بكل ما أورد من مادة ، أو ساق من نصوص ، وانما هو يتخير الصواب فيحتج به على ما يراه غير

صواب ، ليخرج بوجهة نظر جديدة ، وهنا يسوق مقترحاته التى يرى انهـا تحل المشكلة ، او تسلط عليها ضوءا جديدا ، او تسد ثغرة فى البناء اللغوى المأثور .

ولننظر مثلا الى القسم الأول (الصوتى) ، فقد تعرض فيه لدراسة ثلاث نقاط :

أولاها : المادة الصوتية ، ويعنى بهـا الصوامت : Les consonnes ، والمصوتات : Les voyelles

وثانيتها : المقطع : طبيعته ، وانواعه .

وثالثتها : اتجاهات عامة تتصل بخصائص النطق العربى .

ولكى ندرك موقفه فى دراســـة المادة الصوتية يجدر بنا ان نرجع الى كتابه السابق ذكره عن « علم الأصوات العربى » لنجد فيــه ما يعنيه بجملة من الألقاب ، اطلقها على مجموعات معينة من الأصوات العــربية ، وبعض هذه الألقــاب قديم الاطلاق ، فالتزمه حين لم يلتزمه بعض المحدثين من المؤلفين العرب فى علم الأصوات ، وبعضها من ابتداعه هو ، حين وجد أن القدماء لم يضعوا مقابلا له ، فحاول ما وسعته المحــاولة ، ليجد كلمة عربية تصلح ان تكون مقابلا للمصطلح الفرنسى فى لغته .

ويظهر هــذا بجلاء فى هذه المجمــــوعة من المصطلحات الفرنسية فى كتاب (العربية الفصحى) ومقابلاتها العربية فى كتابه عن علم الأصـــوات العربى :

Labiale= شفوى ، Dentale= اسنانى ،
apicale= ذولقى ، prepalatatale= نطعى ،
Latérale= حافى (والحافى هو الجانبى فى اطلاق بعض المحدثين العرب) .

كمــا نجد لديه بعض المصطلحات الجديدة مثل (حفافى) ، ويعنى به المنطقة الرخوة التى تلى اقصى الحنك الصلب ، وهو مقـــابل المصطلح الفرنسى Vélaire

يقول فى كتابه (دراسة فى علم الأصـــوات العربى (ص ٢٤٢ ما ترجمته : « هناك كلمة قديمة تطلق على الحنك الرخو هى (الحفاف) ، وقــد فسرها اللسان نقلا عن الأزهرى بقوله : (والحفاف : اللحم الذى فى اسفل الحنك الى اللهاة) ، وهو اوضح مما قاله الأصمعى فى كتابه : (كتاب خلق الانسان) قال : (واللحم الذى فى أسفله ــ يقصد النطع ــ تسميه العرب الحفاف ، ومنه اللهاة) .. ثم يقول : فلفظة (حفافية) منطبقة اذن على أصوات المنطقة المسماة : Vélaire »

ونجد لديه ايضا مصطلح « حنجورى » فى مقابل Pharyngale ، والواقع انه أطلق لفظة (حلقية) على مجموعة الأصوات عميقة المخرج ، وهى (العين والحاء والهاء والهمزة) ، ولكنه قسم منطقة الحلق قسمين : أطلق على الأعلى منهمــا « الحنجور » ، وعلى الأسفل « المزمار » ، يقول فى كتابه ســالف الذكر ص ٢٤٣ : « هناك كلمة قديمــة عينت منطقة الـ Pharynx هى (حنجور) ، وقــد استخدم قاموس الدكتــور شرف (يقصد الدكتـــور محمــد شرف فى قاموسه : معجم انجليـــزى عـربى فى العـــلوم الطبيــة والطبيعية) ــ لفظة (بلعم او بلعوم) ، بيد أن هاتين الكلمتين لم تستعملا الا للمرىء « انظر اللسان » ، وكلمـــة (حنجور) أكثر تناسبا ، يقول اللســـان « ٥/٢٩٥ سطر ١٣ » : وقيل : هو جــوف الحلقوم ، وهــو الحنجور . فكلمة « حنجورية » ستكون اذن علما على الأصوات الحلقية ، أما الحنجرة فقـــد كانت مجهولة لدى العرب ، ولابد لها من كلمة جديدة ، وقد استخدم لها الدكتور شرف فى قاموسه كلمـــة (مزمار) ، وسيكون اذن لدينا من كلمة (مزمار) : « مزمارية » ...الخ... » .

فكلمة « حنجور » هى اذن من اختياره هو ، اما كلمة « مزمار » فمن مقترحات الدكتور شرف .

فها نحن اولاء نرى انه لم يشا ان يهمل ما وضعه القدماء من مصطلحات ، تقديرا لعملهم الذى سبقوا به الغرب فى هذا المضمار ، وقد كان بوسعه أن يجد مصطلحات أخرى حديثة ، فى كتب بعض أساتذة علم الأصوات فى جامعاتنا ، تتفاوت فى موقفها من مصطلحات القدماء . ونرى كذلك انه قارن نصـــا قديما بآخـــر قديم ليستخرج حكما بدقة احدهما أكثر من الآخر ، مسوغا بذلك اخــذه به ، ومنتهيا الى مصطلح جديد الاستعمال ، من مادة قديمــة الوجود فى العربية الفصحى ، من اجـــل ان يسد نقصا فى التنظيم القديم . هذا مثال بسيط ، ولكنه معبر عن اصالة المنهج الذى يشيع فى كثيــــر من موضوعات الكتاب .

على ان هذا الخط المنهجى ليس وحده الوصف الدقيق لمسلك المؤلف ، فان له فى مواضع أخــرى لمسات مبدعة ، تدل على استقلال بالفهم ، واحساس بالحاجة الى تعبير جديد ، غير ما درج عليه القدماء وذلك حين نجده يعبر عن نوعى الفعل العربى (الماضى والمضارع) بتعبير مغاير لما هو شائع فى الدراسات اللغوية ، حيث تطلق على الماضى تعبير : Le Passé وعلى المضارع تعبير : Le Présent . لقــد رفض المؤلف هذين التعبيرين الشائعين ، برغم ان شيوعهما يغرى باستعمالهما ، وفضل ان يقـــدم لنا تعبيرين آخـــرين ، يصوران لنا لمسة رائعة من اللمسات

المنهجية التى اختص بها ، فوضع للماضى تعبير : accompli ، وللمضارع تعبير . inaccompli

وربما بدا للقارىء من أول وهلة أن لا بأس من استخدام هاتين الكلمتين استخداما مطابقا للكلمتين القديمتين (الماضى والمضارع) ، ومع ذلك فلا بد من ملاحظة مغزى عدوله عن استعمال الترجمة الشائعة ، وايثاره تعبيره الجديد ، فقد لاحظ المؤلف ان وصف الفعل العربى بأنه (ماض) او (مضارع) لا يتوفر فيه الانسجام المنهجى الذى تنبغى مراعاته عند وضع المصطلحات ، فالأول منهما ذو ارتباط بالزمن ، اى ان له اساسا وظيفيا ، أما الثانى فانما سمى (مضارعا) لمضارعته اسم الفاعل فى الحركات والسكنات ، على حد تعبير القدماء ، وذلك يعنى انه مصطلح شكلى ، غير مرتبط بمدلوله الوظيفى ، ولا يعد اطرادا للاتجاه الذى أملى المصطلح السابق . ومن حيث قد طرأ الخلل على النظام بهذا الاختلاط بين الأسس ، فلا مناص من وضع مصطلحين جديدين ، فى اطار جديد منسجم ، حين يعبران عن المدلول الزمنى لكليهما . فاذا أردنا ان نترجم مصطلحيه الجديدين : accompli ، inaccompli — لم نجد خيرا من تعبير : التام ، اى : ما يفيد تمام الحدث ، وغير التام : اى ما يشير الى عدم انتهائه ، سواء أكان قد بدأ من قبل ، أم انه سيبدأ فى زمان مستقبل ، وهو مفهوم المضارع . فهذا مثال واضح على اتفاق الموضوع بينه وبين القدماء ، واختلاف المفهوم بينهما ، نظرا لاختلافهما فى التصور المنهجى .

ومن المواضع المعبرة تماما عن استقلاله المنهجى موقفه من حالات الفعل الاعرابية ، فهو يرى أن موقعية الفعل تدل على وظيفته فى الجملة ، وان هذه الوظيفة هى التى تحدد شكله الاعرابى ، ومعنى ذلك رفض التعليل القديم القائل بأن الفعل يكون مرفوعا اذا لم يسبقه ناصب او جازم ، فهو تعليل شكلى مسرف فى الشكلية ، وهو مرتبط ارتباطا وثيقا بنظرية العامل ، التى تعرضت للنقد فى القديم ، منذ ان شن ابن مضاء الأندلسى هجومه التاريخى على النظرية بأكملها ، فى كتابه المشهور ، وتعرضت للنقد ايضا فى الحديث على اقلام اللغويين المحدثين ، اذ انها نظرية تقوم احيانا على التقدير الوهمى ، والافتراض المنطقى ، اى على أمر تجريدى لتفسير شكل الكلمة العربية فى نهايتها ، ومن ثم لتفسير بناء التركيب العربى .

لقد ذهب المؤلف الى ان الفعل يكون مرفوعا فى حالة الـ indicatif ، ويكون منصوبا فى حالة الـ subjonctif ، ويكون مجزوما فى حالة الـ jussif ، ومفهوم ذلك ربط الشكل بالموقعية أو الوظيفة ، فليست الحالة الأولى سوى حالة « الاخبارية » ، اى حين يؤدى الفعل خبرا مستقلا ، غير معلق بشىء ، والمراد بالحالة الثانية « الانشائية » ان الفعل يكون دائما معلقا ، فهو فى طريقه الى أن يكون ، اثباتا او نفيا ، اى انه فى الغالب لما يشرع فيه ، وذلك هو الشأن مع اغلب النواصب .

ولقد ترد على ذلك استثناءات ، ولكنها لا تضر القاعدة الغالبة ، ففى حالة : (اريد أن يقوم التلميذ) مثلا ، نجد أن علاقة الفعل بما قبله علاقة مفعولية لم تحدث ، بل يراد انشاؤها ، وفى حالة (لن يقوم محمد) يمكن أن نجد نفس العلاقة ، اذا ما علمنا ان (لن) مركبة من : لا + ان — وهو مذهب قديم للنحاة ، فنفى (لا) المندمجة فى (لن) منصب على ما بعده : (أن يقوم محمد) ، فكأن (لا) حاملة لمعنى الفعل (ليس) ، وهو أمر يتكفل بتفسيره تاريخ اللغة . وفى حالة (جلست لأكتب) تتضح علاقة الفعل المنصوب بما قبله ، من حيث هو غاية له ، يراد انشاؤها ، فالكتابة غاية مترتبة على الجلوس وعلة له ، وهى مستقبلة بالنسبة اليه .

وبذلك تكون حالات استعمال المنصوب منحصرة غالبا فى الحالة التى تكون علاقة المنصوب فيها بما قبله علاقة انشائية .

أما حالة الـ Jussif ، وهى الحالة الثالثة ، فينطوى تحتها الفعل حين يقع بعد (لم ولما) ، والفعل الشرطى ، وهو الغالب ، كما يندرج فيها وقوع الفعل بعد لام الأمر ، ولا الناهية ، فاذا اطلقنا على الفعل بعد لام الأمر ولا الناهية لقب (الأمرى) ، وهو مقابل كلمة : Jussif ، مع التوسع فى معنى (الأمر) بأن يصدق على الأمر بالايجاب أو بالسلب ، وهو النهى — بقى لدينا مجموعة الأفعال الشرطية ، ويلحق بها الفعل بعد (لم ولما) ، ويمكن أن نخصها بتعبير (المجزوم) ، فألقاب الفعل على هذا تبعا لمنهج الدكتور فليش هى حين نقارنها بالتحديد القديم :

المضارع المرفوع	غير التام الاخبارى
المضارع المنصوب	غير التام الانشائى
المضارع المجزوم (١)	غير التام المجزوم
المضارع المجزوم (٢)	غير التام الأمرى

ومن الاتجاهات المنهجية الجديدة والبناءة لدى المؤلف ما ذهب اليه فى معاملة بعض المجموعات النحوية ، حين يوحدها فى مجموعة واحدة ، ويطلق عليها عنوانا واحدا ، يعد فى سياقه مصطلحا جديدا ، وذلك حين يضع المجموعات الأربع التالية تحت عنوان الـ Adverbe :

١ — المجموعة الدالة على الزمان
٢ — المجموعة الدالة على المكان

٣ ــ المجموعة الدالة على الكمية مثل : كثيرا .. قليلا .. جدا ..

٤ ــ المجموعة الدالة على السلوك ، مثل : رويدا .. حقا ..

فهذه المجموعات الأربع تشترك فى وظيفة واحدة داخل الجملة ، بالرغم من اختلاف أشكالها ، هى انها تضيف الى معنى الجملة قيدا من الزمان ، او المكان ، أو الكمية ، أو السلوك ، وبذلك استحقت شكلا اعرابيا واحدا ، هو النصب ، وان اختلف تفسير العامل فيه فى نظر النحاة احيانا .

افيمكن بعد ان نطالع هذا الحشد من العناصر المكونة لمعنى الـ Adverbe فى نظر فليش ان نتصور ترجمته بكلمة : « الظرف » المقتصر على قيدى الزمان والمكان ، على ما هو شائع ذائع فى ثقافة الدارسين والمدرسين فى كل مكان ؟ .. والذى ينبغى أن نلحظه فى تكوين كلمة : Adverbe ان لها عنصرين ، هما : Ad + Verbe ، اى مايضاف الى الفعل ، وهو ما توحى به هذه المجموعات من قيود المكانية ، او الزمانية ، او الكمية ، او السلوك ، المراد اضافتها دائما الى وظيفة الفعل فى الجملة ، وهو ملحظ يسوغ معاملتها نحويا بصورة واحدة ، على ما ذهب اليه بحق الدكتور فليش .

●

وربما كان من المفيد أن نتتبع فى هذا الكتاب الثمين علاج المؤلف لفكرة ، تناولها فى مستويات مختلفة ، وتدلنا محاولته على عمق نظرته المنهجية ، كما تكشف للقارىء عن الجهد الهائل الذى تجشمه لدراسة فكرة واحدة ، فى رجوعه الى المعاجم ، وتجميعه للأمثلة الكثيرة النادرة أحيانا ، حتى فى استعمال النحاة القدماء ، تلكم هى فكرة ((التكبير ، ونقيضه : التصغير) ، وقديستتبعان احيانا القصد الى التكثير والتقليل ، كما يلصق بهما احيانا اخرى معنى التعظيم والتحقير .

وحديث المؤلف عن هذه الفكرة منثور فى الكتاب فى مواضع كثيرة ، فهو يبدأ فى ص ٣٣ ليقرر ان اللغة تعامل العدد القليل فى حالة الجمع الداخلى (المكسر) ، وهو Le pluriel interne معاملة خاصة تخالف معاملتها للعدد الكثير ، ويذكر صيغ جموع القلة (أفعل ، وافعال ، وافعلة ، وفعلة) ، والكلام حتى الآن من كلام القدماء ، ثم يأتى دور ملاحظته الصيغ الثلاث الأولى ، ويعقب على ذلك : بانه ربما كانت الهمزة فى العربية الفصحى طريقة للدلالة على التقليل ، اى على تصغير الكمية Diminutif ، فى مقابل التكثير او التكبير : Augmentatif ، هذا على الرغم من ان الهمزة قد تكون للتكبير فى مثل صيغة أفعل التفضيل .

ولقد يخفى على القارىء معنى التكبير الملازم لأفعل التفضيل ، لا سيما حين يكون التعبير مثل : (فلان أصغر من فلان) ، ومع ذلك فان معنى التكبير متحقق حتى فى هذا المثال ، اذ ان المراد ان احد الفلانين (يزيد) فى صغره عن الآخر ، وهذا هو مقصد المؤلف .

فاذا انتقلنا الى ص ٥٤ قرانا بحثا ممتعا عن (استخدام الصيغ فى اللغة الانفعالية) ، فيذكر أن بعض الصيغ كانت تعبر قديما عن أغراض وخصائص بيانية ، ولكن حدث ان ابتذلت خاصتها البيانية ، فاستعيض عنها بصيغ اخرى ، ومن أمثلة ذلك : صيغة (فعال) التى كانت قديما للتصغير ، ولكنها حين ابتذلت خاصتها التعبيرية خرجت من الاستعمال ، تاركة بقايا ، وحلت محلها فى العربية صيغة (فعيل) ، ومن هذه البقايا مجموعة من الكلمات تعبر عن الانحرافات والأمراض ، نحو : صداع ، وسعال . ((وهو استعمال للتحقير) ، كما أن هناك صفات التكبير ، مثل : عظام ، وكبار وهمام .

وهو يقرر انه لا غرابة فى هذا الاستبدال ، حين تحل صيغة محل أخرى ، فكل اللغات توجد امام هذه الضرورة ، ضرورة تجديد وسائلها البيانية ، وكل منها تعالج ضرورتها بحسب عبقريتها . ثم نجده يقرر أن التصغير والتكبير ، من حيث هما لونان انفعاليان ، متلازمان فى العربية ، حتى ليحس المتكلم بصمتهما فى حدود الكلمة الواحدة ، وهو تلازم لا نجد مثله فى الفرنسية مثلا ، حيث لا يستدعى تصغيرها تكبيرا . وهنا أيضا لا يجد فليش غرابة فى هذا التلازم ، اذ كان التصغير والتكبير طريقتين متوازيتين ، للابتعاد عن مركز الوسط ، هما لونان عاطفيان متعارضان ، بينهما علاقة متبادلة ، بحيث يستدعى أحدهما الآخر ، واجتماعهما فى تعبير واحد أو صيغة واحدة ، يعتبر فى اللغة الانفعالية حالة شبيهة بحالة الأضداد ، كما يقال (الأضداد تتداعى) .

ويستطرد فليش فى ملاحظاته على صيغة (فعيل)وتعبيرها عن التصغير والتكبير ، فيقرر ان هذه الملاحظة قديمة ، ذكرها ابن يعيش فى المفصل ، حين تحدث عن « تصغير التعظيم » ، وذكر ايضا ان نحاة الكوفة هم الذين اضافوا ذلك ، كما ساق شاهدين له ، هما : « دويهية » ، من « داهية » ، و « جبيل شاهق » من « جبل » ، ثم قال ابن يعيش : وليس ذلك فىمذاهب البصريين .

ثم يورد لنا فليش الصيغ التى يمكن أن نجد فيها التعبير عن التصغير او التحقير ، والتكبير :

١ ــ فوعل : تكبير : شوغر (قوى شديد) ، وكوثر (خصب) . تصغير : جوزل (فرخ الحمام) ، ودوبل (جحش) .

٢- فيعل : تكبير : فيصل (قاض) .

تصغير : حيدر (الحصى الصغير) .

٣ ـ فعال : تكبير : كبار ، وهمام .

تصغير (تحقير) : خفاف ، وقرابة .

٤ ـ فعال : تكبير : حسان (جميل جدا) .
تحقير : زمال (ضعيف) .

٥ ـ فعيل : تكبير : ضريطة (ضخمة)

تصغير (مع رائحـــة التحقير) : عقيب (نسر صغير) . تحقير : زميل .

الى صيغ اخرى اشتركت فى اداء هذه الالوان المتعارضة ، مثل : فعول ، وفعائل ، وافعول وفعال وفعول ، وفعالة ، ساقها المؤلف بأمثلتها ، مع القاء أضواء التحليل النفسى عليهـا . وان المرء ليدرك ذلك اللون الذى تفـــرد به المؤلف حين نطالع فى ختام هذا البحث الاستقرائى هذه اللمحات الفريدة التى لا يستطيعها سواه من المهتمين بشئون هـذه اللغة الخـالدة ، فيذكر قولا للمستشرق ليتمان : « من المعروف فى كثير من اللغـــات أن التصفير يستعمل فى الوقت ذاته للتحقير ، فلو وصـــفنا شـابا بأنه مخطط كالنمـــــر ، تصفيرا له ، فتلك شتيمة » ، ثم ينتقل الى تطبيق روح هـــذا القول على الفاظ العربية ، تأكيدا لمقـــالته عن استخدام الصيغ فى اللغة الانفعالية فيقول :

« ثم اننـــا نستطيع أن نلمس الأشـياء من كلا طرفيها ، فان كثرة وقوع حدث ما ، والدرجة العليا فى صفة ما ، يمكن أن يصبح كلاهمـــا مستحقا للذام ، فالتكبير هنا يشمل التحقير ، فاذا وصف أمرؤ فى هيئته بأنه (كبـــار) فمعنى ذلك أنه كبير وضخم (تكبير) ، وأنه بطين ومفرط ، (تحقير) . واذا وصف ثوب بأنه (رقاق) فهو أولا ممدوح بأنه « رقيق ـ ناعم ـ دقيق » ، وهو أيضـــا تحقير للثوب بأنه « لا متـــانة له ولا قوام » . . ان مفردة واحـــدة من المفردات الانفعالية تحتوى صعوبات كثيرة عند التحليل ، ولـذا ينبغى معـــرفة جميع اشعاعات الكلمات ، حتى نحكم عليها حكما كاملا » .

وكان فليش بهـــذا يضع أساسا للدراســـــة الدلالية وتطبيقاتها على العربية الفصحى ، وهـــو مستوى لم يتوفر عليه باحث عربى ، ما خلا كتـــاب الأستاذ الدكتور ابراهيم أنيس « دلالة الألفاظ » الذى نال به جائزة الدولة عام ١٩٥٩ ، وعدا محاولة للدكتور كمال بشر ، نشرت منها مقالات ، ونرجو أن تنشر كاملة .

ويعاود فليش استقراء الصيغ الأخـــــرى التى تكمل دراسته للمشكلة فى ص ٦١ ، فيذكر صيغ : فعلال ، وفعاليل ، وفعول، ويذكر فى ص ٦٧ صيغة تفعال ، كما يعاود المحـــاولة فى دراسته للصفات المنتهية بالنون ، وما تفرع عنهــــا من التصريفات اللغوية التى بلغت ست صور مستعملة ، ولم ينس فى هذا المقام ان يقدم للقارىء دراسة علمية للتطور الصرفى الذى مرت به هـــذه الصيغ فى العربية بخاصة ، واللغات السامية بعامة .

●

وبعد : فانى أخشى على القارىء أن تكون محاولتى عرض الخصائص المنهجية فى هذا الكتاب قد أملته ، لكن هـــذا الجانب هو اهم ما ينبغى ان يلتمس من دراسة أعمال الفربيين ، فان ثقافتنا ليست فقيرة فى المادة القابلة للبحث ، كما ان بوسعنا ان نتصور علاقات معينة بين اجزاء هذه المادة ، ولكن تفكيرنا بحاجة دائما الى تحديد الخطوط المنهجية العامة ، التى تحكم علاقات جزئيات المادة ، بعضها مع بعض ، والتى ينبغى أن يجرى الفكر فى حدود فلسفتها . وقد غنى الفكر الفربى بفلسفة المنهج ، فحقق امجادا ثقافية شاد عليها بناء حضارته الشامخ ، ومن قبله غنى الفكر العربى الاســـلامى بفلسفة المنهج فمزق حجب الجهـــل والتخلف التى رانت على وجـــود البشرية على طول التاريخ ، وصـــــار بذلك المعلم الحقيقى للفكر الفربى الحديث .

وانى لأخشى من ناحية اخرى ان يكون اهتمامى بتحديد الأبعاد المنهجية للمؤلف قد صرفنى عنعرض موضوعات الأبواب والفصـــول ، وهو أمر يتوقعه القارىء دائما فى عرض الأعمال العلمية ، ويهمه ان يجده بين يديه :

درس المؤلف فى القسم الثانى مشكلة الصرف ، فخصص بابا للصرف الاسمى ، فى فصـــــول عن المفرد ، والمثنى ، والجمـــع الخارجى (السالم) ، والداخلى (المكسر) ، واسم الجماعة Collectif والنـــــوع . ثم درس نظرية (التحول الداخلى) La flexion interne واثرها فى الصياغة والصيغ ، وظاهرة (تناســـل الصيغ) ، والتحول الداخلى وعلاقته بتكرار صوامت الأصل ، ومشكلة الالصـــاق (للسوابق واللواحق والزوائد الوسطية) ، واثر التحـــول فى التعبير عن العدد .

وخصص الباب التالى للصرف الفعلى ، فعرض مشكلة الزمن الفعلى فى ايجاز ، ثم درس الفعـــل الثلاثى ، واثر التحول فى صياغته ، واثر الالصاق والتكرار ، وانواع الاسناد ، ثم درس الفعل الرباعى واصله ، وتطور الأصل الثلاثى الى رباعى ، والرباعى الاسمى ، والرباعى ذا الأصل الثنائى .

ثم خصص الباب الثالث لدراســة الضمائر : شخصية ، او اشارية ، او موصولة ، او استفهامية ، كما درس الظروف والفضلات والأدوات والروابط .

وجاء الباب الأخير خاصــا بدراسة النبر الديناميكى ، والموسيقى ، ونظــام الكلمات فى اللغة الفصحى ، وخصائص التركيب .

واختتم الكتاب بذكر اهم الملاحظات العلمية التى عنت لمؤلفه خلال دراسته فى العــربية ، وفى الساميات ، وجعل خاتمة الخاتمة قوله : « ان لغة الشعر العربى ، بمـا توفر لها من ثروة فى صيغها النحوية ، ورقة فى تعبيرها عن العلاقات التركيبية، انما تعد أعلى قمة بلغها نمو اللغات السامية » .

ان كتاب L'Arabe Classique اذا قدر له أن يترجم الى العربية سوف يحدث توجيها جديدا للدراسات اللغوية ، وسوف يملى اتجاهات تربوية على المضطلعين بتدريس العــربية فى معاهدنا المختلفة ، وكم اتمنى ان يقراه آنذاك كل محب لهذه اللغة الخالدة ، ليرى كيف يطل عليه اعجازها من خلال منهج علمى جـديد ، ينبغى أن تنمى محاولته على يد الباحثين من شباب العــروبة ، العاشقين للتجـديد ، الساعين الى الخلق والابداع ، فليست عملية ارسـاء اسس المنهج هى وحدهـا العملية الخلاقة ، وانما يساويها كذلك محاولات التطبيق ، والنقد ، والتقويم ، وقـد تفوقها اذا شاعت فى جوها روح التقدير ، ورغبة البناء .

وتحية تقدير واحترام للأستاذ الدكتور هنرى فليش ، أستاذ الدراسات العربية والسامية بجامعة القديس يوسف ، ببيروت ــ لبنان .



تدريس العلوم الحديثة باللغة العربية فى الجامعات

ندوة يشترك فيها

الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين
الأستاذ يحيى حقى
الأستاذ الدكتور عبد العظيم حفنى صابر
الأستاذ الدكتور محمود حافظ
الأستاذ الدكتور تمام حسان
الأستاذ الدكتور عبد العزيز شرف
الأستاذ الدكتور سعد الهجرسى.

يحيى حقى

اجتمعنا هذا المساء لنناقش مسألة هامة هى تدريس العلوم الحديثة باللغة العربية • فى وقت من الاوقات كان التدريس عندنا فى جميع مراحل التعليم ، بعد المرحلة الابتدائيه ، باللغات الأجنبيه ، الفرنسية ثم الانجليزية • وبعد ذلك تقدمت اللغة العربية فأصبح التعليم فى القسم الثانوى كله باللغة العربية ، ثم أصبحت بعض الكليات الجامعيه تدرس باللغة العربيه • ولكن بعض الكليات ما زالت الى الآن تدرس العلوم باللغة الانجليزية أو بلغات أوربية أخرى • والمسألة ترتبط أشد الارتباط بالنهضة التى نتمناها لبلادنا ، بل وأكثر من ذلك فانى أتطلع الى الوقت الذى نستطيع فيه أن ننفذ الى مجالات الامم النامية التى ستكتب لغتها بالأحرف العربيه ، نريد أن نصل الى هذه البلاد بكتب ، ليست فى الادب فقط ، بل نريد أن نوثق صلتنا العلمية بهذه البلاد واحتياجاتها العلميه بأن نقدم لها مؤلفات ومادة مكتوبة باللغة العربية فى هذه الميادين • ويشترك فى هذه الندوة نخبة من أساتذة الجامعات ، ونبدأ الآن بالسؤال الأول الهام وهو :

ما هى المواد التى تدرس الآن باللغات الاجنبية فى الجامعات المصرية ؟

د• عبد العظيم الحفنى :

المواد التى تدرس بلغة أجنبيه ، وهى عادة الانجليزية ، هى العلوم الطبية فى كلية الطب ، والعلوم الصيدليه فى كلية الصيدلة ، وبعض العلوم فى كلية الهندسة ، أما كلية الطب البيطرى فمعظم موادها تدرس باللغة الانجليزية • وفى كلية العلوم تدرس المواد باللغه العربية فى السنة الاعدادية والاولى ، وكذلك فى كلية الزراعة • أما كليات العلوم الانسانية (آداب، تجارة، حقوق) فالتدريس فيها غالبا باللغة العربية •

د. محمود حافظ :

أحب أن أضيف أن موضوع التدريس باللغة العربية موضوع طال فيه الجدل ، وانقسمت فيه الآراء الى فريقين : فريق يحبذ اللغة العربية ، لغة للعلم ، وآخر يرى غير ذلك لصعوبات سيأتي ذكرها في هذه الندوة . وتكملة لكلام الدكتور عبد العظيم حفني أحب أن أقول انه في كلية العلوم بالذات ما زالت معظم الدراسة تلان باللغة الانجليزية . ولعل مرد ذلك الى أن الكلية نشأت وجل أساتذتها ـ منذ سنة ١٩٢٥ عند بدء تكوينها ـ كانوا من الاجانب ، فكان لزاما أن تكون اللغة الانجليزية هي لغة التدريس في الكلية . واستمر الحال على ذلك من سنة ١٩٢٥ حتى سنة ١٩٦٠ ، وطبيعي أن عدد أعضاء هيئة التدريس من المصريين قد زاد تدريجا وحلوا محل الأجانب ، ولكنهم بدورهم تلقوا معظم تعليمهم في الجامعات الأجنبية ، وأشربوا روح التعليم الأجنبي من حيث الاطلاع على المراجع العلمية ، ومن حيث التدريس بالانجليزية . فلم يتطور التدريس ولم توجد الحماسة الكافية طيلة العشرين أو الثلاثين سنة الماضية حتى سنة ١٩٦٠ حين تحمس فريق من العلماء والمشتغلين بالعلوم ، وكان على رأسهم نخبة معروفة ممن يرون أن التدريس باللغة القومية أصبح أمرا ضروريا . فبدأ التدريس بها في السنة الأولى بكلية العلوم ، الا أن مشكلة المصطلحات كانت تظهر دائما . وقام نفر من المشتغلين بالعلوم في كلية العلوم بترجمة وتعريب بعض المصطلحات العلمية وكان على رأسهم الدكتور محمد والي ، وهو الذي تزعم هذه المدرسة في كلية العلوم بالذات طيلة ربع قرن من الزمان . وعندما تجمعت حصيلة من المشتغلين بالعلوم ، سواء في كلية العلوم أو في الهيئات العلمية الأخرى كمجمع اللغة العربية أو الهيئات العلمية المتحمسة للتعريب والترجمة ، وبعد أن ترجمت كتب كثيرة وذيلت بدليل للمصطلحات العلمية ، تجمع عدد كبير من المصطلحات ، واعتقد أن المجلس الأعلى للعلوم حتى سنة ١٩٥٧ جمع ما يقرب من عشرة آلاف مصطلح . وعندئذ وجدنا أن الأمر يقتضي أن يكون التدريس باللغة العربية . وأخذت الحماسة عند الكثيرين من المشتغلين بالعلوم تحدث ضغطا كبيرا في الجامعة نحو التدريس باللغة العربية . فكان أن بدأنا سنة ١٩٦٠ التدريس باللغة العربية في السنة الأولى بكلية العلوم على أن يتم ذلك تدريجا في السنوات التالية ، ولكن اتجه الرأي الى أن يقتصر ذلك على السنتين الأولى والثانية فقط ولا يطبق في الثالثة والرابعة حيث أن المراجع والدراسات العليا كلها باللغة الانجليزية ، كما أن المصطلحات لم تصل بعد الى المرحلة النهائية . وكانت هذه خطوة أولية في تدعيم الغرض الأسمى الذي نهدف اليه وهو التدريس باللغة العربية .

د. محمد كامل حسين :

المسألة أن نهاية المطاف هي أن تدرس العلوم باللغة العربية . هذا أمر لا مفر منه ، ولا يمكن لبلد عربي أن يقبل الاستمرار في التدريس بلغة أجنبية . التدريس بلغة أجنبية ضرورة لا بد من التخلص منها ، ولكن المسألة هي التخلص على أحسن وجه . وأحسن وجه هذا يستدعي ألا ننزل بمستوى العلوم عما هو عليه عندما تدرس باللغة الأجنبية . لأني أعتقد أن العالم يجب أن يكون عالما من الطبقة الأولى سواء أكان تعلمه باللغة الأجنبية أم القومية . هذا هو الأصل ، وعلى ذلك تصبح المشكلة هي اعداد الأمة لتدريس العلوم بالعربية . هذا الاعداد فرضناه بتقسيم المسألة الى عدة سنوات كما ذكر الدكتور محمود حافظ ، ولكن هذه التجربة لم تنجح كثيرا لأن الطالب حينما يدرس نصف برنامجه بلغة ويدرس النصف الآخر بلغة أخرى فان الفرقة بين المعهدين تكون واسعة جدا ولا يستطيع الربط بينهما . لا بد أن يكون الاعداد اعدادا تاما بحيث يمكن البدء بالتعليم باللغة العربية من السنة الاولى ويستمر الى آخر سني الدراسة ويحتاج هذا الى وقت طويل والى دراسة وافية . وقد بدا المجمع اللغوي في حل مشكلة المصطلحات وكنا نظن أن المصطلحات هي أكبر المشاكل ، ولكن بعد خبرة ثلاثين سنة على الأقل استطعنا أن نصل الى بعض القواعد الأساسية التي يسهل اتباعها في تعريب المصطلحات ، وكثيرا ما ضربت المثل في المصطلحات بأننا يجب أن نترجم كلمة Immunity بالمناعة ، اذ لا معنى لها الا اذا ترجمت . أما كلمة الأكسجين ، وهو مادة يمكن أن نعرف عنها كل شيء دون أن نعرف أصل الكلمة أو مصدرها فلا ضرورة لترجمتها ومصادر الكلمات الأجنبية لها تاريخ طويل وكثير منها خطأ ، ولكنها أصبحت علما يحسن أن نبقيه لأنه موجود في جميع البلاد . والمشكلة الآن ليست في المصطلحات وانما في أن يصبح التدريس باللغة العربية تدريسا أصيلا لا مترجما . فكثير من الكتب

المترجمة عبارة عن كتب أجنبية بحروف عربية وأسلوب أجنبى بل وتركيب الجملة اجنبى ، لدرجة أن الانسان يحتاج الى نقل هذه الجملة الى أصلها الأجنبى حتى يفهمها ، وذلك ناتج من الترجمة الحرفية • وعندما يصل المترجم الى ان يعبر عن نفسه بلغة عربية غير مترجمة تنطبق على تفكيره وتفكير طلبته ، يصبح هذا عملاً منتجا• أما الترجمة كما نراها الآن فهى عمل آلى لا يمكن أن يفيد لا الطالب ولا المدرس • والمسألة لا ترجع الى المصطلحات فقط ولكن الى أسلوب العلم ، لأن لكل لغة اولا أسلوبا ، ثم لكل علم أسلوب ، فأسلوب الرياضة والطبيعة جاف ، قاس ، ثابت ، لكل كلمة معناها المحدد • نحن الآن فى دور البحث عن أسلوب عربى علمى ليس مترجما ، فيه أصالة ترجع الى طبيعة اللغة وتفكير العالم بحيث لا يصبح مقيدا بالأصل • وأذكر مثلا ذكر البوصة والقدم فى المقاييس الهندسية ، كنت أكثر المحتجين على بقائها لأن انجلترا نفسها تريد أن تتخلص من هذه المقاييس وقالوا أن هذا صعب ، فقلت انه صعب للترجمة ، ولكن هناك كتب فرنسية وألمانية فيها مسائل هندسية بالأمتار ، ويحسن أن ينقل العالم العربى عن هذه الكتب ولا يتقيد بالكتب الانجليزية حرفيا كما يفعل الآن • نريد أن نتخلص من هذه العبودية للغة واحدة أو لطريقة واحدة • صحيح أن أكثرنا تعلم فى انجلترا ، ولكن نريد أن نتخلص من هذه العبادة العقلية بعد أن تخلصنا من التبعية السياسية والاقتصادية والاجتماعية • والمسألة تحتاج الى اعداد طويل مستمر ، ولكنى لا أشك فى أن النهاية الأخيرة لهذه المشكلة هى التدريس باللغة العربية الأصيلة وبأسلوب عربى سليم، واذا وجدت بعض المصطلحات الأجنبية فذلك لا يضير اللغة فى شىء •

د• تمام حسان :

المسأله فى رأيى لها جانبان لا نستطيع أن نغفل أحدهما : الجانب الأول شعورنا القومى ورغبتنا فى الاستقلال وان نقف على أقدامنا كأمة متقدمة • والمسألة الثانية أن العلم اليوم أصبح سلعة عالمية لا تستقل به أمة دون أمة ، والانتاج فيه لجميع الأمم وبكل اللغات • فتبدو المسألة فى بدايتها وكأنها مسأله اختيار ولكنها فى الحقيقة ليست كذلك ، لأننا نستطيع أن نوفق بين شعورنا القومى وبين مسايرتنا للركب العالمى • ومن قبل ، فى مبدأ ظهور الاسلام ، كانت الثقافة السائدة ثقافة عالمية فبعد أن كانت الثقافة اليونانية هى السائدة ، جاء دور أصبحت فيه ثقافة هيلينية تضافرت على نشأتها شعوب الشرق جميعا ، فما كان لشعب ان يستقل بهذه الثقافة دون الشعوب الأخرى • فلما جاء الاسلام ووجد المسلمون هذه الثقافة فى أيدى الناس ، بدأوا يخضعونها لوسائل شتى مثل التوليد ، والتوليد فى نظرهم كان يتم اما عن طريق الاشتقاق، اشتقاق الكلمه العربية الجديدة ، أو عن طريق الترجمة• وكانت الكلمة النهائية لذلك كلمة عربية•

أما الأمر الثالث فهو التعريب ، وقد وضع العرب قواعد لهذا التعريب خاصة بالاصوات المقروءة وبالصيغ الصرفية وبحروف الزيادة • اما فى الاصوات فقد جعلو حرف في اللغات الأجنبية قائما فى اللغة العربيه ، فكانوا يقولون فيزيقا ، موسيقا ، طوبيقا ، وكانوا كلما وجدوا (g) فى اللغة الأجنبية ترجموها الى «غ» فوجدنا كلمة فيثاغورث وغرناطة • وكانوا كلما وجدوا حرف (v) حولوه الى (p) فكانوا يقولون أشبيلية وقرطبة • فكل هذه القواعد الصوتية وضعها العرب من قبل • ووجدوا أن أمامهم فيما عدا ذلك صيغا صوتية ، كل صيغة تستعمل لمعنى معين، ففعال مثلا كصيغة حرفية كان معناها الداء باستمرار (صداع) ووجدوا كذلك ان الألف والسين والتاء كحروف زيادة تدل اما على الطلب أو على الصيرورة كما فى كلمة استقطاب فى اصطلاحات الكهرباء • لقد استطاع العرب بوسائلهم اللغوية أن يجابهوا هذا المد الزاحف من الثقافات الأصلية وأن يعربوا حينا ويشتقوا حينا آخر وأن يترجموا حينا ثالثا ، وأن يرتجلوا من اللغة العربية حينا رابعا • فالمسألة فى الحقيقة أن الأمة العربيه بوضعها الحاضر يجب أن تعرب العلم بمعنى أن تدرسه باللغة العربية وألا نضحى بالمصطلحات الأجنبية حفاظا على الصلة بالعالم ، فنضع المصطلحات الأجنبية الى جانب المصطلح العربى ، فذلك يوفر لنا استقلالنا القومى من ناحية ، ويجعل شعبنا قادرا على أن يضيف للعلم بلغته ، ومن ناحية أخرى لا يقطعنا عن المد العلمى الأجنبى ويجعلنا قادرين على مسايرة ركب الحضارة، وقد فطنت الجامعة العربية الى هذا منذ زمن ، واستطاع السوريون أن يعربوا العلم ويدرسوه

بالعربية فى جامعة دمشق . ولكنهم فى رغبتهم الملحة فى التعريب أسرعوا فى ذلك فلم ينضجوا بعض المصطلحات ، وخلقوا فيما بيننا وبينهم نوعا من الانفصال أدى الى أن بعض المصطلحات العلمية تدل على شىء عندنا غير الذى تدل عليه فى سوريا . ولو استمر هذا لخلق تشعبا فى الثقافة العربية تكون نتيجته خطرة على الأجيال اللاحقة ، التى لو قرأت بالعربية مصطلحين لشىء واحد لأحدث ذلك بلبلة ، لأن من شروط المصطلح العلمى أن يدل على شىء واحد دلالة دقيقة كما ان المصطلحات يجب ألا تتعدد للدلالة على نفس الشىء . وهذا يجعلنا أشد حرصا على أن ننسق الجهود العربية المختلفة حفاظا على وحدة الثقافة العربية . وذلك من مهمة الجامعات والمجمع اللغوى معا . وأنا أعلم أن المجمع اللغوى خطا خطوات واسعة فى هذا الصدد ، وقد قرأت بعض البحوث المنشورة ضمن أعمال مؤتمر المجمع وأعجبت بها كل الاعجاب ، وسرنى أن بعض علماء البلاد العربية الأخرى كانوا حاضرين وشاركوا فى مناقشات مؤتمر المجمع . والحقيقة أن المجمع لا يستطيع أن يقوم بهذا العبء وحده ، وانما ينبغى أن تسانده الجامعات التى تمارس هذا ممارسة عملية .

د. عبد العزيز شرف :

لو تتبعنا تاريخ العلم فى المجتمعات لوجدناه مرتبطا أشد الارتباط بحالة المجتمع . والدليل على ذلك ، أننا حين كنا دولة مستغلة أيام احتلال الفرنسيين كانت الدراسة بالفرنسية ، وأيام احتلال الانجليز كانت بالانجليزية . ولكننا الآن دولة نامية اشتراكية ، وتحتم ظروفنا أن نستغل لغتنا لصالح العلم عندنا . وهناك ظروف تحتم التعريب ، وتحتم تدريس العلوم بالعربية وهى – كما قال زميلى د. حسان تمام – القومية العربية ، فحين زرت روسيا مثلا ، وجدت أنهم متمسكون أشد التمسك بلغتهم حتى أن بعضهم ممن كان يعرف القليل من الانجليزية لم يكن يتكلم بها لاعتزازه بلغته . وقوميتنا العربية يجب أن تساير الركب العالمى الذى تحرص فيه كل دولة على الاعتزاز بلغتها ، هذا بالاضافة الى الأمل الذى يراودنا فى الوحدة العربية . وأظن أن سوريا قد بدأت قبلنا بالتعريب ، فقد قرأت كتبا ممتازة فى الأدوية تشجع على التدريس باللغة العربية فى الجامعات . ولكى نعرب العلم وندرسه بالعربية يجب أن يسير الأمر بالتدريج حتى لا نؤثر فى قيمة العلم ، وحتى نرتفع الى المستوى اللائق . كذلك يجب أن ندقق فى اختيار المترجمين وأن تكون هناك فترة طويلة للترجمة والتعريب حتى يأتى الوقت المناسب للتدريس باللغة العربية . وفى نفس الوقت يجب ألا نهمل اللغات الأجنبية . وأنا أرى وجوب الاهتمام بالتعريب ولكن دون عجلة .

د. سعد الهجرسى :

أعتقد أن هناك ثلاث نواح يجب أن أتكلم فيها : مسألة التدريس بالعربية ، والتأليف بالعربية . ومشكلة المصطلحات . وفيما يختص بالتدريس بالعربية أعتقد أن المشكلة تتعلق بالمصطلحات فحين استخدم المصطلح بلغة اجنبية فى أثناء تدريسى باللغة العربية لا يكون هناك فرق بين التدريس بالعربية أو بالانجليزية . وفيما يتصل بالتأليف ، أعتقد أننا يجب ألا نبدأ فى الكتابة والتأليف باللغة العربية الا اذا كنا قادرين ومتمكنين من لغتنا فى مجالات الكتابة العلمية . والكتب التى نشرت حديثا بالعربية ليست الا Text books للطلاب بهدف المذاكرة والامتحان فحسب . ولذلك لا نستطيع أن نسمى ذلك تأليفا علميا بالمعنى المفهوم . وفيما يختص بالمصطلحات يبدو ، كما أحسست فى هذه الندوة ، أن الاهتمام موجه الى المصطلحات العلمية فقط كمصطلحات الكيمياء والطبيعة والهندسة .. ولكنى أعتقد أنها مشكلة ما زالت تواجه الدراسات الانسانية أيضا لا سيما الفروع التى تقدم فيها الغربيون ، مما جعل أساتذة الجامعة يستخدمون دائما المصطلح الأجنبى .

وبذلك تنتهى المشكلة فى النهاية الى موضوع المصطلحات . ولى كلمة أخيرة فى هذا الصدد ، هى أن للغربيين لغة يكتبون بها أغلب المصطلحات وهى اللاتينية . وهى لغة غير مستهلكة ، وهم يحققون بذلك هدفا هاما فى اختيار المصطلح وهو ألا تكون الكلمة مستهلكة . واللغات الأوربية سعيدة الحظ بأن تجد فى اللاتينية هذا المجال . أما فى العربية فليس لنا لغة ميتة نستطيع أن نلجأ الى مفرداتها حين نختار المصطلحات . غير أن لدينا فى المعاجم ٨٠ ألف مادة لا نستعمل الا ربعها فقط على الأكثر ومعنى ذلك أن فى اللغة العربية مفردات شبه ميتة نستطيع أن نلجأ اليها ونستعملها فى وضع المصطلحات العلمية .

يحيى حقى :

أظن أن هناك شبه اتفاق على أننا يجب أن ندرس باللغة العربية فى جميع مراحل التعليم ، وأن الوضع الحالى وعوان ندرس بالعربية فى السنة الاولى والثانية فقط ، ثم بالانجليزية فى الثالثة والرابعة ، ليس الا مرحلة مؤقتة ويجب أن نتخلص منها . والسؤال الآن : هل الوضع الحالى بما فيه تعرض الطلبة للدراسة بلغة أجنبية لا يجيدونها ، هل هذا الوضع يعيق تقدمنا العلمى ؟ وهل هى مسألة جامعية منهجية ام هى أهم من ذلك ؟ أعنى هل لدينا أمل أن يكون لنا علم عربى وأبحاث مبتكرة ، ولا نقتصر على النقل . فنحن نريد أن نساهم فى التطور العلمى . ففى رأيى أن المشكلة لها نطاق أوسع ، هو أن ننفذ الى مرحلة الاضافة للعلم . وهذا الاجماع على أن ندرس بالعربية يحتاج منا الى أن نعرف الوسائل التى فى أيدينا للتدريس باللغة العربية . وفى ذهنى الآن بعثات محمد على التى رجعت وألفت كتبا عديدة مليئة بالمصطلحات . وفى بلاد اجنبية مثل تركيا تؤخذ اللغة العربية كلغة تشتق منها المصطلحات العلمية . وهناك بلاد حديثة لم تكن لغتها متطورة ومع ذلك استطاعت أن تسير فى تيار الخلق العلمى . فهل لجأت الى الترجمة أو الى الاشتقاق أم ماذا ؟ فى رأيى أنه يجب بحث هذه المسألة . ولكن من الذى يقوم بهذا البحث ؟ . واذا اتفقنا على أنه من الضرورى أن تكون لدينا مصطلحات مؤلفة فهل يمكن وضع خطة للخروج من هذا المازق ؟ . وأنا ألاحظ أن بعض العلوم الانسانية مثل علم النفس كاد ينتهى من مشكلة المصطلحات باللغة العربية بعكس الحال فى الذرة مثلا . واعتقد أنه يجب أن يكون هناك تكامل فى لغتنا فلا تكون نامية فى مجال ما وقاصرة فى مجال آخر . فالنمو اللغوى ونهضة اللغة العربية لن يتأتى الا اذا نفذت اللغة الى جميع المجالات . وأريد أن أعترف لكم ، كرجل متصل بالعلوم الانسانية ، أن مشكلة المصطلحات ما زالت قائمة فى مجالات كثيرة مثل مجال الفنون الجميلة .

والسؤال الآن : ما هى الخطة التى نخرج بها من المرحلة القلقة التى نحن فيها .

د. عبد العظيم حفنى :

الواقع أن احدى الوسائل الى ذلك أن يتوصل المهتمون بالعلوم الى المقدرة على التعبير عن أنفسهم علميا بلغة عربية سليمة . فمعظم الذين يدرسون العلم لم يدرسوا اللغة العربية ويتعمقوا فيها . هذه هى المسألة . فاذا كنا نستطيع أن ننمى اللغة العربية فربما يكون هذا حلا . أذكر أننا أحيانا نظل نتناقش ساعتين حتى نجد كلمة عربية مناسبة لمصطلح أجنبى .

يحيى حقى :

هذا يذكرنى بأيام محمد على حين كانت الدروس تلقى باللغة الفرنسية ثم يترجمها شخص آخر الى العربية ، ولما لم يكن هناك من يعرف العربية والفرنسية جيدا فكان يقوم شخص فرنسى بالترجمة الى العربية فكانت لغته العربية غير سليمة النطق ركيكة ، فكان يأتى شخص ثالث ليترجم العربية الركيكة الى عربية سليمة . فهل ننصح الآن بالمشاركة ، أى بأن يتولى الأمر عالم فى المادة وعالم فى اللغة .

د. محمد كامل حسين :

أنا لى رأى فى اللغة وهى أنها صورة للتفكير فى البلد وليست أصلا لهذا التفكير . واذا أصلنا العلم فستاتى الاصالة فى اللغه بدون مجهود . واذا بدأنا بتأصيل اللغة وتعلمها بدقة ، وهذه مشكلة فى حد ذاتها ، فسنجد أننا لم نتقدم بالعلم . والأصل فى المشكلة أن نؤصل العلم فى بلدنا ومن ثم يسهل علينا التعبير عنه بلغتنا . وعندما أجد نموذجا من الترجمة العقيمة أقول للمترجم قل لى ما معناها بالعامية فيقولها بوضوح ، فأقول له انقلها الى الفصحى بهذا المعنى فتاتى الترجمة سليمة مستقيمة فارجو ألا نلح كثيرا فى السؤال هل العربية تصلح لغة للعلم أم لا ، ولا أن نلح فى ذكر تاريخها القديم لانه يزعجنى أن أرى أن العرب لا يزالون يبحثون عن مبرر لقيمتهم التاريخية . هذا نوع من الضعف كان موجودا فيما مضى . أنا لا أدافع عن اللغة العربية لأنها ليست فى حاجة الى دفاع . ولا اريد أن أقول ان العلم العربى كان رائعا لانه كان رائعا بالفعل . وهذا كان محل شك فيما مضى ، أما الآن فلنترك هذه الناحية الشعورية ، والسياسية ، والاجتماعية جانبا ونبحث فى المسألة موضوعيا .

د. محمود حافظ :

أنا أؤيد كلام الدكتور محمد كامل حسين حول تأصيل العلم أولا . وحين زرت روسيا واليابان والصين وجدتهم يدرسون العلوم بلغاتهم الأصلية ووصلوا الى ذلك عن طريق تأصيل العلم . ولعل هذه الأصالة فى العلم هى التى جعلتهم يؤلفون بلغاتهم القوميه ولا يرون فى هذا أى تخلف عن الغرب . ويجب أن نتجه هنا فى مصر - تأييدا للرأى السائد فى هذه الندوة - الى تأصيل العلم والاقلال من استيراده ، لأننا فى الواقع لا زلنا عبيدا للعلم الغربى . اذ يجب أن يكون لدينا علم مصرى أصيل نابع من مصر ومن البلاد العربية ، كما كان الحال أيام ابن سينا وابن الهيثم وغيرهما ممن أصبحت كتبهم تدرس فى أوربا وتترجم حتى القرن السابع عشر . بينما نحن الآن مع الاسف نعزف عن - أو لسنا مشوقين بالقدر الكافى الى - تكوين علم نابع من علمائنا المصريين . هناك طبقة من العلماء يزيدون من صعوبة الأمر بقولهم أن العلم خطا خطوات فسيحه فى البلاد الأخرى وأنه قد يصعب علينا أن نأتى بجديد فى هذا العلم هنا فى مصر . وهذه فى الواقع دعوة انهزاميه خصوصا وقد أصبحت الدولة الآن تعطى البحث العلمى أهمية خاصة . وهذا فى الواقع طور جديد فى مجتمعنا المصرى ، الاعتراف بالعلم والبحث العلمى . ولكن هناك صعوبات يجب أن نذللها . أولا ، أحب أن أقول من خبرتى فى تدريس بعض العلوم باللغة العربية فى كلية العلوم ، ان الطلبة يهضمون المعلومات ويتمثلونها فى يسر وسهولة حين تعطى لهم باللغة العربية أفضل من اللغة الانجليزية . خصوصا وأن مستوى الطلاب الذين يفدون الى الجامعات من المدارس الثانوية أصبح من الضعف فى اللغة الانجليزية بحيث يصعب عليهم تلقى العلم بلغة غير لغة بلادهم . ولذلك أرى أن التدريس باللغة العربيه فى الواقع أجدى عليهم بكثير بالنسبة للحصيلة التى يهضمها ويتمثلها طلابنا فى الجامعات . ولكن قد يرد على هذا بعض المعارضين بالقول أننا اذا درسنا بالعربية فى هذه المرحلة فان الطالب سيتخرج ومعه درجة البكالوريوس مثلا فى الكيمياء وقد درس كل علومه بالعربية ، ففى هذه الحالة قد يعزف عزوفا كبيرا عن الاطلاع فى الكتب الأجنبية ، وخصوصا فى بعض العلوم كالطبيعة والكيمياء ، حيث يتطور العلم فى سرعة كبيرة . ولكن هذا القول مردود فى الواقع اذ يمكن تلافى ذلك بتدريس اللغة الأجنبية والتركيز عليها فى بعض الكليات العلمية التى تدرس العلم باللغة العربية . هذا ما يحدث فعلا فى بعض البلاد التى تدرس بلغاتها القومية . أما عن المصطلحات فيجب أن تولى عناية كبيرة . والتاريخ الذى مرت به جهود الخاصة نحو المصطلحات تاريخ طويل . وأعتقد أن هيئات كثيرة كمجمع اللغه العربيه ، والاتحاد العلمى ، والمجلس الأعلى للعلوم ، والمجلس الأعلى للبحث العلمى ، والمؤلفين العرب ، كل هؤلاء أعتقد انهم قاموا ويقومون بجهد ملحوظ فى سبيل تعريب المصطلحات أو ترجمتها . وقد كنا منذ عهد قريب فى مارس الماضى فى المؤتمر العلمى الخامس فى بغداد وكان ضمن أعماله جزء خاص بالمصطلحات العلمية . وحدث هذا أيضا فى المؤتمرات السابقة منذ سنة ١٩٥٣ . كما أحضر اليونسكو خبيرا للجامعة العربية حضر الى مصر وقام باعداد حوالى ١٥٠٠ مصطلح فى علم الطبيعة على الأصول العلمية المتعارف عليها ، ووضع تراجم وتعريفات علمية لهذه المصطلحات ثم ترجمت هذه التعاريف الى العربية وعرضت على العلماء فى مصر ، ثم طبعت ووزعت على البلاد العربية ليراها العلماء العرب ، ويبدوا رأيهم فيها . وقد هال الاتحاد العلمى أن يرى هذه المصطلحات وجلها فيه خلاف كبير بين علماء البلاد العربية . فمثلا بندول الساعة معروف فى مصر كبندول ، وفى سوريا كرقاص ، وفى الأردن كخطار . واذا أخذنا بعض الكلمات مثل Decomposition و Disintegration و Breaking Down و Deterioration وكل هذه الكلمات تعنى الفساد والانهيار والتحلل ، ولكن كل كلمة منها أوردها علماء البلاد العربيه بطريقة تخالف ما هو موجود فى مصر ، وتخالف ما هو موجود بالعراق وسوريا وهكذا . ويبدو أن المشكلة مستعصية ولا زالت الى اليوم كذلك ، وقد ظهر هذا فى المؤتمر العلمى الماضى ، حيث عرضنا على المؤتمر عشرة آلاف مصطلح هى حصيلة ما جمعناه من بعض المراجع العلمية ومن المصطلحات التى أعدها المجلس الأعلى للعلوم وغيره من الهيئات . ومع ذلك فالصعوبة باقية بين البلاد العربية فى موضوع المصطلحات . ولكن هناك أمل كبير فى توحيد هذه المصطلحات . وأعتقد أن الكتابة بعد تأصيل العلم يجب أيضا أن تتضمن توحيدا فى المصطلحات حتى لا تحدث البلبلة بين القراء العرب فى مختلف الأقطار ، بل حتى هنا فى مصر تستخدم المدارس الثانوية والجامعات مصطلحات متعددة لنفس الكلمة . ونحن نحاول الآن أن نضع توحيدا لهذه المصطلحات . وأعتقد أن الأمل كبير فى ذلك . فمنذ أيام كلفت لجنة فى المجلس الأعلى للبحث العلمى بوضع قاموس فى المصطلحات العلمية فى شتى الفروع . وسترصد ميزانية كبيرة لهذا المشروع ، وستؤلف لجان فرعية

تضم المتخصصين فى هذه المجالات ، وسيوضع تحت تصرف اللجنة ما هو موجود من المراجع والقواميس المعروفة قديمها وحديثها • وستحاول اللجنه فى خلال خمس سنوات أن تنتهى من هذا القاموس حتى يمكن ان يكون أداة حاسمة من ادوات النقل الى اللغه العربية تحت أيدى المؤلفين والمشتغلين فى البحث العلمى وراغبى تأصيل العلم فى هذه المرحلة كما قال د• محمد كامل حسين • فبدون هذا التأصيل وبدون أن يكون هذا العلم نابعا من عقول مصرية فان العمل يكون آليا وليس خلاقا كما ينبغى وكما هو الحال فى البلاد المتقدمه •

د• تمام حسان :

تأصيل العلم ، وانا هنا أعزز كلام د• كامل حسين و د• محمود حافظ ، غاية ما أجلها وأكرمها ولكن لو نظرنا لوجدنا أن تأصيل العلم معناه أن يصبح العلم عربيا، وأن يكون نابعا من البيئة العربية وهذا بالضبط ما نريد أن نصل اليه وأن نتلمس له الوسائل • ومن هذه الوسائل – كما ترى هذه الحلقة – تعريب المصطلحات • فنحن فى الحقيقة رجعنا الى حيث كنا • فلا بد من تعريب المصطلحات ولا بد من البحث عن الحل الذى نصل به الى تعريب هذه المصطلحات • المشاهد فى الحياة العامة أن البحث اللغوى الذى لم تعقده الدراسة عند العامه يحل المشاكل اكثر مما تحله خبرة الخبراء فى اللغة وفى العلوم • فالعامة يختارون من المصطلحات ما يستطيعون أن يخضعوه حتى للتصريف على الطريقه العربية • فنجدهم فى تعريبهم للكلمات الأجنبية – بقطع النظر عن المصطلحات – يختارون مثلا كلمة « التشطيب » فيقولون شطب ويشطب • وسمعت من العمال اليمنيين فى كاردف أن فلانا اذا أخذ يوما أجازة يقولون ديف Took a day off واذا طرد وأخذ أجره يقولون بيف he was paid off • مثل هذا التعريب يمكن أن يحتذى به فى المصطلحات • والحقيقة أن الحل لا يكون بمجرد انشاء لجنة • فاللجنة التى تحدث عنها الدكتور محمود حافظ ، وهى محل ثقتنا وتقديرنا ، ليس لها قوة الالزام • وحتى مع نجاحها فى تعريب المصطلحات لم تستطع ان ترغم الدول العربيه على قبول هذه المصطلحات • والحل فى نظرى أن نختار لكل مادة المتخصصين فيها من بلاد مختلفة • وأن يكون ضمن هذه اللجنة بعض الخبراء فى اللغة • ثم تتفرغ كل لجنة لتعريف أو ترجمة أو اشتقاق المصطلحات العربية القديمة ، ويلتزم أعضاء هذه اللجان باستخدام تلك المصطلحات فى مؤلفاتهم • وبذلك يجد الناس أن هذه المصطلحات التى شاعت على ألسنة أعضاء اللجنة وفى كتبهم تستحق ان تستخدم وأن تتخذ لنفسها الصيغة العرفية الخاصة بكل علم • اذ أن فوضى الاستخدام الفردى للمصطلحات لن تنتهى بنا الى نهاية • حتى فى الدراسات الانسانيه وفى مجال تخصصى ، وهو الدراسات اللغوية ، ما زال هناك بعض المصطلحات التى لم تترجم أو تعرب الى الآن ، وكل متخصص يستخدم لنفسه مصطلحا خاصا به • وكان بعض المتخصصين سعداء الحظ لأنهم كانوا أعضاء فى المجمع اللغوى فأخذوا موافقه أعضاء المجمع على مصطلحاتهم ولكن استعمال المصطلحات خارج المجمع لم يتقيد بذلك • فالمشكلة لا تقف عند حد تأليف اللجان المشتركة بين البلاد العربية ، وانما ينبغى أن يضاف الى ذلك التزام أعضاء هذه اللجان باستخدام المصطلحات التى وافقوا عليها عند التأليف • وعندما يكسبون هذه المصطلحات الصبغة الخاصة أظن أن الناس سيستخدمونها من بعدهم •

د• محمود حافظ

أحب أن أطمئن الدكتور حسان تمام الى أن كلامه هذا صيغ فى صورة توصية فى المؤتمر العلمى الخامس فى بغداد وأن رغبته التى يتحدث عنها كانت أيضا من الموضوعات التى أثيرت فى المؤتمر واتفق على ضرورة موافقه الدول العربية على المصطلحات وعلى التزام المؤلفين العرب بها • ومع ذلك فأنا لست متفائلا الى حد كبير، ففى أثناء مناقشات المؤتمر كان كل طرف يتمسك بوجهة نظره ، ويرى أن تعريبه أو ترجمته للمصطلح هى المناسبه ، وكان الخلاف فى الواقع كبيرا حول المصطلحات • وأنا أوافق د• تمام حسان على أن المجمع اللغوى يضع مئات المصطلحات ولكنها تظل حبيسة الكتب والمراجع • وأعتقد أن الوقت نفسه كفيل بأن يثبت المصطلح وصلاحيته ، وشكرا •

الأستاذ محمد عيد

لا شك أننا فى هذه الندوة أظهرنا المشكلة . ان كانت هناك مشكلة حقا، وظهر من المناقشة ان الامل كبير جدا فى التعريب وأننا فعلا سنصل الى تدريس العلوم باللغة العربية فى القريب ان شاء الله • وأن الأمرين اللذين يقفان تجاه هذا الموضوع هما التأليف العلمى العربى ، ومشكلة المصطلحات • ولا شك ان الامل معقود على علمائنا فى هذين الامرين . وفى ختام هذه الندوة نتقدم بالشكر الى الاساتذة الذين اشتركوا فى المناقشه •

الورقة الأخيرة

ما لا يستطيع غير زكي طليمات

أمتع كتب المسرح هى التى يؤلفها كبار رواده عن حياتهم وخبراتهم الفنية ، اذ تجمع فى العادة بين طرافة السيرة الذاتية وعمق التجارب والآراء ، وتقدم مادة غنية لتاريخ المسرح وتفهم تطوره وأسراره ، بالاضافة لما تحققه من متعة فنية كبيرة اذا كان كاتبها من المسيطرين على أداة الكتابة مثل سيطرته على أدوات المنصة .

ولكم تمنيت أن تحظى مكتبتنا العربية بكتاب من طراز هذه الكتب التى الفها رواد المسرح الأوربى ابتداء من ستانسلافسكى وجوردون كريج وجورج فوكس حتى المر رايس وجان نوى باور، ولم أجد بين رجال مسرحنا المعاصر من يستطيع تحقيق هذه الأمنية مثل زكى طليمات ، فهو الرجل الذى عاش أطول فترة من تاريخ مسرحنا بالطول وبالعرض وبالعمق ، وكان له أضخم الأثر فى تنميته وتطويره ، وتزويده بالخطط والقيم والمشروعات ، وأهم من ذلك بخيرة العاملين فيه اليوم من أمثال نبيل الألفى وحمدى غيث وسعد أردش وكرم مطاوع ومحمد عبد العزيز ، وكمال عيد .. وسناء جميل، وسميحة أيوب .. وعشرات غيرهم وغيرهن ممن يقوم عليهم اليوم أهم قطاع انتاجنا المسرحى .. فمن غيره اذن يستطيع أن يؤلف لنا مثل هذا الكتاب ؟! ..

لذلك ما جلست اليه مرة الا والححت عليه فى أن يكتبه ، ولو فى شكل حلقات تنشرها « المجلة » ، فيسهل بعد ذلك جمعها فى كتاب . وكنت دائما أجد لديه الاقتناع والحماسة والرغبة فى التنفيذ ، بل لقد اعترف لى مرة ان أكبر أمنية فى حياته اليوم أن تتاح له فرصة التفرغ لتأليف هذا الكتاب ، خاصة وان نقاطه الرئيسية مدونة بالفعل فى أربع مفكرات كبيرة يحتفظ بها فى أدراج مكتبه . فهو يعتقد انه أخرج حتى اليوم ومثل من المسرحيات ماليس بعده زيادة لمستزيد ، وشغل من المناصب الادارية الفنية فى خدمة المسرح المصرى والعربى مايكفى عشرة رجال لا رجلا واحدا ، وباستطاعة تلاميذه العديدين أن ينهضوا اليوم بذلك كله مثله أو خيرا منه ، أما تأليف هذا الكتاب فهو وحده الذى يستطيع النهوض به ، وهو أكبر خدمة يستطيع أن يسديها اليوم لمسرحنا ، لينفع به الجيل الحاضر والأجيال القادمة من العاملين بالمسرح .

**** « التمثيل - التمثيلية - فن التمثيل العربى »**

وقد تلقيت أخيرا كتابا من تأليف زكى طليمات ، أرسله الى من الكويت حيث يعمل الآن مشرفا عاما على مؤسسة المسرح والفنون ، فظننت أنه قد وفق الى تحقيق أمنيتى وأمنيته ، ولكن سرعان ما خاب ظنى حين قرأت عنوان الكتاب وهو « التمثيل - التمثيلية - فن التمثيل العربى » .

ان الكتاب ممتع ومفيد اذا وضعناه فى مكانه ، وفهمنا الهدف من تأليفه ، وقد حرص المؤلف على توضيحه فى تقديمه حيث يقول :

« .. روعى فى تناول بحوثه ، أن ترد موجزة ، وفى خطوط عريضة ، وبحيث تخاطب فى يسر وهوادة الشباب العربى الذى يدفعه شغفه بالمسرح الى ان يكون ممثلا ، او مؤلفا ، او ناقدا ، أومن رواده العارفين ، هذا الشباب المتفتح الذى يعرف أن العلم سبيل المعرفة ، وأن المعرفه ليست طريقا الى التفوق فحسب ، وانما هى الأداة الأولى لتعميق نظرتنا فى الحياة وفى الناس .. ومن هذا الشباب فريق ينتظم الآن فى (مركز الدراسات المسرحيه) الذى انشأته (وزارة الشئون الاجتماعية والعمل) فى هذا العام ، لاعداد شباب مستقبلى للمسرح الكويتى الناشىء ، بحيث يجمعون خصب الاستعداد الفطرى ، الى جانب التحصيل العلمى والأدبى فى مختلف فنون المسرح .. لهذا الشباب ، وطبقا لمستواه العام ، قد وضعت هذه البحوث .. »

نحن اذن امام كتاب مدرسي فى المقام الأول ، وهو فى هذه الحدود يعتبر كتابا ممتازا ، اذ استطاع مؤلفه أن يقدم تعريفا مركزا مبسطا لأهم الحقائق التى يحتاجها شداة المسرح العربى فى أول طريقهم لتحصيل ثقافة مسرحية جادة ، فقد بدأ بحديث عام عن الفن والتعبير ، ومكان التمثيل بين مختلف الفنون ، مع التعريف بأهم الفاظه ومصطلحاته ، ثم وقف عند المسرح الاغريقى فأطال الوقوف بعض الشيء ، لما هو معروف من انه الأصل الذى نبع منه المسرح الأوربى فى مختلف اقطاره وعصوره ، ثم مر مرورا سريعا على المسرحين الرومانى والمسيحى ، لينتقل بعد ذلك الى الظواهر التمثيلية التى عرفها العرب قبل نشأة مسرحهم منذ ما يقرب من قرن ، وعرض فى الصفحات الباقية من الكتاب ، وهى لا تتجاوز الستين ، تاريخ المسرح العربى منذ مارون النقاش حتى يومنا هذا ، مكتفيا بطبيعة الحال بالمعالم الرئيسية والاتجاهات العامة لتطوره . وفى هذا القسم الأخير قدر كبير من الآراء الشخصية والتعليقات الذاتية التى توصل اليها المؤلف خلال احتكاكه المباشر بمسرحنا منذ ما يقرب من نصف قرن ..

وقد نأخذ على الكتاب هنة هنا وأخرى هناك ، وهو أمر طبيعى بالنسبه لاتساع الرقعة التى تناولها ، ومن ذلك مثلا زعمه أن قصة « أوديب » وردت مفصلة فى « الالياذة » ، مع أنها وردت فى «الأوديسة» وبايجاز شديد ، او قبوله للرأى الشائع بأن أرسطو قال بالوحدات المسرحية الثلاث ، فى حين أنه لم يقل فى حقيقة الامر الا بوحدة الموضوع فقط .. وقد نختلف مع المؤلف فى تفسيره لهذه المسرحية أو تلك ، ولكن هذا لا يمنعنا من تقدير الجهد الكبير المبذول فى تأليف الكتاب ، والنفع الواضح الذى يقدمه لقرائه من طلاب الثقافة المسرحية ..

**** موسوعة المسرح العربى**

وبالرغم من ذلك أعود فاقول ان الكتاب قد خيب ظنى ، فكما يستطيع اى تلميذ من تلاميذ زكى طليمات أن يباريه اليوم فى الاخراج والتمثيل ، يستطيع ايضا ان يؤلف مثل هذا الكتاب ، فان لم يستطع ، فان أى ناقد مسرحى جاد يستطيع ان ينهض بهذا الواجب على خير وجه ، اما مالا يستطيع أن يكتبه الا زكى طليمات فهو تاريخ مسرحنا كما عاشه ولمسه عن قرب . وقد صارحته بهذا الرأى فى احدى رسائلى اليه ، فجاءنى رده يقول :

« .. التاريخ الدقيق لمسرحنا ، يستلزم أمر كتابته تفرغا تاما ، وهو فى قيام المسرحيه وتطورها غير تتبع أطوار الحركة المسرحية ، وغير تسجيل انطباعاتى وذكرياتى .. وانى لأدعو الله أن ييسر أمر انجاز هذه المهمة .

وقد انتهى الى أخيرا بأن لجنة المسرح فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب قد رشحتنى بالاجماع لأن أتولى عمل (موسوعة) للمسرح العربى قديما وحديثا ، على أن تمنحنى (تفرغا) لانجاز هذه الموسوعة ، فهل انتهى اليك أمر هذا الخبر ؟؟

اننى أرحب بهذه المهمة ، ومستعد أن اترك الكويت بعد أن امتلأت أوعيتها وطاقتها بمفاهيمى المسرحية ، ولم يعد هناك مكان وفراغ ليمتلىء بما عندى .

وقد وفقت والحمد لله فى تقديم طلبة المعهد الى الجمهور فى حفلات عامة لمدة اربعة أيام من ٢٣-٤-٦٦ الى ٢٦ ، قدموا فيها فصلين من مسرحية (مجنون ليلى) لأحمد شوقى ، ثم مسرحية كوميدية فكاهية باللهجة الاقليمية . ولأول مرة يسمع الجمهور الكويتى شعرا معبرا يجرى على السنة ممثلين يخضعون التفاعيل والأوزان لمقتضيات المعانى ، ولا يجرى الشعر على السنتهم انشادا مفخما منتعشا .. »

والحقيقة انه لم ينته الى شيء عن قرار لجنة المسرح الذى أشار اليه الأستاذ زكى طليمات فى رسالته ، فان كانت قد اتخذته بالفعل فهو قرار حكيم بلا ريب أرجو أن تسارع وزارة الثقافة الى تنفيذه قبل أن يعود زكى طليمات لتجديد عقده مع حكومة الكويت ، وان لم تكن قد اتخذته حتى الآن ، فلست ارى ما يمنعها من اتخاذه متى فطنت الى أهميته وجدواه .. ان لم يكن تكريما لهذا الرائد الكبير ولجهوده الضخمة فى خدمة مسرحنا ، فحرصا منها على تاريخ مسرحنا وتسجيل مراحل تطوره ونمائه ، وهو فيما أعتقد من أهم واجباتها ومسئولياتها ..

